الشعر العربى فى صقلية

فى القرن الخامس الهجرى

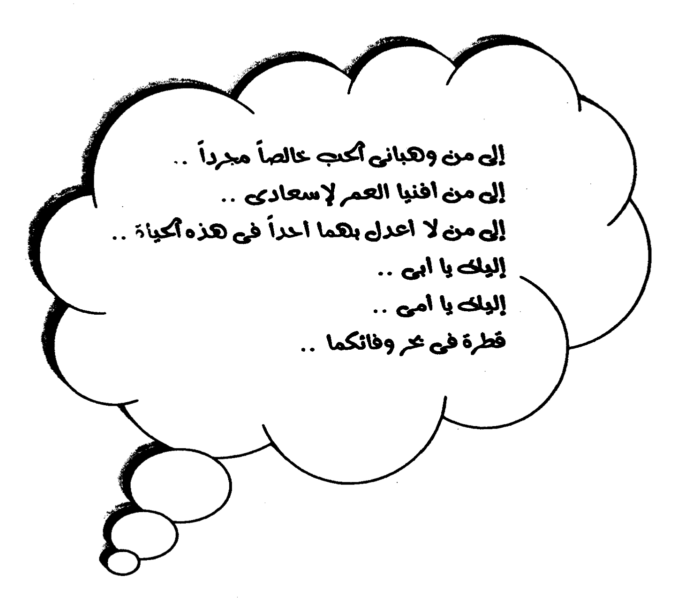
دكتور
فوزى عيسى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى
٢٠٠٧ م

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس : ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية

الشعر العربى فى صقلية

فى القرن الخامس الهجرى


إلى من وهبانى الحب خالصاً مجرداً ..
إلى من افنيا العمر لإسعادى ..
إلى من لا اعدل بهما احداً فى هذه الحياة ..
إليك يا ابى ..
إليك يا امى ..
قطرة فى بحر وفائكما ..

د. فوزى عيسى



مُقدّمة

وصل العرب بفتوحاتهم إلى صقلية، تلك الجزيرة النائية ذات الطبيعة الساحرة، والموقع الجغرافى الممتاز، ففتحوها، ونشروا فيها لغتهم ودينهم، وحملوا إليها مشاعل الحضارة، وأنوار المدنية، وتراث المعرفة، وما لبثت تلك الجزيرة أن تمثلت الحضارة العربية، واستوعبت التراث الإسلامى، واستطاعت بعد وقت قصير أن تخرج أجيالا من العلماء والأدباء والشعراء الذين قد لا يقلون مكانة عن أضرابهم من المشارقة، كما استطاعت أن تصبح قطباً من أقطاب الحركة الأدبية فى المغرب العربى، بل أن تكون حلقة اتصال هامة بين العرب وأوربا.

وعلى الرغم من أهمية هذه البيئة من الناحية الأدبية فإنها تعد أقل البيئات حظاً من عناية الدارسين والباحثين، ولم تظفر حتى الآن بدراسة علمية منهجية تؤرخ للشعر والشعراء فيها، وتضعها فى مكانها المناسب بين البيئات الأدبية الأخرى. ومن هنا رغبت فى دراسة الشعر الصقلى، وحاولت أن أكشف النقاب عن خصائصه وسماته، وأن أبرز بعض جوانب الطرافة والجدة فيه.

وآثرت أن أحدد موضوع البحث بالقرن الخامس الهجرى وذلك لعدة أسباب منها أن الشعر الصقلى لم ينضج وتتضح سماته وملامحه إلا فى تلك الفترة، ومنها أيضاً أن أشهر شعراء صقلية أمثال ابن حمديس وابن الخياط وأبى العرب وابن الطوبى والبلنوبى وابن القطاع قد عاشوا فى هذا القرن.

وكانت أولى خطوات البحث هى جمع مادة كافية من الشعر تصلح للدرس والبحث، وكانت الخطوة الثانية هى تنقية هذه المادة، واختيار النصوص التى تمثل تلك الفترة وكان ذلك أمرًا صعبًا لأن أصحاب المصادر ومؤرخى الأدب لم يهتموا بتراجم الشعراء الصقليين إلا فى القليل النادر، ومع

ذلك حاولت أن أتغلب على هذه الصعوبة بقدر المستطاع بالاعتماد على قصائد الشعراء المشهورين الذين عاشوا فى هذا القرن، ثم بالاعتماد على ما ورد من إشارات قليلة إلى أن هذا الشاعر أو ذاك كان ينتسب لتلك الفترة.

وبعد أن تمكنت من جمع مادة شعرية مناسبة من المصادر الخطية والمطبوعة كانت الخطوة التالية هى قراءة هذه النصوص قراءة متأنية دقيقة لاستخلاص النتائج والأحكام منها.

وقد اعتمدت فى جمع الشعر على مصادر خطية كثيرة مثل مختصر الدرة، وديوان البلنوبى، ومعجم السفر للسلفى، و الذخيرة لابن بسام، والمغرب فى حل المغرب لابن سعيد.

واعتمدت من المصادر المطبوعة على (جريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهانى بطبعتيها المصرية والتونسية، بالإضافة إلى ديوان ابن حمديس وبعض المصادر الأخرى مثل "عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب، للنيفر و"المحمدون من الشعراء" و"أنباه الرواه على أنباه النحاه" للقفطى وغيرها مما سنشير إليه أثناء البحث.

وللإلمام بتاريخ صقلية اعتمدت على بعض المصادر التاريخية مثل الكامل لابن الأثير و"البيان المغرب" لابن عذارى المراكشى وغيرهما.

أما عن المصادر الحديثة، فقد رجعت إلى ما كتبه المستشرق الإيطالى ميشيل أمارى عن صقلية فى كتابيه (المكتبة العربية الصقلية) و (تاريخ مسلمى صقلية) باللغة الإيطالية.

وتقتضى الأمانة العلمية أن أنوه بالجهد الذى بذله الدكتور احسان عباس فى كتابه (العرب فى صقلية) وإن كنت أرى أن دراسته للشعر كانت غير وافية، فقد اهتم بتاريخ صقلية أكثر من اهتمامه بأدبها.

وقد تيسر لى الحصول على ثلاثة كتب عن صقلية، أولها بعنوان (تاريخ الأدب العربى فى صقلية) للمستشرق الإيطالى أمبرتو ريزيتانو ولكن عنوانه لا يدل على محتواه، فهو عبارة عن بعض المحاضرات فى تاريخ صقلية، ويبدو فيه تأثره الواضح بإحسان عباس. أما الكتاب الثانى فهو (المسلمون فى صقلية) للمستشرق الإيطالى مارتينو ماريو وهو يسير على نسق الكتاب الأول. أما الكتاب الثالث فهو (المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا) لأحمد توفيق المدنى، ولكن هذا العنوان البراق يخفى وراءه حقيقة مؤلمة، إذ أن الكتاب كله عبارة عن نقل وتلخيص لما كتبه المؤرخون القدماء أمثال ابن الأثير وابن خلدون ولا يظهر فيه أى أثر لشخصية مؤلفه أو منهجه.

وهكذا يتضح لنا أنّ أياً من هؤلاء الباحثين لم يعن بدراسة الشعر الصقلى دراسة علية منهجية مما يؤكد أهمية البحث فيه، والعناية به.

وقد ارتأيت أن أقسم هذا البحث إلى ثلاثة أبواب تشتمل على تسعة فصول. ويختص الباب الأول بالأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى ويشتمل على ثلاثة فصول. تناولت فى الفصل الأول الحياة السياسة فى صقلية منذ أن فتحها المسلمون سنة ٢١٢هـ على يد أسد بن الفرات فى عهد زيادة الله ابن الأغلب والى إفريقية، وتحدثت عن تبعيتها للدولة الفاطمية فى مصر، ثم عرضت لفترة الخلافات والفتن التى أدت إلى تقسيم صقلية إلى خمس إمارات وما استتبع ذلك من أحداث وفتن أدت فى نهاية الأمر إلى سقوط صقلية فى يد النورمان فى نهاية القرن الخامس الهجرى.

وخصصت الفصل الثانى لأحوال صقلية الاجتماعية، فعرضت لعناصر المجتمع الصقلى وتباين سكانه وتوزعهم بين مسلمين ومسيحيين، ثم تحدثت عن تسامح المسلمين فى معاملتهم للذميين، وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن

ملامح الشخصية الصقلية، والعوامل التى أسهمت فى تكوينها كالبيئة والظروف السياسية والاقتصادية، وختمت هذا الفصل بالحديث عن الأحوال الاقتصادية والعمرانية ومبلغ إسهام المسلمين فى تقدم هذه الأحوال وازدهارها.

وخصصت الفصل الثالث للاتجاهات الفكرية فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى، فعرضت للحركة العلمية وانتشار المساجد ودور العلم، وركزت بصفة خاصة على العلوم اللغوية والفقهية وكذلك العلوم العقلية والطبيعية وغيرهما من ملامح الحياة الثقافية.

أما الباب الثانى فقد خصصته للشعر الصقلى ويشتمل على أربعة فصول:

تحدثت فى الفصل الأول عن المؤثرات العامة فى الشعر الصقلى، فعرضت للتأثير المشرقى، وناقشت أسبابه وبواعثه وبعض مظاهره وآثاره ثم تحدثت عن أوجه الشبه بين الشعر الصقلى والقيروانى من جهة ثم الشعر الأندلسى من جهة أخرى مناقشا بعض آراء الباحثين فى هذا المجال.

وتحدثت فى الفصل الثانى من هذا الباب عن الطابع العام للشعر الصقلى، فعرضت لأثر البيئة بالصقلية فى الشعر، ووجدت أن أثرها ينحصر فى بعض المظاهر مثل شعر الحرب والفروسية، وشعر البحر، وشعر الطبيعة ثم عرضت للمجتمع الصقلى كما يصوره الشعر، فتحدثت عن الغناء والموسيقى والرقص والخمريات والشعر الاجتماعى وشعر الزهد. ثم عرضت لسقوط صقلية وأثره فى الشعر كما بدا فى نزعة الحنين إلى الوطن والقصائد الصقليات التى قيلت فى مأساة صقلية .

وتحدثت فى الفصل الثالث عن موضوعات الشعر التى احتفظت بطابعها التقليدى كالغزل والمدح والرثاء وغيرها.

وخصصت الفصل الرابع للحديث عن السمات الفنية للشعر الصقلى، فتحدثت عن لغة هذا الشعر وأسلوبه وصوره الفنية وأوزانه وقوافيه.

أما الباب الثالث فقد خصصته للحديث عن الشعراء وقسمته فصلين يختص أحدهما بالشعراء الذين وفدوا على صقلية من الأقاليم الأخرى أمثال ابن رشيق القيروانى والحلوانى وابن السوسى وغيرهم.

ويختص الفصل الثانى بالحديث عن الشعراء الصقليين المشهورين أمثال ابن حمديس وابن الطوبى وابن الخياط والبلنوبى وغيرهم. وركزت بصفة خاصة على ابن حمديس باعتباره أعظم شعراء صقلية، ولوجود ديوان كامل الشعره. أما الشعراء الآخرون فقد بخلت علينا المصادر بما يلقى الضوء على حياتهم ولم تحتفظ إلا بقدر ضئيل من أشعارهم، وعلى الرغم من هذا فقد حاولت قدر المستطاع أن أعرف بهم وأترجم لهم وأوضح ملامحهم وشخصياتهم الأدبية.

ثم ختمت البحث بخاتمة ذكرت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها وذيلت البحث بثبت بأهم المصادر والمراجع المخطوط منها والمطبوع.

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما أقدمت عليه، وأن تكون هذه الدراسة قد أكملت حلقة من الحلقات الناقصة فى تاريخ أدبنا العربى، وأحيت صفحة طيبة ثرية من صفحات تراثنا الأدبى



الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية في صقلية

في القرن الخامس الهجري

الفصل الأول : الأحوال السياسية

الفصل الثاني : الأحوال الاجتماعية

الفصل الثالث : الاتجاهات الفكرية

الفصل الأول

الحياة السياسية فى صقلية

- فتح صقلية
- خضوع الجزيرة للفاطميين
- الفتنة الأخيرة وسقوط صقلية

تمهيد

مرت الحياة السياسية فى صقلية أثناء الفتح الإسلامى بثلاث فترات رئيسية هى :

أولاً : فترة الفتوحات ، وتبدأ هذه الفترة لعام الفتح ٢١٢ هـ وتمتد حتى عام سقوط دولة الأغالبة ٢٩٧هـ .

ثانياً : فترة خضوع الجزيرة للفاطميين الذين أسسوا دولتهم فى شمال أفريقية سنة ٢٩٧هـ على أنقاض دولة الأغالبة .

ثالثاً : فترة الفتنة التى ظهرت بوادرها بالجزيرة عندما استقل كل حاكم بولاية من الولايات، وقد فتحت هذه الفتنة أبواب الجزيرة للنورمان .

والتأريخ للحياة السياسية فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى يبدأ على وجه التحديد فى ولاية الأمير أبى الفتوح يوسف بن عبدالله الملقب بثقة الدولة أحد أمراء أسرة الكلبيين الذين تولوا حكم صقلية من قبل الفاطميين، ويمتد بعد ذلك حتى نهاية الحكم الإسلامى فى الجزيرة سنة ٤٨٤هـ.

ومن العسير أن نفهم الحياة السياسية حق الفهم إذا اقتصرنا على تلك الفترة الزمنية التى تشمل القرن الخامس الهجرى دون أن نلم إلماماً سريعاً ببعض التطورات السياسية التى سبقت تلك الفترة التى يرتبط بها موضوع البحث ومن ثم فسوف نتحدث بإيجاز عن الأحوال السياسية فى صقلية منذ أن فتحها المسلمون سنة ٢١٢هـ على يد أسد بن الفرات فى عهد زيادة الله الأغلبى والى إفريقية حتى سقوطها فى يد النورمان سنة ٤٨٤هـ. وسنركز بصفة خاصة على الأحوال السياسية التى مرت بها صقلية فى القرن الخامس الهجرى.

الحياة السياسية فى صقلية

كان فتح صقلية سنة ٢١٢هـ خاتمة المطاف لمحاولات كثيرة قام بها المسلمون. ويتفق المؤرخون القدماء على أن معاوية بن حديج الكندى كان أول من غزا صقلية[(١)] وقد أرسل معاوية بن أبى سفيان هذه الحملة البحرية من سواحل لبنان وكان حينئذ والى الشام من قبل الخليفة عثمان بن عفان. ويعلل أحد المؤرخين حماية معاوية هذه بأنه كان يريد توسيع رقعة الخلافة، ولعله كان مدفوعاً بمنافسته لوالى مصر عبدالله بن سعد الذى حظى عند عثمان بما أصاب من نصر فى أفريقية[(٢)].

ويذكر د. مارتينو ماريو أنه قد ورد ذكر هذه الحملة فى الكتاب البابوى Liber Pontificalis ورسائل الباب مارتين، ويرى أنه لم يكن يقصد بها إلا النهب والسبى[(٣)].

وتتابعت بعد ذلك غزوات المسلمين على صقلية، فغزاها بشر بن صفوان عامل أفريقية سنة ١١٩هـ وأصاب بها سبياً كثيرًا ثم رجع عن غزاته إلى القيروان[(٤)].

وكانت كلما رسخت أقدام المسلمين فى أفريقية ازدادت الجزيرة تعرضا لغاراتهم خصوصاً وأنها كانت قاعدة للبيزنطيين المحاولين لاسترجاع أفريقية، وملجأ للنصارى الفارين من وجه المغيرين[(٥)]. ومن ثم فقد اكتسب فتح صقلية أهمية خاصة فى نظر المسلمين، فأعد موسى بن نصير حمله لغزو صقلية عرفت

---

(١) البيان المغرب فى أخبار المغرب ١/ ٤٨ (ط. بيروت).

(٢) فازيلييف : العرب والروم – ترجمة د. محمد عبد الهادى شعيرة ط. دار الفكر العربى – القاهرة – ص٦٢.

(٣) د. مارتينو ماريو : المسلمون فى صقلية – ص٦.

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ٥/ ١٤٦.

(٥) المسلمون فى صقلية ص ٦– ٧.

بغزوة الأشراف ولكنه لم ينجح فى فتحها وقفل بأسطوله إلى البلاد الأفريقية[١]. ولم تكن هذه الغزوة أولى غزوات المسلمين بالبلاد الصقلية كما يزعم الأستاذ أحمد توفيق المدنى[٢]، بل سبقتها غزوات أخرى على نحو ما ذكرنا آنفاً .

وكان أخطر هذه المحاولات غزوة حبيب بن أبى عبيدة سنة ١٢٢هـ، قد سيره عبيد الله بن الحبحاب غازيًا إلى جزيرة صقلية، فنزل بأرضها وضرب حصارا على مدينة سرقوسة وهى من أعظم مدن صقلية، وعزم على القيام بصقلية إلى أن يملكها جميعاً[٣]، وكان من الممكن أن تكون نتائج هذه الحملة ذات خطر، لولا استدعاء حبيب بن أبى عبيدة لمقاومة ثورة البرابرة فى أفريقية[٤]، وشغل المسلمون بالحوادث فى أفريقية، فعدلوا مؤقتاً عن فكرة فتح صقلية.

ويحاول بعض الباحثين أن يقلل من شأن هذه الغزوات، فيرى د.أمبرتو ريزيتانو أنها "كانت غزوات آنية، وقد شجع العرب على القيام بها تغلغلهم فى أفريقية والمغرب أيام معاوية وعبدالله بن مروان، كما شجعهم ما كانت عليه الامبراطورية الرومانية الشرقية أو بالأحرى الامبراطورية البيزنطية من الانحلال والانحطاط وقتئذ"[٥].

---

(١) أحمد توفيق المدنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ص٥٣ .

(٢) المصدر نفسه – ص٥٣ .

(٣) الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٤٨/١ .

(٤) أشار صاحب الإستقصا إلى تلك الثورة فقال : "كان عمر بن عبيدالله فى هذه المدة بطنجة قد أساء السيرة فى برابرة المغرب الأقصى وأراد أن يخمس من أسلم منهم، وزعم أنه الفيء، فنفرت قلوب البربر عنه، وأحسوا بأنهم طعمة للعرب، وثقلت عليهم وطأة عمال ابن الحبحاب، جملة بما كانوا يطالبونهم به من الوظائف البربرية.. فأجمعوا الانتفاض، وبلغهم مسير العساكر مع حبيب ابن أبى عبيدة إلى صقلية فجرأهم ذلك على مرادهم".

أنظر : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – ٤٨/١.

(٥) تاريخ الأدب العربى فى صقلية – ص٣٣ .

ويقول د. إحسان عباس[1]: "والحق أن تلك الغزوات أضافت إلى خزينة الدولة شيئا من المال، ولكنها كانت إحدى العقبات فى سبيل الفتح حين جاء أوانه، لأنها نبهت الروم إلى مدى الأطماع فى نفوس العرب الفاتحين، وجعلتهم يتخذون من صقلية قاعدة لحماية الامبراطورية عند حدودها الجنوبية".

وربما كان هذا الرأى الأخير صحيحاً إلى حد بعيد، فأغلب الظن أن أباطرة بيزنطة أدركوا أهداف السياسة العربية هذه بالنسبة لامبراطوريتهم مما دفعهم إلى بذل قصارى جهودهم لحماية الأجزاء الغربية منها لدرجة أن بعضهم مثل الامبراطور قسطنطين الثانى اضطر إلى ترك عاصمته القسطنطينية والإقامة فى روما وصقلية كى يعمل على تقوية وسائل الدفاع عن الأجزاء الغربية من امبراطوريته، وصد الزحف الإسلامى الذى يمتد إلى هذا الشطر من أملاك دولته[2]. ولقد ظل هنا الامبراطور يعمل على مقاومة الخطر العربى إلى أن أغتاله أحد قواده فى مدينة سرقوسة[3].

ولكن هذه الاستعدادات لم تصرف المسلمين عن الاهتمام بفتح صقلية. وعلى أية حال، فقد أثبتت تلك الإغارات المتكررة التى قام بها المسلمون مدى إدراكهم لخطورة قاعدة الروم البحرية فى جزيرة صقلية وضرورة انتزاعها من قبضة الروم[4].

وظل المسلمون يتحينون الفرصة الملائمة لفتح صقلية حتى حدث ما شجعهم على ذلك، فقد نشب نزاع بين امبراطور الروم – ميخائيل الثانى – وبين والى صقلية يوفيميوس – أو فيملى كما تسميه المصادر العربية – وعندما علم

---

(١) العرب فى صقلية – ص٣٢ .

(٢) الأمويون والبيزنطيون (البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية – ص٢٠١ – ٢٠٢).

(٣) دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص٥ .

(٤) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط – ص٧٧ .

يوفيميوس أن الوالى أصدر أمراً بالقبض عليه فر إلى سرقوسة الواقعة على ساحل صقلية الشرقى، وأرسل يلتمس المعونة من حاكم أفريقية زيادة الله الأول الأغلبى (٢٠١ - ٢٢٣هـ).

وقد اختلفت المصادر الأجنبية والعربية فى أسباب ذلك النزاع الذى نشب بين امبراطور الروم وبين يوفيميوس، ويقول فازيلييف إن ذلك السبب مذكور فى المراجع الرومية واللاتينية ولكنه يحمل لونا من ظل الخيال[١]، إذ يقال إن يوفيميوس أحب راهبة اسمها هومونيزا Hegumenissa ولكن الوالى العام اغتصبها منه على ما يقول أحد المراجع الإيطالية - فذهب يستعين بالقيروان عليه[٢]. ويقال فى رواية أخرى إنه غرر بإحدى الراهبات وأخرجها من الدير وتزوجها قسرا، فقرر الامبراطور معاقبته، وفى الحال التجأ إلى المسلمين فى أفريقية وحرضهم على غزو الجزيرة[٣]. ولكن آمارى يرى أن هذه الجريمة إنما افترتها عليه السلطة البيزنطية العليا توسلا لإبعاد قائد أهلى كثير المطامع لا تأتمنه[٤].

أما المؤرخ فازيلييف فيقول:[٥] "ومن الواضح أن سبب ثورة يوفيميوس ليس زواجه الروائى، فإنا ندرك أن السياسة كانت العامل الأول فى هذه المسألة فقد اغتنم يوفيميوس ثورة توماس ونصر المسلمين فى كريت فقام بالثورة وكان يعد لها من غير شك.. فلما علم ميشيل بنيته أمر بالقبض عليه".

وأياً كانت تلك الأسباب فقد قرر زيادة الله أن يعرض دعوة يوفيميوس على أعيان القيروان لمناقشتها خاصة وأن الأغالبة كانوا قد هادنوا منذ سنوات

---

(١) العرب والروم - ص٦٦.
(٢) المسلمون فى صقلية ص٧.
(٣) المسلمون فى صقلية ص٧.
(٤) نقلا عن المصدر السابق ص٧.
(٥) العرب والروم - ص٧٠.

سادة صقلية لاولم تكن مدة الهدنة قد انقضت، ولهذا السبب كاد طلب يوفيميوس يقابل بالرفض لولا أن احتج القاضي أسد بن الفرات بقول الله عز وجل: "ولا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون، وقال أسد: "فكذلك لا نتماسك به ونحن الأعلون"[1].

وعلى هذا الأساس اتخذ زيادة الله قراره بغزو صقلية، وعهد بقيادة الجيش إلى أسد بن الفرات وأقلع الأسطول من مدينة سوسة فى النصف من شهر ربيع الأول سنة ٢١٢هـ وخرج أسد فى موكب كبير، وخرج معه وجوه أهل العلم والناس يشيعونه بعد أن أمر زيادة الله ألا يبقى أحد من رجاله إلا شيعه[2]. وسار الجيش العربى يحمل نحو عشرة آلاف مقاتل وسبعمائة فرس، وكان مكونًا من أشراف أفريقية من العرب والجند ومن البربر والأندلسيين وأهل العلم والبصائر[3]. وبذلك بدأ الغزو الحقيقى لجزيرة صقلية على حد تعبير د.إبراهيم العدوى"[4].

ألقى الأسطول العربى مرساه عند مازر، وكان لإيفيميوس بها أنصار؛ ويبدو أن أسداً كان لا يثق ثقة كاملة فى صدق معونة يوفيميوس، فقرر أن يستقل بعملياته الحربية، وأمره ومن معه أنه يعتزلوهم[5].

وتقدم أسد نحو سرقوسة وحاصرها، وضيق المسلمون عليها الحصار، معتمدين على بعض الأمداد من أفريقية[6]. ولكن أسطولا للروم خف لنجدة تلك المدينة وجعل الحصار العربى مهمة شاقة، وكادت تلك الحملة تفشل لولا أسطول أندلسى ساقه الله من الأندلس إلى جزيرة صقلية ثم وصلت مراكب كثيرة

---

(١) رياض النفوس – المكتبة الصقلية – ص١٨٢ – ١٨٣ .
(٢) تاريخ قضاة الأندلس – ص٥٤ .
(٣) البيان المغرب فى أخبار المغرب ١٣٢/١.
(٤) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط – ص٧٨ .
(٥) الكامل فى التاريخ ٦/ ٣٣٥ .
(٦) المصدر نفسه ٦/ ٢٣٥ .

من أفريقية مددا للمسلمين، فبلغت عدة الجميع ثلاثمائة مركب[١]. ونزلوا إلى الجزيرة فانهزم الروم عند حصار المسلمين الذين ساروا إلى مدينة بلرم فحاصروها وتمكنوا من الاستيلاء عليها سنة ٢١٦هـ بعد حصار دام عاماً.

وقد هيأ سقوط بلرم قاعدة هامة للأسطول العربى فى صقلية لما تتمتع به من موقع ممتاز .. ولذا غدت بلرم قاعدة بحرية تساعد القوات العربية على تلقى الإمداد والزحف منها على سائر جزيرة صقلية[٢]، ولذلك كان (سيد أمين على) على صواب عندما قال إن الاستيلاء على تلك المدينة يعد فى الواقع بدء احتلال الجزيرة[٣].

وأخذ المسلمون يواصلون زحفهم رغم المتاعب الجمة التى كانت تواجههم، فاستولوا على ميناء مسينة سنة ٢٢٨هـ[٤] وصار الأسطول الأغلبى قاب قوسين أو أدنى من إيطاليا ولكن المسلمين صرفوا اهتمامهم إلى إتمام السيطرة على جزيرة صقلية فتمكنوا من فتح قصريانة سنة ٢٤٤هـ وهى المدينة التى بها دار الملك بصقلية وكان الملك قبلها يسكن سرقوسة فلما ملك المسلمون بعض الجزيرة نقل دار الملك إلى قصريانه[٥].

غير أن سقوط قصريانه لم يكن يعنى أن صقلية قد استسلمت تماماً، فقد كانت هناك سرقوسة لا تزال منيعة أمام المسلمين، "وما دامت سرقوسة فى قبضة البيزنطيين تلجئ بمرفئها المنيع أساطيلهم، وتمكنهم من إرسال جنودهم المتقاطرين من كل نواحى الامبراطورية العظيمة، إلى كل أطراف الجزيرة، فكل الانتصارات، كل الفتوح مهددة بالعقم"[٦].

---

(١) الكامل فى التاريخ ٦/ ٣٣٧.

(٢) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط – ص٧٩ .

(٣) مختصر تاريخ العرب تأليف سيد أمير على – ص٤٩٠.

(٤) الكامل فى التاريخ ٥/٧ .

(٥) المصدر نفسه ٦٢/٧.

(٦) المسلمون فى صقلية – ص١٢ .

وبذل المسلمون جنوداً مضنية حتى تحقق لهم فتح سرقوسة بعد أن ظلت تقاوم مدة تزيد على خمسين سنة[1].

ولم يبق من المعاقل القوية أمام المسلمين سوى طبرمين، فسار إليها إبراهيم ابن الأغلب سنة ٢٨٩هـ وحمل معه أهل البصائر فهزم الكفار وقتلهم المسلمون كيف شاءوا ودخلوا معهم المدينة عنوة. ويروى لنا ابن الأثير كيف تلقى الروم خبر فتح طبرمين فيقول[2] "ولما اتصل الخبر بفتح طبرمين إلى ملك الروم عظم عليه وبقى سبعة أيام لا يلبس التاج، وقال: لا يلبس التاج محزون".

وبسقوط طبرمين سقطت آخر الحصون الساحلية الهامة فى جزيرة صقلية غير أن المسلمين لم يتمكنوا من السيطرة على الجزيرة سيطرة تامة، فقد بقيت المنطقة الشرقية غير معترفة تماماً بسلطان المسلمين إلى آخر أيامهم فى الجزيرة[3].

والحق أن فتح صقلية يعتبر ملحمة رائعة من ملاحم الجهاد، فقد قضى المسلمون فترة الفتح فى جهاد متصل، وبلغوا الغاية فى المثابرة والتضحية بالنفس، حتى لقد جاء فى أحد الأخبار أن القبور هدمت لإنشاء المراكب[4].

وكما يقول د. إحسان عباس: [5] "فقد كانت الأوبئة والمجاعة والخسارة فى الأرواح كافية لأن تخلق اليأس فى نفوس الجند المحاربين، ولكن يشبه أن يكون فتح صقلية عناداً مستمداً من قوة النفسية التى خرج بها أسد فاتحاً أكثر من كونه سعياً وراء غنيمة أو كسب".

---

(١) الكامل فى التاريخ ٧/ ٣٢٠.
(٢) المصدر نفسه ٧/ ٢٨٥.
(٣) العرب فى صقلية – ص٣٩.
(٤) تراجم أغلبية – ص٢٦٧.
(٥) العرب فى صقلية – ص٣٥.

ولا أظننا نبالغ إذ قلنا إن فتح صقلية يختلف فى طبيعته عن غيره من الفتوحات العربية وفى ذلك يقول د. مارتينو ماريو:[1] "إن الفرق بين الفتح الأندلسى وفتح صقلية، هو أن العرب لم يجدوا أمامهم فى أسبانيا إلا ملكا محلياً لا يعتمد إلا على قوى نفسه وهى ضعيفة جداً، بيد أنه واجهتهم فى صقلية امبراطورية يمدها الشرق والغرب بقواهما وتسود أساطيلها البحار، فكان ينبغى للمسلمين، إذا أرادوا طرد البيزنطيين من الجزيرة أن يقتحموا، الواحد بعد الواحد، حصونهم البرية المنيعة طبعا وصنعا، وأن ينزعوا منهم الواحدة تلو الواحدة، قواعدهم البحرية، وليس قواعدهم فى صقلية فحسب، بل قواعدهم التى يملكونها حواليها".

وعلى الرغم من ذلك كله فإن بعض الدارسين الغربيين يحاولون التهوين من شأن الفتح الإسلامى لصقلية وتشويه صورته برد أسبابه إلى مجرد النهب والقرصنة على نحو ما يزعم ديمومبين Demombynes إذ يقول:[2] "ولم تك حملة صقلية التى أنفذها زيادة الله الأول عام ٢١٢هـ واستمرت فى عهد خلفائه وفى عهد للفاطميين سوى تنظيم للقرصنة القديمة. وقد اجتذبت الجزيرة الكبيرة القراصنة كما اجتذبت الأندلس الأسر الحاكمة فى مراكش، فكانت غنائم الجهاد تساعد الأمراء على بناء القصور وتمد لهم من وسائل الترف دون أن يثقلوا كواهل رعاياهم بالضرائب الفادحة".

ولا يخفى على منصف ما ينطوى عليه هذا الرأى من تعصب ومجافاة للواقع، فليس من المعقول أن يضحى المسلمون بالأرواح، ويتحملوا المجاعة والأوبئة من أجل كسب مادى رخيص كما يزعم ديمومبين، بل من المعقول أن يرضى المسلمون بتلك الصعاب أداء لفريضة الجهاد، ومن أجل نشر الدعوة فى أصقاع جديدة. ولقد أصاب د. أمبرتو ريزيتانو كبد الحقيقة عندما قال مفنداً

(١) المسلمون فى صقلية – ص١٠ .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية – جـ٢ – ص٣٢٨ مادة (بنو الأغلب) .

أراجيف هذا الباحث المتعصب: "وهكذا وصل المسلمون إلى صقلية – لا كقراصنة– كما حلا لبعض المؤرخين الغربيين أن يقولوا ويكتبوا بل جاءوا إليها حاملين على أكتافهم أكثر من قرنين من تاريخهم المجيد، بعد أن تم اتصالهم بالحضارتين الفارسية واليونانية"[1].

ونستطيع أن نلمس بوضوح ما أسداه الفتح الإسلامي من خير لصقلية إذا قارنا بين حالة صقلية قبل الفتح وحالتها بعده. ولست بدعا في هذا الرأى، فقد سبقنى إليه المستشرق العظيم أمارى فقال وهو بصدد الحديث عن أحوال صقلية تحت الحكم البيزنطى: "كانت صقلية قد أصبحت فى داخلها وخارجها بيزنطية، وكانت مريضة بذلك الداء الوبيل الذى أصيبت به الامبراطورية البيزنطية المنحلة، ولذلك فإننا إذا تأملنا حالتها السيئة لا يؤسفنا ذلك الفتح الإسلامى الذى هزها هزا، وجددها تجديداً"[2].

ومن ناحية أخرى، فقد ترتب على فتح صقلية نتائج خطيرة لعل أهمها هو تحكم القوى الإسلامية فى شرق وغرب البحر المتوسط لضمان حرية الملاحة البحرية الإسلامية[3] وكان أسطول الأغالبة فى البحر المتوسط من أعظم الأساطيل فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت حيث انتشرت مراكز كثيرة لصناعة السفن وبنائها فى تونس وسوسة وموانى صقلية[4].

ويلخص الدكتور إبراهيم العدوى هذه النتائج فيقول:[5] "يعتبر فتح صقلية من المعالم الهامة فى التاريخ البحرى العربى، فإن سيطرة الأغالبة عليها جعل مفتاح حوض البحر الأبيض المتوسط والغربى فى أيديهم، وصار الأسطول العربى ينعم بقاعدة هامة جعلت له السيادة على البحر التيرانى الذى تطل عليه

(١) تاريخ الأدب العربى فى صقلية، د. أمبرتو ريزيتانو – ص٣٩ .
(٢) المصدر نفسه – ص٣٦ – ٣٧ – نقلاً عن أمارى .
(3) Marcais, G : La Barberie Musulmana et L'orient au Moyen Age. Paris 1946- P. 215 .
(٤) المغرب الكبير ٢/ ٣٨٥ .
(٥) الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط – ص٨٢ .

إيطاليا، وقد تدخل أسطول الأغالبة فعلا فى شئون البلاد الإيطالية بعد أن سيطر العرب على الشطر الأعظم من جزيرة صقلية".

خضوع الجزيرة للفاطميين :

وعندما قضت الخلافة الفاطمية على سلطة دولة الأغالبة سنة ٢٩٧هـ أصبحت صقلية جزءاً من الدولة الفاطمية التى أسسها عبيد الله المهدى فى شمال أفريقيا[١].

ويبدو أن الصقليين لم يطمئنوا لذلك التغيير السياسى، وتأكد لديهم هذا الإحساس عندما صادفوا عدداً من الولاة الظالمين، وتضافر هذان العاملان فجعلا من صقلية مسرحاً للفتن والخلافات التى لم تنته إلا عندما اضطلع الكلبيون بتولى الأمور فى صقلية.

وفى تلك الفترة قام الصقليون بمحاولة جادة للانفصال عن الخلافة الفاطمية وذلك حين اختاروا من بينهم واليا عليهم هو (أحمد بن قرهب) وبايعوه بالولاية دون أن يأخذوا رأى الخليفة المهدى وأوثقوه من أنفسهم أنهم لا يخذلونه فتولى أمرهم[٢]. وما لبث ابن قرهب أن انشق على الخلافة الفاطمية، واتجه إلى العباسيين، فدعا الناس إلى طاعة المقتدر العباسى فأجابوه إلى ذلك، فخطب له بصقلية وقطع خطبة المهدى[٣].

ورحب المقتدر بمبادرته وبعث إليه بألوية سود، فسر بها ابن قرهب وأظهر الحزم والجد فى أمره[٤] وأرسل جيشاً فى البحر إلى ساحل أفريقية فلقى هناك أسطولا للمهدى فأحرقوه وقتلوا قائده[٥].

(١) مقدمة ابن خلدون - ص٢٠١ - المكتبة التجارية بالقاهرة - ١٢٨٤هـ
(٢) البيان المغرب ١/ ٢٣٣ .
(٣) الكامل فى التاريخ ٨/ ٧١ .
(٤) البيان المغرب ١/ ٢٣٣ .
(٥) الكامل فى التاريخ : ٨/ ٧٢ .

وأسكرته نشوة الانتصار فأراد أن يغزو المهدى فى عقر داره فسير أسطولا إلى إفريقية ولكن أسطول المهدى انقض عليه وظفر به وأخذ مراكبه[1].

وكانت هذه الحادثة سبباً فى فشل حركة ابن قرهب فأدبر أمره ولم يستقم له حال بعدها، وخشى الصقليون من غضب المهدى عليهم فاجتمعوا على خلع ابن قرهب وقبضوا عليه وبعثوا به وأهله مصفدين فى الحديد إلى المهدى فقتلهم وصلبهم[2].

وأراد الخليفة المهدى أن يؤدب أهل صقلية فاستعمل عليهم ولاة غلاظا قساة فنكلوا بهم واضطرت صقلية أن تواجه العنف فثارت على هؤلاء الولاة واستفحل أمرهم وكاتبوا ملك القسطنطينية يستنجدونه، وأدرك الفاطميون أن سياسة البطش والإرهاب التى ينتهجها ولاتهم سوف تؤدى إلى عواقب وخيمة، وقد تنتهى بضياع صقلية من أيديهم، فتداركوا الأمر، وتركوا حكم صقلية لولاة آخرين يستطيعون أن يسلكوا فى صقلية مسلكاً حسناً مبنياً على العدل والإنصاف. هؤلاء الولاة هم الكلبيون الذين امتد حكمهم قرابة مائة عام بدأت سنة ٣٣٦هـ، وفيها تمتعت صقلية بالاستقرار الذى حرمت منه زمناً طويلاً، واستطاعت أن تحقق فى تلك الفترة كثيراً من الازدهار الثقافى والاقتصادى والاجتماعى.

كان أول وال من أسرة الكلبيين هو (الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى) وكان يحظى بمكانة كبيرة فى بلاط الخليفة الفاطمى المنصور، ولعب دوراً كبيراً فى القضاء على فتنة أبى يزيد التى هددت الخلافة الفاطمية، فكافأه الخليفة المنصور بولاية صقلية، وعندما وصل الحسن إليها لم يستقبله الناس خوفاً من بنى الطبرى الذين استأثروا بأمرها أثناء انشغال المنصور بفتنة أبى يزيد، ولكن الحسن استطاع بذكائه وعدله أن يسكن الفتنة، وأن يستميل إليه

---

(١) المصدر السابق ٨/ ٧٢ .

(٢) البيان المغرب ١/ ٢٤٢ .

قلوب الناس، وضبط الحسن أمره، وخشى الروم غدارته فدفعوا إليه جزية ثلاث سنين، واستمرت ولايته فى صقلية خمس سنوات أشاع فيها الاستقرار فى ربوعها، ووضع هناك إلى حد كبير أو صغير أساس حكومة مستقلة ثابتة[1].

وتولى أمر صقلية بعده ابنه (أحمد بن الحسن بن على بن أبى الحسين الكلبى) فسار سيرة أبيه، وواصل الجهاد، فأعاد فتح طبرمين ثم فتح رمطة واستطاع أن يحظى بثقة أهل صقلية كما نجح فى توثيق الصلات بين الصقليين والخليفة الفاطمى، فقدم سنة ٣٤٧هـ من صقلية ومعه ثلاثون رجلا من وجوه الجزيرة إلى المعز بأفريقية فبايعوه وخلع عليهم ثم أعاده إلى مقر بصقلية واستمرت ولايته نحو ست عشرة سنة[2].

وسار (أبو القاسم بن الحسن بن على بن أبى الحسين) ثالث الحكام الكلبيين على سنن أسلافه، فواصل الجهاد ضد الروم، وكانت له غزوات كثيرة معهم، وداوم الغزو إلى أن استشهد فى غزوته الخامسة بجنوب إيطاليا ضد الفرنجة[3]. بعد أن أمضى فى ولايته ما يزيد عن اثنتى عشر سنة كانت له فيها مآثر حسنة، فقد كان عادلا حسن السيرة، كثير الشفقة على رعيته والإحسان إليهم، عظيم الصدقة، ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ولا عقاراً، فإنه كان قد وقف جميع أملاكه على الفقراء، وأبواب البر[4].

ووصلت صقلية الإسلامية إلى ذروة مجدها – فى بداية القرن الخامس الهجرى – فى عهد أبى الفتوح يوسف بن عبدالله الكلبى الملقب بثقة الدولة، فقد أمن الجزيرة وأحسن إلى رعاياها وعاش الناس فى عهده فى رغد ويسر حتى لقد أنسى بجلائله وفضائله كل من كان قبله من الحكام[5]. وكان بلاطه

---

(١) تاريخ العرب السياسى ص٧٨٥ .

(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى، المكتبة المصرية – ص٤٤٣ .

(٣) العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى ص١١٠ .

(٤) الكامل فى التاريخ ص١٤ وما بعدها .

(٥) العبر وديوان المبتدأ والخبر ٤/ ٢١٠ .

فـى بلـرم العاصـمة مقصد العلماء والأدباء[1]. وظل ثقة الدولة يحسن السيرة فى صـقلية حتـى أصـيب بالفـالج فاستناب ابنه جعفرا، ووافقت الخلافة الفاطمية علـى ولايـته، وبعـث إليه الحاكم العزيز بالله - وهو بمصر - التشريفات ولقبه تاج الدولة وسيف الدولة[2].

وظـل الأمير جعفر ضابطا للبلاد، حسن السيرة فى أهلها إلى سنة ٤٠٥ هـ، ففـى تلـك الـسنة حدث نزاع بين أفراد الأسرة الكلبية الحاكمة، إذ انشق على الأمير جعفر أخوه على، وأعانه جمع من البربر والعبيد، واستعد لمحاربة أخـيه، فـزحف إليه جعفر وظفر به فقتله، وقتل من البربر والعبيد خلق كثير، وهرب من بقى منهم، وأمر جعفر حينئذ أن ينفى كل بربرى بالجزيرة فنفوا إلى أفـريقية كمـا أمـر بقـتل العبـيد فقـتلوا عـن آخـرهم وجعل جنده كلهم من أهل صقلية[3].

وقـد ارتكـب جعفر بإقدامه على هذه الخطوة خطأ فادحاً دفع فيه ثمناً غالـياً، إذ تـرتب على ذلك أن قل الجنود بالجزيرة. وطمع الناس فى الأمراء[4] ممـا أضعف الحكومة، وربما كان هذا هو السبب المباشر فى تدهور الأحوال فى صقلية بعد ذلك، فقد سارت الأمور على غير ما يشتهى الأمير جعفر، وازدادت الأحـوال سـوءاً عـندما قـام كاتـبه (حـسن بـن محمـد الباغانى) بمصادرة أموال الـناس، وعاملـهم بسوء، واستخف بقوادهم وشيوخ البلد فثار الناس على الأمير جعفـر سـنة ٤١٠هـ، وحاصـروه فـى قصره وهدموا بعض أرباضه وأشرفوا على أخـذه لـولا أن خـرج إلـيهم أبـوه الأمـير يوسف ثقة الدولة فى محفة وكانوا له محـبين علـى مـا أحـدث ابـنه عليهم فقال لهم: أنا أكفيكم أمره وأعتقله وأولى علـيكم مـن ترضـونه" فوقـع اختيارهم على ابنه أحمد المعروف بالأكحل، وسلم

(١) أعمال الأعلام - القسم الثالث ص٢٩.
(٢) نهاية الأرب للنويرى - المكتبة الصقلية - ص٤٤٣.
(٣) الكامل فى التاريخ ١٠/ ١٩٤.
(٤) المصدر نفسه ١٠/ ١٩٤.

إليهم الباغاني فقتلوه وخشي يوسف على ابنه جعفر منهم فأرسله إلى مصر ثم رحل في إثره إليها[1].

ولما تولى الأكحل أخذ أمره بالحزم والاجتهاد فسكن الناس وصلحت أحوالهم ووصل إليه كتاب الحاكم ولقب الأكحل بتأييد الدولة، فجمع المقاتلة، وبث سراياه في بلاد الروم، وأطاعه جميع أهل القلاع[2].

وكان من الطبيعي حينئذ أن تستقيم الأحوال في صقلية، غير أن الحوادث سارت على النقيض من ذلك، فقد فوض الأكحل الأمور إلى ابنه جعفر، وجعل مقاليد الحكم في يده، فأساء جعفر السيرة، وتحامل على أهل صقلية وخيل إليه أنه لن يتيسر له حكم صقلية إلا بتفتيت عناصر سكانها، والاعتماد على فريق دون فريق، وتكوين عصبية متينة حول قصر الإمارة، فجمع أهل صقلية وقال لهم: "أحب أن أفرغكم من الإفريقيين الذين قد شاركوكم في بلادكم والرأى إخراجهم" فقالوا: "قد صاهرناهم وصرنا شيئاً واحداً" فصرفهم، ثم أرسل إلى الإفريقيين فقال لهم مثل ذلك فأجابوه إلى ما أراد فجمعهم حوله، فكان يحمل أملاكهم ويأخذ الخراج من أهل صقلية[3].

وكان طبيعياً أن يثور الصقليون على هذا الوضع فسار جماعة منهم إلى المعز ابن باديس – صاحب القيروان – وشكوا إليه ما حل بهم، وقالوا له: "نحب أن نكون في طاعتك وإلا سلمنا البلاد للروم"[4]. فجهز أسطوله بثلاثمائة فارس، وسير معهم ولديه عبدالله وأيوب، فانضم إليهم أهل صقلية وحاصروا أميرهم الأكحل في الخالصة ثم قتلوه وحملوا رأسه إلى المعز سنة ٤٢٧هـ ولكنهم ندموا على فعلتهم ورجع بعضهم على بعض وقالوا: "أدخلتم غيركم عليكم،

(١) الكامل ١٠/ ١٩٤.
(٢) نفسه ١٠/ ١٩٥.
(٣) نفسه ١٠/ ١٩٥.
(٤) نفسه ١٠/ ١٩٥.

والله لا كانت عاقبتكم إلى خير"[1]. فثاروا على جنود المعز بن باديس، فاضطروا إلى الرجوع في مراكبهم إلى إفريقية، وولى أهل الجزيرة عليهم (حسنا الصمصام). أخا الأكحل، ولكنه لم يستطع أن يسيطر على الموقف المتدهور فثار عليه أهل بلده وأخرجوه و بإخراجه انتهى حكم أسرة الكلبيين في صقلية.

الفتنة الأخيرة وسقوط صقلية :

وبعد إخراج الصمصام آل آمر الجزيرة إلى المشايخ والقواد الذين بها، فقسموها إلى خمس إمارات رئيسية، وانفرد كل قائد بجهة، فانفرد عبدالله بن منكود بمازر، وطرابنش وغيرهما، وانفرد ابن المكلاتي بقطانية، وانفرد ابن الثمنة بمدينة سرقوسة، وانفرد علي بن نعمة المعروف بابن الحواس بقصريانة و(جرجنت) وغيرهما، وفكر ابن الثمنة في أن يستأثر بملك الجزيرة فخرج بعسكر إلى قطانية وقتل قائدها ابن المكلاتي، وضمها إلى ملكه، وتلقب بالقادر بالله، واستبد بملك الجزيرة[2]. ثم تزوج ابن الثمنة بأخت ابن الحواس، ويذكر ابن الأثير أنه "جرى بينها وبين زوجها كلام وأغلظ كل منهما لصاحبه وهو سكران، فأمر ابن الثمنة بفصدها في عضديها، وتركها لتموت، فسمع ولده إبراهيم فأحضر الأطباء وعالجوها، ولما أصبح أبوه ندم واعتذر إليها بالسكر، فأظهرت قبول عذره ثم إنها طلبت منه بعد مدة أن تزور أخاها بقصريانة فأذن لها وسير معها التحف والهدايا فلما وصلت ذكرت لأخيها ما فعل فحلف أنه لا يعيدها إليه"[3]. وهنا وقعت الفتنة التي انتهت بضياع صقلية من يد المسلمين، وذلك حين حشد ابن الثمنة عساكره وكان قد استولى على أكثر الجزيرة وخطب له بالمدينة[4]، وسار إلى ابن الحواس بقصريانة ولكنه هزم

---

(١) الكامل ١٠/ ١٩٦ .
(٢) نفسه ١٠/ ١٩٦ .
(٣) الكامل ١٠/ ١٩٦ .
(٤) نفسه ١٠/ ١٩٦ .

هـزيمة فادحة فاستنصر بالروم وقال لهم: "أنا أملككم الجزيرة" فقالوا "إن فيها جنداً كثيراً ولا طاقة لنا بهم"، فقال: "إنهم مختلفون وأكثرهم يسمعون قولى ولا يخالفـون أمـرى"[١] فـساروا مـع ابن الثمنة وقصدوا قصريانه فحصروها، وخرج إليهم ابن الحواس فهزموه، ولما رأى الصقليون أن قلاعهم أخذت تتهاوى أسرع جماعـة مـنهم إلى المعز بن باديس يستنجدونه ويستمدونه العون والمساعدة فلبى نـداءهم وجهز أسطولاً كبيراً شحنه بالرجال والعدد وكان الزمن شتاء فساروا إلى قوصـرة، فهاج البحر عليهم فغرق أكثرهم ولم ينج منهم إلا القليل[٢]. وكان غرق هـذا الأسـطول ضـربة قاصـمة قـضت علـى أمـل صـقلية فى النجاة كما عجلت بالقـضاء علـى المعـز بن باديس نفسه إذ نتج عن ضياع هذا الأسطول ضعف قوة المعز فقوى عليه العرب حتى أخذوا البلاد منه[٣].

واضـطرب أمـر المـسلمين بعـد ذلك فى الجزيرة، وشدد الروم الحصار، وضاق الأمر على الناس حتى أكلوا الميتة ولم يبق عندهم ما يأكلونه[٤].

وأخذ الروم يواصلون استكمال غزو صقلية حتى تمت لهم السيطرة على كل مدنها سنة ٤٨٤هـ وملك (روجر) جميع الجزيرة وأسكنها الروم والفرنج مع المسلمين ولم يترك لأحد من أهلها حماما ولا دكانا، ولا طاحونا ولا فرنا"[٥].

وهكـذا أفـل نجم العرب السياسى عن صقلية، وإن دام تأثيرها الثقافى بعدها زمناً طويلاً[٦].

---

(١) المصدر نفسه ١٠/ ١٩٦ وما بعدها.
(٢) المصدر السابق ١٠/ ١٩٧.
(٣) المصدر نفسه ١٠/ ١٩٧.
(٤) نفسه ١/ ١٩٨.
(٥) الكامل ١٠/ ١٩٨.
(٦) حضارة العرب ص٢٧٦.



الحياة الاجتماعية

- عناصر المجتمع الصقلى
- ملامح الشخصية الصقلية
- الأحوال الاقتصادية والعمرانية

عناصر المجتمع الصقلي :

لعلنا لا نجد بين الأقاليم التى فتحها المسلمون إقليما تباينت عناصر سكانه واختلطت به الدماء والأجناس كما كان عليه الحال فى صقلية، فقد كان المجتمع الصقلى يتألف من طائفة من العناصر المتشابكة والمعقدة، فمنها الأسيوى كالعرب، ومنها الإفريقى كالبربر، ومنها الأوربى كالرومان والإغريق واللومبار وغيرهم.

وكانت الجزيرة قبل الفتح الإسلامى تخضع للرومان الذين نشروا فيها لغتهم كما نشروا فيها المسيحية، وظل الحال كذلك حتى فتحها أسد بن الفرات - كما أسلفنا - بجيش مؤلف من العرب والبربر وبعض العناصر الأخرى كالعنصر الفارسى وغيره.

وكانت الأصول العربية التى سكنت صقلية مختلفة الأنساب، ترجع إلى قبائل عربية متعددة، فكان هناك اليمنيون مثل أزدوكندة ولخم ومعافر، والمضريون مثل قيس وتميم وغيرهما. وكان الصراع بين اليمنية والقيسية ما يزال محتدما فى المشرق والمغرب، ولم تنج صقلية من هذا المرض ولكنه لم يبلغ فيها الحدة التى وصل إليها فى أقطار أخرى[١].

وتتردد فى الشعر الصقلى أصوات تفتخر بهذا العنصر أو ذاك وإن كانت أصواتاً قليلة خافتة، وقد روى المؤرخون أن عدد العرب أصبح كثيراً بعد قرن من الفتح[٢].

كما دخل الجزيرة جماعات كثيرة من البربر من قبائل صنهاجة وزناتة وهوارة ونفزاوة وغيرها[٣]. ولم تكن هذه الجماعات على وفاق مع العرب بل نشأت بينها وبين العنصر العربى منازعات كانت تحتد فى كثير من الأحيان،

(١) المسلمون فى صقلية ص٣٠ .

(٢) حضارة العرب ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(3) Amary : Storia dei Mnsulmani di Sicilia, vol, 2, P. 53.

وتؤدى إلى وقوع كثير من الفتن والاضطرابات، ويحدثنا ابن عذارى المراكشى عن إحدى هذه الفتن التى وقعت بين العرب والبربر فى صقلية[1].

ويبدو أن الخلافات بين الفريقين استمرت زمنا طويلا بدليل أن هدنة أبرمها المسلمون ونصارى صقلية بعد تمام تلك الحرب بعشر سنين تضمنت شرطا غريبا ورد فيه أن الرهائن التى سيقدمها المسلمون للنصارى كل ثلاثة أشهر ستؤخذ مرة من العرب ومرة من البربر[2]. ومعنى هذا أن التفرقة بين العرب والبربر كانت قد ألبست صفة رسمية حتى إزاء الأجانب[3].

وقد اتجه البربر منذ البداية إلى الإقامة بعيداً عن العرب، ويرجح آمارى أنهم كانوا يقيمون فى المنطقة الواقعة بين مازر وجرجنت، ويستند فى ترجيحه على أساس أن أسماء القرى والضياع التى كان البربر يسكنونها فى تلك المناطق تحمل أسماء بربرية مثل Macchinesi من مكناس، و(Aiarzeneti) من حجر الزناتى[4].

وتميزت هذه العناصر البربرية بإثارة الفتن فى كثير من الأحيان، وقد مر بنا فى الفصل السابق أن عليا أخا الأمير جعفر اعتمد على البربر والعبيد فى الفتنة التى وقعت بينه وبين أخيه، وكان من نتائج هذه الفتنة أن قضى الأمير جعفر على عدد كبير منهم ونفى عدداً آخر إلى خارج الجزيرة.

وإلى جانب هذين العنصرين – العرب والبربر – كان هناك عنصران آخران هما (العبيد) وكانوا يمثلون نسبة غير قليلة من المجتمع الصقلى، (والصقالبة) الذين استجلبهم الأمراء الكلبيون وكانوا يتخذونهم غلماناً وفتياناً، ويذكر ابن حوقل أنه كان فى بلرم حارة تسمى (حارة الصقالبة)[5].

---

(١) البيان المغرب ١/ ١٧٥ وما بعدها.

(2)Amari, Storia dei Muslmani di Sicilia, Vol, 2, P. 56.

(٣) المسلمون فى صقلية ص٣٠.

(4)Amari: S. D. M. Vol. 2. P. 59.

(٥) صورة الأرض ص١١٤.

كما كان هناك عنصر هام يحتل مكاناً بارزاً فى هذه اللوحة التى نرسمها للمجتمع الصقلى، وهم سكان البلاد الأصليون، ويمثل هؤلاء السكان فى تكوينهم الاجتماعى هجرات متعددة وفدت إلى الجزيرة من مناطق مختلفة تحيط بها، وتتركز هذه الهجرات فى ثلاثة عناصر[١]، عنصران منها متشابهان لدرجة أن بعض المؤرخين يرجح أنهما عنصر واحد وذلك لتقارب اسميهما وهما السيقان **Sicani** والصقل **sicali**. ويبدو أن السيقان هم السكان الأصليون الذين نشأوا على أرض صقلية ذاتها، غير أن بعض المصادر ترى أنهم قد أتوا من أسبانيا، وهم ينتمون إلى عنصر غير آرى واستوطنوا بصفة عامة جنوب أوروبا بما فيها صقلية فى وقت غير معلوم. أما العنصر الثانى وهم الصقل، فقد أتوا بدورهم من جنوب إيطاليا مهاجرين إلى الجزيرة فى حوالى القرن الحادى عشر قبل الميلاد. أما العنصر الثالث الذى انحدر إلى صقلية قديماً فهم الأليمانيون **Eymians** وهؤلاء تعوزنا معرفة أصلهم أو لغتهم الأولى على وجه الدقة[٢].

ومهما يكن من أمر، فقد أسلم كثير من هؤلاء السكان بعد الفتح، واندمجوا مع الفاتحين بالمصاهرة وغيرها. أما من بقوا منهم على دينهم فقد عوملوا معاملة الكتابيين أو الذميين. يقول مارتينو ماريو[٣]: "ومن المؤكد أن عدداً وافراً من النصارى بقوا على أراضيهم يتصرفون فيها كيفما شاءوا مقابل خراج يؤدونه أو يستغلونها بصفة مزارعين ومساقين لا خراج عليهم إذ كان حق التصرف فيها أحيل إلى المسلمين بقطع النظر عن المسيحيين الذين كانوا مستأجرين أو أجراء من الأصل فظلوا على حالتهم".

---

(1) Edward Freeman : Sicily (Pheenican, Greek and Roman) London 1926. P.P. 11 – 16.
(2)Edward Freeman : Sicily . PP. 11 – 16 .

(٣) المسلمون فى صقلية ص٢٩ .

ويشير جوستاف لوبون إلى ترخص المسلمين وتسامحهم فى معاملتهم للمسيحيين حتى فى نظام الجزية فيقول[1]: "وترك لنصارى صقلية كل مالا يمس النظام العام، فكان للنصارى، كما فى زمن الروم، قوانينهم المدنية والدينية، وحكام منهم للفصل فى خصوماتهم وجباية الجزية السنوية التى فرضها العرب عليهم، وهى ٤٨ ديناراً عن كل غنى، ٢٤ ديناراً عن كل موسر، ١٢ ديناراً عن كل من يكسب عيشه بنفسه، وكانت هذه الجزية التى هى دون ما كان يأخذه الروم، لا تؤخذ من رجال الدين والنساء والأولاد".

ومما يلفت النظر حقاً أن نجد كثيراً من المستشرقين يتحدثون عن المعاملة الحسنة التى لقيها أهل الذمة فى صقلية، ويشيدون بروح التسامح والعدل من جانب المسلمين تجاه أهل الديانات الأخرى على نحو ما يذكر (جوستاف لوبون) إذ يقول[2]: "سمح العرب فى أيام سلطانهم للنصارى بالمحافظة على قوانينهم وعاداتهم وحريتهم الدينية، فروى الراهب الدومنيكى (كوردانين)، وكان رئيساً لدير القديسة كاترين فى الروم، أن القساوسة كانوا أحراراً فى الخروج لابسين حللهم الدينية ليناولوا المرضى طقوس الدين، وروى رئيس الرهبان (موركولى) أنه كان ينصب فى الحفلات العامة بمسينة رايتان: إحداهما إسلامية وعليها صورة برج أسود فى حقل أخضر، والأخرى نصرانية وعليها صورة صليب مذهب فى حقل أحمر، ولم يمس العرب الكنائس القائمة فى صقلية حين فتحهم لها"[3].

وأشاد أمارى أيضاً بتسامح المسلمين مع الطوائف الأخرى فى صقلية، وفند كثيراً من ادعاءات المستشرقين، واستبعد تماما ما يزعمه بعضهم من أن

---

(١) حضارة العرب ص٣٧٩.
(٢) نفسه ص٣٧٩ - ٣٨٠.
(٣) حضارة العرب ص٣٧٩ - ٣٨٠.

استشهاد القديس (بروكوبيو) أسقف طبرمين عند سقوط هذه المدينة كان نتيجة تعصب دينى[١].

وكان من نتائج تسامح المسلمين أن أقبل كثير من سكان صقلية الأصليين على الدخول فى الإسلام ولاسيما العبيد الذين أرهقهم الخسف والجور، فنبذوا دينهم القديم، ودخلوا الإسلام بأعداد كبيرة ليضمنوا لأنفسهم المعاملة الحسنة، وأصبح الأرستقراطية القدماء ينظرون بحيرة إلى مزارعهم وهى خالية من عبيدهم الآبقين[٢].

وأغلب الظن أن عدد المسيحيين أصبح قليلاً ولاسيما فى القرن الخامس الهجرى لدخول أغلبهم فى الإسلام ومما يدل على ذلك أن النورمان لم يجدوا فى صقلية لدى نزولهم فيها إلا رئيساً دينياً مسيحياً، وهو مطران بالرمو، فى حين أن الأساقفة كانوا خمسة عشر منهم مطرانان أحدهما فى سرقوسة والآخر فى قطانية فى عهد البيزنطيين[٣].

ومهما يكن من أمر، فقد اختلط العرب بسكان البلاد الأصليين وعاشروهم وصاهروهم وامتزجوا بهم، وتبادلوا العادات والتقاليد، وأصبح المجتمع الصقلى عربى الملامح والسمات وانصهرت هذه العناصر المتباينة كلها فى البوتقة الصقلية، وكونت وحدة لا تتجزأ، كما تجتمع أنواع العنب من أبيض وأحمر ووردى فى المعصرة، وتسيل منها محالة إلى خمرة جيدة براقة ذائعة الأريج[٤].

---

(1)Amari ; Storia dei Musulmani di Sicilia. Vol 2. P. 104 .

(٢) المصدر نفسه vol, I. P. 627 وأنظر أيضاً العرب فى صقلية لإحسان عباس ص٦٣ .

(٣) المسلمون فى صقلية ص٢٩ .

(٤) المصدر السابق ص٣١ .

ملامح الشخصية الصقلية :

يرى بعض الباحثين أن تباين عناصر السكان فى صقلية لم يهيئ المناخ الملائم لتكوين شخصية صقلية أو شعب صقلى له سمات وخصائص تميزه عن غيره من الشعوب الأخرى. ومن أنصار هذا الرأى المؤرخ فريمان الذى يقول[1]: "ولما كانت صقلية ملتقى الشعوب وميدانا للصراع فيما بينها فإنها لم تستطع أن تكون وطناً ومهداً لشعب واحد.. ومن ثم لم يتكون فيها شعب صقلى".

ويشايعه فى هذا الرأى د. مارتينو ماريو، فيقول[2]: "إن الصقليين لم يتكون فى نفوسهم شعور وطنى حقيقى، فلوجود هذا الشعور كان ينبغى لمسلمى صقلية أن يروا أنفسهم صقليين أولا ثم عربا أو برابرة، والحال أن العرب والبرابرة كانت تفصل بينهم هوة عميقة لم يلقوا عليها جسرا إلا للتخلص من أوامر أمير بعيد، وأن العرب أنفسهم كانوا منقسمين إلى عدنانيين وقحطانيين، وكان ينبغى أيضاً للأشراف وللعوام أن يعتبروا أنفسهم أخوة من حيث هم أبناء أرض واحدة، بيد أن الأولين كانوا لا يرغبون فى الانفصال عن الإمارة الإفريقية إلا ليسوغ لهم ضيم العامة. وكان يقتضى قبل كل شئ أن يكون المسلمون والمسيحيون معا يحبون صقلية حباً يحملهم على التجرد من أحقادهم الدينية احتراماً لأمومتها".

وهذان الرأيان – فى تقديرى – موضعا نظر، فهما قد يصدقان إذا طبقناهما على صقلية بعد الفتح الإسلامى مباشرة، ولكنهما لا يصدقان إذا طبقناهما على صقلية فى القرن الخامس الهجرى، إذ ليس من المعقول أن تثبت أقدام المسلمين فى صقلية ما يقرب من ثلاثة قرون دون أن تنبت فيها أجيال

(1)Edward Freeman : History of Sicily. Vol. I. P. 4. Oxford 1891.

(٢) المسلمون فى صقلية ص١٥ .

صقلية المشاعر، مسلمة الدين، بل إن الدين الإسلامى واللغة العربية كانا كفيلين بأن يخلقا هذا الشعب الواحد على نحو ما حدث فى الأقاليم الأخرى التى فتحها المسلمون .

والحق أن الروح الوطنية أخذت تنمو فى نفوس الصقليين شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن، وبعد أن تم شىء من الامتزاج بين الأجناس، وشعر المهاجرون بأن صقلية هى وطنهم، نشأ جيل من الناس ينتسب إلى صقلية ويشعر بالرابطة العاطفية بينه وبينها[1].

وما دمنا قد سلمنا بوجود ما يمكن أن نسميه الشخصية الصقلية، فهل نستطيع أن نحدد الخطوط البارزة لهذه الشخصية، وأن نوضح سمات الفرد الصقلى؟

إن هذا فى تقديرى يبدو أمراً عسيراً لأنه يحتاج إلى مقاييس معينة، وإن كنا نستطيع أن ننظر إلى الشخصية الصقلية من خلال عوامل ثلاثة هى: الأوضاع السياسية أولاً، والبيئة الطبيعية ثانياً، والأوضاع الاقتصادية ثالثاً.

فالأوضاع السياسية التى مرت بها صقلية منذ الفتح العربى، وما تميزت به تلك الأوضاع من حدة وعنف فى أغلب الأحيان، وما عاشته صقلية من صراعات وحروب، كل ذلك كان له أثر عميق فى نفسية الفرد الصقلى، فانصبغت هذه الشخصية بالصبغة العسكرية أولا حيث كان عليها أن تكون فى حالة استعداد دائم لتحقيق مزيد من الفتوحات والانتصارات، كما كانت تتوقع ما تنجم عنه الأوضاع السياسية فى الداخل من فتن واضطرابات، وقد أدى ذلك بدوره إلى أن يشعر الصقليون بالقلق وعدم الاستقرار والخوف من المجهول أو مما يخبئه الغيب. ولعل هذه السمات كانت ألصق بالصقليين من غيرهم وربما

---

(١) العرب فى صقلية – ص١٧٧ .

يفسر لنا ذلك أسباب التمرد والثورة التى كانت تحدث فى صقلية فى كثير من الأحيان.

ولعل البيئة الصقلية قد أسهمت من ناحية أخرى فى تكوين الشخصية الصقلية إذ غرست فيها الإحساس بالجمال والميل إلى الأدب ولاسيما الشعر. كما جعلتها تنزع إلى ضروب اللهو، وقد لعبت البيئة المسيحية دوراً رئيسياً فى هذا المجال.

وأثرت الظروف الاقتصادية كذلك فى الشخصية الصقلية، فقد ساعد ازدهار الجزيرة الاقتصادى على تكون طبقة من الأثرياء تكاد تكون قاصرة على الأمراء وترك هذا الثراء أثره فى نفوسهم حيث افتتنوا فى التمتع بالحياة، كما ساعد انتشار الفقر بين بعض فئات الشعب على اتجاه بعض البيئات إلى الانحلال الخلقى، وذلك ما نلمسه بوضوح فى كثير من الشعرالصقلى.

الأحوال الاقتصادية والعمرانية:

لعل من أهم ما تميزت به الفتوحات العربية عبر تاريخها الطويل أن العرب كانوا يحملون معهم بذور الحضارة والمدنية إلى البلاد المفتوحة، فلم يكن حكمهم يقتصر على إدارة شئون هذه البلاد، بل كانوا يقومون بعمارتها على أسس من الحضارة والمدنية واستطاعوا أن يتركوا فى البلاد التى فتحوها آثاراً لا تنسى.

ولم تكد أقدام العرب ترسخ فى صقلية حتى أقبلوا على الزراعة والصناعة فانتشلوهما من الانحطاط الذى كانتا فيه"[1].

وقد شهدت صقلية فى القرن الخامس الهجرى ازدهاراً كبيراً فى مختلف مجالات الحياة، وترك المسلمون بها آثاراً خالدة أفاد منها الإيطاليون وغيرهم. وقد جاء فى كتاب (تراث الإسلام) ما نصه: "كانت جزيرة صقلية

(١) حضارة العرب ص٣٨٠.

الإقليم الذى استمد منه أوائل الصناع الإيطاليين خبرتهم الفنية، والموضوعات الزخرفية التى استعملوها، ولا غرو فإن الغزاة المسلمين كانوا قد أنشأوا فى القصر الملكى بمدينة (بالرمو) داراً شهيرة للنسيج ظلت على ازدهارها بعد أن عادت الجزيرة إلى الحكم المسيحى فى عهد النورمانديين"[1].

ولقد أطنب المؤرخون العرب فى وصف ما تتمتع به جزيرة صقلية من خصوبة وخيرات، فقال ابن جبير[2]: "وخصب هذه الجزيرة أكثر من أن يوصف، وكفى بأنها ابنة الأندلس فى سعة العمارة، وكثرة الخصب والرفاهة، مشحونة بالأرزاق على اختلافها، مملوءة بأنواع الفواكه وأصنافها".

وقال ابن حوقل أيضاً:[3] "والحق فيها أحق أن يتبع، فإنه لا نظير لها جودة ورخصا.. وجميع ما تقع إليه الضرورات، وتدفع الحاجة إليه من سائر الطلبات مجلوب إلى بلدهم ومحمول إلى جزيرتهم".

كما أفاض الإدريسى فى وصفها والثناء عليها، ومن ذلك قوله[4]:

"إن جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن، ووحيدة البلدان طيباً ومساكن، وقديماً دخلها المتجولون من سائر الأقطار، والمترددون بين المدن والأمصار، وكلهم أجمعوا على تفضيلها، وشرف مقدارها، وأعجبوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل ما بها".

وقد استتبع هذا الازدهار فى الزراعة ازدهار فى التجارة، يقول عنه جوستاف لوبون[5]: "وانتعشت التجارة واتسع نطاقها أيام العرب بعد أن كانت صفرا قبلهم كما يدل على ذلك ما انتهى إلينا من جداول مكوسهم التى أدرجت

---

(1) تراث الإسلام جب وآخرون ٦٦/٢.
(2) رحلة ابن جبير ص٢٤.
(3) صورة الأرض ص١٢٤.
(4) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص٣٠.
(5) حضارة العرب ص٢٨٠.

فيما نظمه النورمان من القوائم فى أوائل الفتح فتثبت درجة تحول تجارة صقلية حين هذا الفتح".

ونتيجة لذلك الانتعاش التجارى اشتهرت صقلية بأسواقها العامرة، وكانت هذه الأسواق متعددة يختص كل منها بسلعة معينة فكان هناك أسواق الزياتين بأجمعهم والدقاقين والصيارفة والصيادلة والحدادين والصياقلة وأسواق القمح والطرازين والسماكين، والقصابين وباعة البقل وأصحاب الفواكه والريحانيين والجرارين والخبازين والجدالين والعطارين والجزارين والأساكفة والدباغين والنجارين والغضائريين والخشابين، وانفردت (بلرم) وحدها بنحو مائتى حانوت لبيع اللحم"[1].

وتألقت كثير من المدن فى صقلية مثل بلرم وسرقوسة ومسينة وغيرها ويصف الإدريسى مدينة بلرم فيقول[2]: "وهى المدينة السنية العظمى، والمحلة البهية الكبرى، والمنبر الأعظم الأعلى على بلاد الدنيا، وإليها فى المفاخر النهاية القصوى، ذات المحاسن والشرائف، ومدار الملك فى الزمان المؤتنف والسالف، ومنها كانت الأساطيل تغدو للغزو وتروح.. وهى على ساحل البحر فى الجنوب الغربى .. وساحلها بهج مشرق فرج، ولها حسن المبانى التى سارت الركبان بنشر محاسنها فى بنائها ودقائق صنعها، وبدائع مخترعاتها، وهى على قسمين: قصر وربض، فالقصر هو القصر القديم المشهور فخره فى كل بلد وإقليم، وهو فى ذاته على ثلاثة أسمطة، فالسماط الأوسط يشتمل على قصور منيفة، ومنازل شامخة شريفة، وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار، والسماطان الباقيان فيهما أيضاً قصور سامية، ومبان فاخرة عالية، وبهما من الفنادق والحمامات كثير، وبها الجامع الأعظم الذى

---

(١) صورة الأرض ص١١٤.

(٢) نزهة المشتاق ص٢٢ – ٢٣.

كان بيعة في الزمن الأقدم .. فأما الربض فمدينة أخرى تحدق بالمدينة من جميع جهاتها .. وبه المدينة القديمة المسماة بالخالصة التي بها كان سكنى السلطان والخاصة في أيام المسلمين، وباب البحر ودار الصناعة هي للإنشاء. والمياه بجميع جهات مدينة صقلية مخترقة، وعيونها جارية متدفقة، وفواكهها كثيرة، ومبانيها ومتنزهاتها حسنة".

وقد آثرت أن أثبت هذا الوصف لأنه خير ما يصور ارتقاء المدنية العربية في صقلية، وأصدق دليل على ما كانت تتمتع به المدن الصقلية من تمدين ورقي.

غير أن ذلك الازدهار الاقتصادي الذي تميزت به صقليا لم يكن يعني أن جميع فئات الشعب يعيشون في رغد أو يسر، ولكنه سمح بقيام تفاوت بيّن في الثروة بين الطبقات، فلقد عاش الأمراء في قصور فخمة، وكانت لهم أبلطة فاخرة، وجمع بعضهم أموالاً طائلة، بينما عاش كثير من طبقات الشعب في فقر وضنك، يقول ابن حوقل[1]: "وأما حال يسارهم فإنهم مع قلة مؤنهم ونزور نفقاتهم وكثرة غلاتهم ليس فيهم رجل ملك بدرة عين، ولا رآها قط إلا عند سلطان إن كان يدخل إليه ومحله محل من يؤذن له عليه".

ولم يكن هذا التفاوت الواضح في الثراء هو السبب الوحيد في انتشار الفقر في بعض طبقات المجتمع الصقلي، بل كان هناك أسباب أخرى أسهمت في ذلك منها كثرة الحروب والفتن، ومنها أيضاً الهجرات المتتالية إلى صقلية من إفريقية وغيرها، وكانت هذه الهجرات تتم بأعداد هائلة نتيجة القحط والجدب في إفريقية أو سعيا وراء الاستقرار، أو هربا من الفتن والحروب والنكبات التي كانت تصاب بها إفريقية بين آونة وأخرى، ويحدثنا (أماري)

---

(1) صورة الأرض ص١٢٤.

عـن هجـرة إفـريقية كـبرى هاجـرت إلى صـقلية سـنة ٤٥٦هـــ بعـد خـراب القـيروان[1]، ويـتحدث أحمـد توفيق المدنى عن هجرة أخرى وفدت على صقلية بسبب القحط فيقول[2]: "وفى سنة ٣٩٥هـ وقعت بالبلاد الإفريقية مجاعة هائلة وقحـط شـديد فمات الناس موتا ذريعا من جراء ذلك حتى خلت البوادى وأكثر الحواضـر، وخلت الأسواق والمساجد وعدمت البهائم وضاقت الأرض بما رحبت فـيمم الـناس شـطر صـقلية، وسـارت إلـيها المراكب يتلو بعضها بعضاً، حاملة جمـوع اللاجـئين مـن عامـة القـوم وخاصـتهم، ومن سكان الحواضر والبوادى، فتقبل أمراء صقلية هذه الجموع اللاجئة على الرحب والسعة وأفسحوا لهم مكان العيش، ويسروا لهم أسباب الارتزاق".

ولا شك أن هذه الهجرات أسهمت مع غيرها من العوامل التى ذكرناها فـى اخـتلال مـوازين الاقتـصاد فـى صـقلية مما أدى إلى انتشار الفقر فى بعض طبقات المجتمع الصقلى.

• • • • •

(1) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, vol. 2, P. 415.

(٢) المسلمون فى صقلية وجنوب إيطاليا لأحمد توفيق المدنى ص١٤٥.



الاتجاهات الفكرية

- الحركة العلمية
- المدرسة الفقهية
- العلوم اللغوية
- العلوم العقلية والطبيعية

الاتجاهات الفكرية

لم يقتصر الفتح العربي لصقلية على إحداث تغييرات سياسية واجتماعية فحسب، ولكنه تميز أيضاً — وهذا هو الأهم — بإحداث تغييرات جذرية في النواحي الفكرية والثقافية.

والواقع أن العرب قد نجحوا في أن يشكلوا المجتمع الصقلي وفق آرائهم وأفكارهم ومعتقداتهم، واستطاعوا أن يخضعوا نظمه ومقاييسه لنظمهم ومقاييسهم بل وأن يصوغوه، صياغة جديدة، وهذا ما يثير الدهشة حقاً، فقد خضعت صقلية قبل الفتح العربي لسيطرة بعض القوى الأجنبية، وتعاقب عليها الغزاة والفاتحون، ولكن أياً منهم لم ينجح في إخضاع المجتمع الصقلي تماماً لنظمه، ولم يستطع أن يطمس ملامح هذا المجتمع على نحو ما فعل العرب، وهنا يكمن وجه الغرابة، فلقد جاء العرب إلى صقلية غزاة فاتحين، واستقروا فيها، واختلطوا بأهلها، وكان من الممكن أن يذوبوا في المجتمع الصقلي وهم قلة نسبياً، وأن يفقدوا ميزاتهم الخاصة وهم في بداية الطريق وأن يضيعوا لغتهم بين أقوام يتحدثون بلغات تختلف عن لغتهم، ولكن بدل أن يحدث ذلك، إذا بهم يفرضون شخصيتهم ولغتهم ودينهم على أهل البلاد، ويشيدون صرح حضارة عظيمة تعتبر جزءاً من الحضارة الإسلامية، ويحدثون انقلاباً هائلاً في النواحي الفكرية والعمرانية والحضارية، ويستبدلون بتلك الأمشاج التي كان يتكون منها المجتمع الصقلي مجتمعاً قوياً عربي الملامح والسمات، ومن يمعن النظر في خصائص الفتوحات العربية عامة يلاحظ هذه الخاصية الفريدة "فمن المعروف أن العرب لم يدخلوا بلداً من البلدان فاتحين إلا فتحوه لغوياً كما فتحوه سياسياً، وأبدلوه من لغته الأصلية لغتهم العربية، وكان القرآن الكريم هو القبس الذي يضيء في أثناء هذا الصنيع، إذ لقنوه الأمم المغلوبة، وبثوا في

أبنائها إعجابا لاحد لـه بأدبهم من شعر ونثر، سواء فى ذلك من اعتنقوا دينهم الإسـلامى ومن ظل على دينه القديم[1]. وهذا ما حدث تماما بالقياس إلى صقلية إذ أسلم كثير من سكان الجزيرة على أثر الفتح العربى، وانتشرت اللغة العربية فـى تلك الجزيـرة، وأصـبحت لغـة الـتخاطب فـيها، واللغـة الرسمية للبلاد، وتـرجمت هـذه الجزيرة أهم مؤلفات أفلاطون أرسطو إلى اللغة العربية، .. وكان مـن أثـر انتـشار اللغـة العـربية أن أصـبحت لغـة الـنقوش التاريخـية فـى هذه البلاد[2].

ومن الطبيعى أن هذا التحول لم يتم بين عشية وضحاها، ولكنه استغرق زمـناً لـيس قلـيلاً، وقـد حمـل جيل الفاتحين هذه المهمة الضخمة على عاتقه، واسـتمر أعـواماً طـويلة يؤدى رسالته الدينية والفكرية، حتى إذا ما تم الامتزاج والانصهار بين العناصر، وتمكن الإسلام من نفوس السكان الأصليين، إذا بجيل صـقلى جديـد يـضطلع بالمـسئولية، وينجح فى إنتاج فكر جديد لا يحمل طابع المهاجـرين، واسـتطاع هذا التلاقح أن يؤتى ثماره قبيل أن تستقبل صقلية القرن الخـامس الهجرى بوقت قصير، ولم تلبث هذه الجزيرة أن بلغت قيمة نضجها الفكـرى والأدبى فى ذلك القرن، وتمكنت بفضل أبنائها من أن تخلف لنا تراثا فكـريا لا يـستهان بـه. يقـول د. علـى إبـراهيم حـسن[3]: "ويعتبر العصر الذى سـادت فيه الثقافة العربية فى هذه الجزيرة هو العصر الذهبى لها، ذلك العصر الـذى بـذّت فيه صقلية جميع ممالك أوربا من حيث الحضارة والمدنية". ويقول

---

(١) د. شوقى ضيف – ابن زيدون – ص١١ (نوابغ الفكر العربى) ط. دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية.

(٢) د. على إبراهيم حسن – تاريخ جوهر الصقلى – ص١٩ – ٢٠، مطبعة حجازى بالقاهرة – الطبعة الأولى سنة ١٣٥١هـ ١٩٣٣م.

(٣) تاريخ جوهر الصقلى ص٢٠.

المؤرخ (سكوت Scott) "لم يكن يوجد بين ممالك أوربا منن يجرؤ على منافسة صقلية في تفوقها الحضارى أثناء حكم العرب لها سوى أسبانيا" [1].

وتحدث مؤرخو العرب القدماء عن تلك المكانة التى بلغتها صقلية على أيدى المسلمين فقال الحميرى[2]: "وكان فيها من العلماء والعباد والفقهاء والشعراء وأعيان الناس مالا يأخذه عد ولا يأتى عليه إحصاء".

وقال الشيخ الأنصارى الدمشقى[3]: "ولما كانت فى أيدى المسلمين كانت فى العلم وكثرة العلماء والآباء والفضلاء مضاهية الأندلس".

ويقول ياقوت الحموى "إن صقلية كانت قليلة العمارة، خاملة قبل الإسلام، .. حتى فتحت وصار أكثر أهلها مسلمين، وبنوا بـ ـا الجوامع والمساجد"[4]. وفى ذلك ما يدل بوضوح على ذلك الأثر الهائل الذى أحدثه الفتح العربى، الذى امتد ليشمل الجزيرة كلها حتى يخيل لك أن صقلية قد أصبحت جزيرة عربية بحتة على حد تعبير أحد الباحثين الغربيين[5].

والواقع أن الثقافة العربية تأصلت تأصلاً عميقاً فى صقلية، وضربت بجذورها فى أعماق البيئة بحيث امتد تأثيرها حتى بعد سقوط صقلية بأمد بعيد، ولم يستطيع الفتح النورماندى أن يطمس ملامح الثقافة العربية، بل على النقيض من ذلك فنجد النورمنديين يعيشون فى نطاق هذه الثقافة ويقعون فى أسرها، حتى أن روجر الثانى — ملك النورمنديين — كان يلبس ملابس المسلمين، ووصفه نقاده بأنه الملك "نصف الوثنى" وكان رداؤه يطرز بحروف

---

(1)S.P. Scott – History of the Moorish Embire ni Europe. Vol. 2. P. 62 London, 1904.

(٢) الروض المعطار فى خبر الأقطار – نشر أمبرتو ريزيتانو منتخبات منه فى مجل كلية الآداب – جامعة الآداب – جامعة القاهرة – المجلد الثامن عشر – جـ١ – ص١٥٨ مايو ١٩٥٦م.

(٣) نخبة الدهر وعجائب البر والبحر – المكتبة الصقلية – ص١٤٥.

(٤) معجم البلدان لياقوت – جـ٣ – ص٤٠٧ (مادة صقلية).

(٥) المسيو لوط فى كتابه (غارات الغزاة) عن كتاب (تاريخ المسلمين فى صقلية وجنوب إيطاليا) لأحمد توفيق المدنى – ص١٦٩.

عـربية[1]، ولم يستطع (غليالم) أن يتحرر من هذه العادات، بل إنه كان — كما يذكـر ابـن جـبير — "يقـرأ ويكـتب بالعـربية وكانـت علامـته: الحمد لله حق حمده، وكانت علامة أبيه الحمد لله شكراً لأنعمه"[2]

ولم يكـن المجتمع الصقلى مجتمعاً مستقلاً بذاته فى تكوينه الاقتصادى والاجتماعـى والثقافـى، وإنمـا كان فرعا من المجتمع الإسلامى الكبير، وما إن تـوطدت أقـدام المسلمين فـى صـقلية حتـى شـرعت فـى أداء رسـالتها الثقافية والحـضارية، وكانـت صـقلية بحكـم مـوقعها مـنطقة عبور ثرية لكل ما أنتجته القـرائح العربية؛ فتيسر للثقافة الأندلسية والقيروانية، والبغدادية، والمصرية أن تعـبر عـن طريق صقلية، وبدأ التبادل الثقافى بين صقلية وجيرانها يأخذ شكلاً واسـعاً، وبات واضحاً منذ بداية استقرار العرب فى صقلية أن ثمة صلات قوية تـصل بـين صـقلية والمغـرب، وكانت هذه الصلات أمراً طبيعياً. فالعرب الذين فـتحوا صقلية هم عرب المغرب، ومر بنا أن صقلية ارتبطت سياسياً بالمغرب فى أغلـب الفترات، واستتبع ذلك أن ترتبط به ثقافياً، ولكن إلى أى مدى كان هذا الارتـباط الثقافـى؟ إن أحـد الباحـثين يوسـع دائـرة هذا الارتباط فيعتبر صقلية امـتداداً طبيعـياً للمغـرب فـى النواحى الثقافية إذ يقول: "تعتبر صقلية امتداداً ثقافـياً لـبلاد المغـرب، كمـا كانـت امـتداداً سياسياً لها، وهى مع بلاد المغرب والأنـدلس تكـون جمـيعها وحـدة ثقافـية تميـزت فـى التراث العربى الإسلامى بطابـع خـاص. ورغـم أن الأنـدلس بلغـت شـوطا أبعد وأوسع مما بلغته صقلية والمغـرب فـى الـثقافة والحضارة .. فإن الصلات والتفاعل كانا كاملين بين هذه الأقاليـم الـثلاثة لامتـزاج عناصـر سـكانها وكثـرة الاتـصال والانـتقال ولعلاقات المتـشابكة المخـتلفة، ولهـذا تعد بلاد الأندلس وصقلية من حيث تراثها الثقافى

---

(1) تاريخ العرب السياسى ص٧٨٨.
(2) رحلة ابن جبير – ص٣١٥.

بلادا مغربية، خاصة وأن كثرة هائلة من سكانها النازحين إليها بعد الإسلام قد كانوا من أهل المغرب"[١]

وفي هذا القول قسط كبير من الحق، وإن كنت لا آخذه على علاته، فنحن نوافق الباحث على وجود صلات ثقافية قوية بين صقلية وكل من المغرب والأندلس ولكن وجود هذه الصلات لا تعني أن صقلية كانت تابعة المغرب تبعية مطلقة بحيث تفقد صقلية شخصيتها الثقافية، وحتى إن صح هذا في فترة من الفترات، أعني الفترة التي تلت الفتح مباشرة، فإنه لا يصح في القرن الخامس الهجري، فبعد أن كانت صقلية في أول عهدها تستمد العون الثقافي من القيروان، والقاهرة، إذا بها تستقل بشخصيتها الفكرية، وتتبلور فيها جهود علمية خاصة، وأصبح الجيل الناشئ من أبناء الفاتحين صقلي الروح والإنتاج، وفي هذه الفترة أعلنت (بلرم) عن وجودها الثقافي والعقلي، وأصبحت تذكر مع القاهرة والقيروان وقرطبة، وأضحى لها علماء وأدباء يهاجرون إلى الأندلس ومصر وشمال إفريقية[٢].

وإذا كانت الرحلة بين المشرق والمغرب من أعظم الوسائل التي وطدت الصلات العلمية، فلا شك أن رحلات العلماء من صقلية إلى خارجها وبالعكس، أسهمت إلى حد بعيد في تبادل الأفكار، وفي التلاقح الذي تم بين ثقافة الصقليين وثقافات غيرهم ولذلك فمن الحق إن يقال إن صقلية كانت مؤثرة ومتأثرة، "كانت متأثرة حيث تعتبرها جزءا من بلاد الإسلام، وكانت مؤثرة حين تعتبرها جزءاً من ذلك العالم متفوقاً على ما حوله في الحضارة، حتى كانت حضارتها مما تقتبس. وكان مبلغ العارفين بالحضارة الإسلامية أنه شيء يعجب اليونان والمسلمين"[٣].

---

(١) عصر القيروان لأبي القاسم محمد كرو وعبدالله شريط - ص٣٤ - ٣٥ - ط. دار المغرب العربي بتونس سنة ١٩٧٣.

(٢) العرب في صقلية ص٨٥.

(3)Haskins : Studies in Med. Culture. P. 224 Oxford 2929.
نقلاً عن العرب في صقلية ص٣١٨.

وإذا كانت القاهرة قد شاركت في توجيه الحياة الثقافية في صقلية، فلا شك أن الثقافة العربية الصقلية أثرت بدورها في الحياة الثقافية في القاهرة بشكل أو بآخر على نحو ما يرى د. على إبراهيم حسن إذ يقول:[1] "ولم تلبث هذه الحضارة (الصقلية) أن انتشرت بين الفاطميين، فقد كان الخليفة المعز مثقفاً يجيد عدة لغات منها : الإفريقية والصقلية، كما كان ذا ولع بالعلوم، ودراية بالآداب، معروفاً برجاحة العقل وحسن التدبير، ومن ثم اختار رجالات دولته من بين المغاربة وأهل صقلية ممن اشتهروا بالحزم والكفاية والثقافة العالية..

والحق أن صقلية قد لعبت دوراً بارزاً، ليس فقط فى الثقافة العربية وعلاقتها ببلاد المغرب، وإنما أيضاً وعلى الأخص فى النهضة الأوربية الحديثة، وفى هذه الناحية خاصة تتضح أهمية الدور الخطير الذى لعبته صقلية فى الميادين الفكرية والحضارية، إذ كانت إحدى النوافذ الهامة التى نقلت إلى أوربا حضارة العرب وأفكارهم كما كانت حلقة اتصال هامة بين الشرق والغرب وقد جاء فى كتاب تراث الإسلام ما نصه، أما حلقات الاتصال بين الشرق والغرب والطرق التى سلكتها الأساليب الفنية للوصول إلى أوربا فهى الأندلس وصقلية"[2]. وهذه حقيقة لا ينكرها الباحثون الغربيون وإنما يرددونها فى كتاباتهم بصورة أو بأخرى على نحو ما يرى جوستاف جرونيباوم إذ يقول:[3] "ولم يكن لاستيلاء الإسلام على الأندلس وصقلية إبان معظم تلك الحقبة تأثير عظيم فى التطور السياسى للعالم الغربى، وإن ظهر أنه كان حافزاً منشطاً له من الناحية الثقافية، ويقول د. أمبرتو ريزيتانو:[4] "وفى الحق أنه

---

(١) تاريخ جوهر الصقلى ص٢٠.

(٢) تراث الإسلام ٢/ ص٢.

(٣) حضارة الإسلام تأليف جوستاف جرونيباوم ترجمة عبدالعزيز جاويد ص٥٢.

(٤) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٤٩ – المجلد الثانى ص٤٩ مقال للدكتور أمبرتو ريتانو "صفحة من تاريخ العلاقات بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبى).

كـان للبحر الأبيض المتوسط فى فترة من فترات التاريخ فضل الاتصال بين برين هما من ناحية أرض صقلية وسواحل إيطاليا الجنوبية ومن الناحية الأخرى بلاد إفـريقية الشمالية. ومن الممكن أن يعترض معترض بقوله: إن هذه الاتصالات لم تكـن مقـابلات وديـة بـل كانت مصادمات حربية، وهذا حق لا ينكر إذ وقعت فعلاً حروب وغزوات وإغارات من كل ناحية من هاتين الناحيتين على الأخرى ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الشعوب لا تتعارف فقط فى ظل العلاقات السلمية ولكـنها قـد تتعارف أيضاً ويتصل بعضها ببعض من خلال الحروب التى تقرب بين شعب وآخر.

وعلـى هـذا الأسـاس فلم تكن الأندلس هى السبيل الوحيد الذى نفذت مـنه الحـضارة العـربية إلى أوربـا، وإنمـا شاركتها صقلية فى ذلك[1]، ولعلنا لا نـبالغ إذا قلـنا إن صـقلية بحكم موقعها كانت أكثر استعداداً من الأندلس لأداء هـذه المهمـة الخطـيرة، وفـى ذلـك يقول فيليب خورى حتى:[2] "كانت صقلية نقطـة الالـتقاء بـين بلـدين ذاتى ثقافتين، وهى بحكم مركزها هذا كانت مهيأة بـصفة خاصـة لـتكون وسيلة لنقل علم العصور القديمة والعصور الوسطى، وكان من بين سكانها بعض العناصر الإغريقية، وبعض العناصر الإسلامية التى تتكلم العـربية، وفريق من العلماء الذين يعرفون اللاتينية، وكانت هذه اللغات الثلاث شـائعة الاسـتعمال فـى الـسجلات الـرسمية والأوامـر الملكية كما كان يتدفق إلى الجزيـرة خـلال الحكـم العربـى لهـا، وهـى غاصة بذكريات المدنيات السالفة، تيارات الثقافة الشرقية التى كانت ممتزجة بالتراث النفيس لليونان والرومان".

وكـان مـن الطبيعـى أن تزدهـر حركة الترجمة فى صقلية نتيجة لتعدد اللغـات، وامتـزاج الـثقافات، وقـد حدث ذلك بالفعل ولكنه جاء متأخراً بعض

---

(١) قصة الأدب فى الأندلس ٣١/١.

(٢) تاريخ العرب السياسى ص٧٩٢.

الوقت لأسباب لا نعلمها. يقول فليب حتى:[1] "ولم تتهيأ الظروف لظهور حركة الترجمة فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى أو أثناء حكم العرب لها، وإن كانت قد ظهرت فيما بعد فى عهد روجر الثانى وخلفه وليم الأول، فقد ترجمت فى تلك الفترة بعض الكتب العربية إلى اللغة اللاتنية مثل (كتاب البصريات Optica) المنسوب إلى بطليموس والذى ضاع أصله اليونانى، كما ترجم كتاب (كليلة ودمنة) العربى إلى الإغريقية".

الحركة العلمية:

نشط التعليم فى صقلية بشكل واسع، وتركزت الحركة العلمية فى المكاتب والمساجد، وكانت هذه المساجد عامرة بألوان الدراسات اللغوية والأدبية والفقهية وفيها كانت تعقد حلقات العلم والإقراء وغيرها.

وكان مما يلفت النظر فى صقلية كثرة المساجد بصورة غير عادية، وفى ذلك يقول ابن حوقل:[2] "وبصقلية من المساجد فى مدينة بلرم والمدينة المعروفة بالخالصة والحارات المحيطة بها .. نيف وثلاثمائة مسجد، يتواطأ أهل الخبرة منهم فى علمها ويتساوون فى معرفتها وعددها".

ويذكر ابن حوقل أنه شاهد فى قرية البيضاء المجاورة لبلرم ما يزيد على مائتى مسجد[3]، ويعقب على ذلك بقوله: "ولم أر لهذه العدة من المساجد بمكان ولا بلد من البلدان الكبار التى تستولى على ضعف مساحتها شبها ولاسمعت من يدعيه إلا ما يتذكره أهل قرطبة من أن بها خمسمائة مسجد، ولم أقف على حقيقة ذلك من قرطبة وذكرته فى موضعه على شك منى فيه، وأنا محققه بصقلية لأنى شاهدت أكثره"[4].

(١) تاريخ العرب السياسى ص٧٩٢.
(٢) صورة الأرض ص١١٥.
(٣) المصدر نفسه ص١١٥.
(٤) المصدر نفسه ص١١٥.

هـذه الظاهـرة تـدل علـى حقيقـتين بارزتين، فهى تدل أولاً على رغبة المسلمين فى تثبيت الدين الإسلامى، وهى ظاهرة صاحبت الفتح الإسلامى فى أقطار أخرى، ولكنها كانت فى صقلية أشد وأعنف، لرسوخ المسيحية فيها عند الفـتح، فالإكـثار مـن بـناء المساجد خير ما يقنع الجماعة الإسلامية بانتصارها علـى كـل موروث صقلى، وخير ما يطمئن الأذهان إلى تثبيت الصبغة الإسلامية فى تلك البلاد، وهى طمأنينة لازمة فى بلد مجاور للعدو المتربص"[1].

وتـدل هـذه الظاهـرة أيضاً على انتشار التعليم فى صقلية بصور واسعة، ففـى هـذه المساجد وفـى المكاتـب الملحقـة بهـا، كثـر عدد المعلمين كثرة هائلة وأصـبحوا يشكلون طبقة كبيرة فى المجتمع الصقلى، حتى لقد بلغ عددهم فيما يذكر ابن حوقل ما يقارب ثلاثمائة معلم، ولم ينقص من ذلك إلا القليل، وليس كهذه العدة بمكان من الأماكن، ولا فى بلد من البلدان[2].

ولم تـسلم هـذه الطـبقة مـن لـسان ابـن حـوقل، فأنحـى عليهم بالذم، ورمـاهم بالجهل والغباء، وزعم أنهم دخلوا مهنة التعليم هرباً من الجهاد. يقول ابن حوقل[3]: "وإنما توافرت عدتهم مع قلة منفعتهم لفرارهم من الغزو ورغبتهم عـن الجهـاد، وذلك أن بلدهم ثغر من ثغور الروم وناحية تحاد العدو، والجهاد فـيهم لم يـزل قائمـاً، والـنفير دائماً منذ فُتحت صقلية، وولاته لايفترونه، وإذا نفروا لم يفتدوا بالبلد أحداً إلا من بذل الفدية عن نفسه أو أقام العذر فى تخلفه مـع رابطـة الـسلطان، وكـان قـد سـبق الرسـم بإعفـاء المعلمـين قديماً بينهم من الـنوائب وحملـت علـيهم المغارم، ففزع إلى التعليم بلههم وحسنه لديهم جهلهم مع قلة الانتفاع به والجدوى منه، فإن فيهم الكثير تمر به السنة فلا يصيب من جمـيع صبيانه وهم كثير عشرة دنانير، فأى منزلة أقبح وصورة أخس وأوقح من

(١) العرب فى صقلية ص٨٧، ٨٨.
(٢) صورة الأرض: ١٢٠.
(٣) المصدر نفسه: ١٢٠- ١٢١.

رجل باع ما أوجب الله تعالى عليه من الجهاد وشرفه والغزو وعزه بأخس منزلة وأوضح حرفة وأسقط صنيعة؟".

وهذا الهجوم الذى يشنه ابن حوقل على طبقة المعلمين لا تتوافر فيه سلامة النية أو حسن القصد، ولكن يخفى وراءه سببا هاماً، فهو لا يهاجم المعلمين لأنهم يتهربون من الجهاد كما يزعم، بل يهاجمهم لأنهم يتزعمون حركة المقاومة فى وجه المذهب الشيعى الذى كان ابن حوقل من أنصاره ودعاته[1].

ومما يؤكد هذا ما يذكره ابن حوقل نفسه فى سياق تحامله على هؤلاء المعلمين، فقد برر سبب كراهيته لهم بأنهم المتكلمون على السلطان فى سيره واختباراته والإطلاق بالقبائح من ألسنتهم بمعائبه وإضافة محاسنه إلى قبائحه[2]. وفى هذا الكلام تلميح خفى يؤكد مناهضة المعلمين للشيعة.

ولكن هذه الصورة المظلمة التى رسمها ابن حوقل لمعلمى صقلية، تقابلها صورة أخرى مضيئة، فقد احتل هؤلاء المعلمون فى نفوس الصقليين مكانة عظيمة، إذ كانوا "يعتقدون أن هذه الطائفة أعيانهم ولبابهم وفقهاؤهم ومحصلوهم وأرباب فتاويهم وعدولهم، وبهم عندهم يقوم الحلال والحرام وتعقد الأحكام وتنفذ الشهادات وهم الأدباء والخطباء" [3].

ومهما يكن من أمر، فقد كثر المعلمون فى صقلية، واشتهر منهم كثيرون مثل أبى عبدالله محمد بن عيسى بن مطر المعلم فى مسجد الزهرى بالسماط، وكان من كبائر المذكورين من المعلمين بها فى السير والعدالة، وقد سافر يشرق،

(١) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٤٨.
(٢) صورة الأرض ص١٢٠.
(٣) المصدر نفسه ١٢١.

ودخل المشرق وكتب الحديث، ومثل أبى الحسن على بن بانه المعروف بابن ألف سوط وهو إليه فى العدالة، ويراه قوم منهم فوقه فى العلم والفقه[1].

وعلى يد هؤلاء المعلمين وفى هذه المكاتب وفى حلقات الشيوخ بالمساجد كان الصقلى يتلقى علومه الأولى، فإذا نزعت به فى مستقبل حياته نزعة علمية غادر صقلية إلى المشرق فدرس على أساتذة مشهورين، ورجع يحمل إجازات كثيرة، أو كاتب هؤلاء الأساتذة دون أن يرحل، واستجازهم كتبهم، أو طمح إلى زيارة الكعبة فالتقى فى رحلته بالشيوخ المشهورين، فسمع منهم وتلقى عنهم، وعاد إلى بلده، وقد زادت الرحلة من مكانته واعتقد الناس أنه قد أصبح علماً يقصد لعلمه. وكانت مصر مهبط كثير من هؤلاء الراحلين فى طالب العلم لعلاقتها بصقلية، ولنشاطها العلمى، ولأنها على الطريق إلى الحجاز[2].

وكان المسجد الجامع ببلرم بمثابة كعبة يحج إليها طلاب العلم الصقليون، ويتحدث ابن حوقل عن هذا المسجد فيقول[3]: "ويدل على قدرهم وعددهم صفة مسجد جامعهم ببلرم، وذلك أنى حزرت المجتمع فيه إذا غص بأهله بلغ سبعة آلاف رجل ونيفا، لأنه يقوم فيه أكثر من ستة وثلاثين صفاً للصلاة، وكل صف منها يزيد على مائتى رجل"

وأكبر الظن أن هذا المسجد قد أسهم بدور فعال فى تنشيط الحركة العلمية إذ كان ملتقى العلماء والفقهاء والأئمة، وإليه كان يلجأ المسلمون والصقليون للاستفتاء، ويفد الطلاب الصقليون لتلقى العلوم التى كانت تدرس فى ذلك الحين، ومنه يتخرج خيرة العلماء والفقهاء[4].

---

(١) المصدر نفسه ١٢١.

(٢) العرب فى صقلية ص٩٠ – ٩١.

(٣) صورة الأرض ١١٤.

(٤) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٥٢ – ٥٣.

المدرسة الفقهية :

اهتم الصقليون اهتماماً كبيراً بالعلوم الدينية ولاسيما الفقه، فأقبلوا على دراسته، وآثروه على غيره من العلوم، وقد شاع في صقلية المذهب المالكي لقربها من المغرب من ناحية، ولأن أغلب ولاتها وقضاتها الأوائل كانوا يعتنقون هذا المذهب، فأسد بن الفرات — الذي افتتحها — كان مالكياً "سمع على ابن زياد الموطأ وتعلم منه العلم ثم ارتحل إلى المشرق فلقى مالكا .. وطلب عليه العلم وسمع منه الموطأ .. ثم رحل من العراق بعد وفاة مالك بن أنس إلى مصر فلزم ابن القاسم وأخذ عنه الأسدية وقدم بها إلى القيروان وسمعها منه خلق كثير من الموطأ وغير ذلك من العلوم، وانتشرت إمامته"(1).

ويروى أنه لما أراد أسد الخروج إلى صقلية قال له رجل: على من ترى أعتمد؟ فقال له: إن أردت الله والدار الآخرة فعليك بعلم مالك(2).

ولا شك أن أسداً كان أول من أرسى دعائم مذهب مالك بصقلية وقد ترك أسد للصقليين كتابه (المسائل الأسدية) فعكفوا عليه، وأخذوا عنه.

واستأثرت صقلية — بعد ذلك — بعدد من العلماء الأجلاء من تلامذة سحنون جامع المدونة، الذين وردوا إليها بعد الفتح، وعن طريقهم انتشر مذهب الإمام مالك في صقلية، ومن هؤلاء العلماء القاضي سليمان بن سالم القطان المعروف بابن الكحالة "من أصحاب سحنون .. كان ثقة، كثير الكتب والشيوخ.. وله تآليف في الفقه، وتعرف كتبه بالكتب السليمانية.. وتولى قضاء صقلية فخرج إليها ونشر بها علما كثيرا وكان خروجه إليها سنة ٢٨١هـ قال الشيرازي: وعنه انتشر مذهب مالك بها"(3).

(1) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية ١٧٣/١.
(2) تراجم أغلبية ص١٦٠.
(3) تراجم أغلبية ص٢٦٠ – ٢٦١.

ومنهم ميمون بن عمر الإفريقي المالكي، كان قاضيا لصقلية، وكان آخر من روى بالمغرب عن سحنون وعن أبي مصعب الزهري وتوفى سنة ٣٢٠هـ[١].

ومنهم أيضاً أبو سعيد لقمان بن يوسف الغساني. كان عالما باثنى عشر صنفاً من العلوم وأقام بصقلية أربع عشرة سنة يُدرِّس المدونة وتوفى سنة ٣١٨هـ[٢].

وعكف هؤلاء الفقهاء وأمثالهم على المدونة يدرسونها ويشرحونها، وبجانب المدونة ألفت كتب أخرى فى الفقه مثل كتاب (تجديد الإيمان وشرائع الإسلام) لأبى جعفر بن سعيد التميمى المعروف بالقصرى المتوفى سنة ٣٢٢هـ ويقول أحد الرواة "إنه كتاب عجيب يشتمل على نيف وستين جزءاً وقفت على جميعه وقرأته مراراً بصقلية وإفريقية"[٣].

وفى الفترة التى خضعت فيها صقلية للفاطميين، تأثرت إلى حد ما بالخلافات المذهبية بين دعاة الشيعة وأنصار السنة، وإن كان هذا التأثر لم يصل إلى حد الغلو الذى يذهب إليه د. أمبرتو ريزيتانو إذ يقول:[٤] "أما فى عهد الأئمة الفاطميين فكانت صقلية تنعكس عليها الاضطرابات السائدة فى إفريقية، والخلافات الدينية التى قامت فى القيروان، فأصبحت صقلية ميداناً للشقاق الذريع بين أنصار سنة النبى ودعاة الشيعة، أى بين الجموع العربية التى كانت قوام الدولة الأغلبية، والعناصر البربرية التى كانت ترى أنها هى أقطاب الدولة أيام الفاطميين".

ونحن نتناول هذا الرأى بحذر شديد، فبالرغم من أن الولاة كانوا يعتنقون مذهب الفاطميين، إلا أنهم لم يتعصبوا لمذهبهم إلا فيما يخص باب الإمامة[٥] ولم يصل بهم هذا التعصب إلى حد محاربة المذهب المالكى فى

---

(١) العبر فى أخبار من عبر للذهبى – المكتبة الصقلية ص٦٤٨.
(٢) رياض النفوس، المكتبة الصقلية ص١٩٢.
(٣) المصدر نفسه، المكتبة الصقلية ص١٩٣ – ١٩٤.
(٤) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٥٣.
(٥) المسلمون فى صقلية تأليف مارتينو ماريو ص٣٧.

صقلية، بل ظل هو المذهب السائد حتى فى أيام الفاطميين، وإن كانوا قد رحبوا أيضاً بمعتنقى مذهب بنى عبيد، الذين كرههم علماء القيروان المتمسكون بمذهب مالك والمتعصبون له، فهاجر إلى الجزيرة من مشاهير الفقهاء: خلف بن أبى القاسم الأزدى، المعروف بالبرادعى، والذى كان من تلامذة أبى محمد أبى يزيد، وأبى الحسن القابسى وقد ألف فى صقلية بعض كتبه، ومنها كتاب (التهذيب فى اختصار المدونة)[1].

وكان للبرادعى وغيره من الفقهاء الفضل فى تكوين مدرسة فقهية صقلية فى القرن الخامس الهجرى، ويشير ابن حمديس إلى هذه المدرسة فيقول[2]:

ومدرســـة أبـــناؤها فقهاؤهـــا   فمـــن عـــالم مـــنهم ومـــن مـــتعلم

وتميزت هذه المدرسة بظاهرتين بارزتين، الأولى أن أكثر أبنائها صقليون، والثانية أن أثرها قد امتد إلى خارج صقلية حيث حقق أبناؤها شهرة واسعة داخل صقلية وخارجها، فمن أبنائها الذين اشتهروا بمصر أبو عمر عثمان بن الحاج الشاقى الصقلى، وينسب إلى شاقة إحدى مدن صقلية، وقد تفقه على مذهب مالك على الكبر، وألف كتب كثيرة فى الفقه[3]، يقول السلفى:[4] "كان يحضر عندى كثيرا وقد علقت أنا عنه شيئاً يسيراً مما كان يحكيه، وكان أبو الضوء الكاتب يقرب منه ويكاتبه من صقلية، ووقفت على شىء من ترسله. وكان فاضلاً ذا أدب بارع وشعر فائق".

ومنهم عبد الجليل بن مخلوف الصقلى الفقيه المالكى. يقول السلفى إنه "أفتى بمصر ودرس مذهب مالك أربعين سنة وسمع عليه الحديث كثيرون

---

(١) الديباج المذهب فى معرفة علماء المذهب ص١١٢.

(٢) ديوان ابن حمديس تحقيق إحسان عباس ص٤٨٤ ط. بيروت. ١٩٦٠م.

(٣) معجم البلدان لياقوت جـ٣ ص٢٣٧ مادة (شاقة).

(٤) معجم السلفى نسخة مصورة رقم ٣٩٤٢ تاريخ بدار الكتب المصرية ورقة ١٨٧ - ١٨٨.

ومات بها سنة ٥٤٩هـ[١]. ومنهم كذلك أبو القاسم السرقوسى، وقد قرأ عليه الفقه كثيرون منهم: أبو محمد روزبة بن موسى الخزاعى[٢].

كما قدم إلى الأندلس كثير من أبناء هذه المدرسة مثل محمد بن سابق الصقلى وقد روى بمكة عن كريمة بنت أحمد المروزى وغيرها وأخذ عنه أهل غرناطة وكان من أهل الكلام مائلاً إليه ثم ترك الأندلس ورحل إلى مصر وظل بها حتى توفى سنة ٤٩٣هـ[٣]. ومثل على بن عثمان بن الحسين الربعى الصقلى الذى قدم قرطبة تاجراً وروى عنه أبو على الغسانى كتاب (اللمع فى أصول الفقه) لأبى عبدالله الحسين بن حاتم الأزدى[٤]، ومن هؤلاء العلماء أيضاً محمد بن عبدالله الصقلى وقد روى عن أبى الحسن اللخمى الفقيه كتاب (التبصرة فى الفقه) من تأليفه" وقدم غرناطة وأخذ الناس عنه بها وتوفى سنة ٥١٨هـ[٥]. ومنهم كذلك ثابت الفقيه الصقلى. أخذ بصقلية عن عبد الحق بن هارون الفقيه وغيره ثم دخل الأندلس وأخذ عنه بها[٦]. وكثير غير هؤلاء.

ونستطيع أن نميز من بين شيوخ هذه المدرسة ثلاثة فقهاء نالوا شهرة واسعة فى صقلية، وفى خارجها ويمكن أن نعتبرهم شيوخ هذه المدرسة وهم:

عبد الحق الصقلى :

ترجم له القاضى عياض فقال:[٧] عبد الحق بن محمد بن هارون السهمى الفرشى. من أهل صقلية، تفقه بشيوخ القيروانيين والصقليين.. وحج مرتين، فلقى فى إحداهما القاضى عبد الوهاب المالكى وأبا ذر الهروى وحج

---

(١) معجم السلفى ورقة ١١٧.
(٢) المصدر نفسه ورقة ٥٧.
(٣) الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ٢/ ٥٤٦.
(٤) المصدر نفسه ٢/ ٥٤٨.
(٥) نفسه ٢/ ٥٤٨ .
(٦) المصدر السابق ١/ ١٣٨.
(٧) ترتيب المدارك للقاضى عياض ص٣٧٦ – ٣٧٩.

أخرى بعد أن أسن وكبر وبعد صيته فلقي بمكة إذ ذاك أمام الحرمين أبا المعالى (عبد الملك بن يوسف الجوينى) العالم المتكلم وذلك سنة ٤٥٠هـ فباحثه وسأله عن مسائل إجابة عنها أبو المعالى وهى مؤلفة مشهورة فى أيدى الناس وكان عبد الحق يعترف بفضله ويقول: "لولا كبر سنى ما فارقت عتبة منزله" وكان الآخر يجله ويعترف بفضله .. وتكرر عبد الحق بعد هذا ببلاد مصر إلى أن توفى بها. وكان فقيها فهما صالحا دينا مقدماً بعيد الصيت، شهير الخير، مليح التأليف".

وفى صقلية ألف عبد الحق كتاب (النكت والفروق لمسائل المدونة)، ونال الكتاب شهرة واسعة ولكنه ندم على تأليفه وتغيرت نظرته إليه، فتولاه بالتغيير ورجع عن كثير من اختباراته وتعليلاته، وكان يقول: لو قدرت على جمعه وإخفائه لفعلت[1].

وألف عبد الحق كذلك كتابه فى شرح (المدونة) المسمى (بتهذيب المطالب)، وله (استدراك على (مختصر البرادعى) وله (عقيدة) وله جزء فى ضبط أو بسط ألفاظ المدونة، وتوفى سنة ٤٦٦هـ بالإسكندرية وكان قد هاجر إليها قبل ذلك بأعوام قليلة[2].

أبو عتيق السمنطارى :

ينسب أبو عتيق إلى قرية (سمنطار) إحدى قرى صقلية، وكان يجمع بين الفقه والتصوف، وترجم له ياقوت الحموى فقال:[3] أبو عتيق السمنطارى الرجل الصالح العابد. له كتاب كبير فى الرقائق سماه كتاب (دليل القاصدين) يزيد على عشرة مجلدات. ذكره ابن القطاع فقال: العابد أبو بكر عتيق بن على

(١) الديباج المذهب ص١٧٤.
(٢) ترتيب المدارك ص٣٧٩.
(٣) معجم البلدان لياقوت ٣/ ١٤٤ وما بعدها.

ابـن داود المعـروف بالـسمنطارى. أحـد عـباد الجزيـرة المجـتهدين وزهادهـا العـالمين، وممـن روض الأولى ولم يـتعلق مـنها بـسبب وطلب الأخرى وبالغ فى الطلـب. وسـافر إلى الحجـاز فحـج وساح فى البلدان من أرض اليمن والشام إلى أرض فارس وخراسان، ولقى بها من العباد وأصحاب الحديث والزهاد، فكتب عنهم جميع ما سمع وصنف كل ما جمع. وله فى دخول البلدان ومقيلة العلماء كـتاب بـناه علـى حـروف المعجـم فـى غاية الفصاحة، وله فى الرقائق وأخبار الصالحين كتاب كبير لم يسبق إلى مثله فى نهاية الملاحة. وفى الفقه والحديث تألـيف حـسان، فـى غايـة الترتـيب والبـيان، ولـه سمعـة فـى الـزهد ومكائـد الزمان[1].

وذكـر الـسلفى أن الـسمنطارى روى كتابا للفقيه السهيلى وهو (مختصر فى أصول الفرائض) وسماه (سهيل السهيلى)[2].

ويذكـر الـسلفى أيـضاً أنـه كان مستجاب الدعوة، فعندما غزا النورمان الجزيـرة قـال: اللهم إنك قضيت على المسلمين بما قضيت، فإن تمت ولايته - يقـصد دوقة الإفرنج - فسخره لهم، فلما ملكها صار عليهم أحن من الوالد على الولد[3].

الإمام المازرى :

هـو الإمـام أبـو عـبدالله محمـد بن على بن عمر التميمى المازرى الفقيه المالكـى المحـدث ولـد بمديـنة مـازر بـصقلية سنة ٤٤٣هـ، وتلقى علومه بها، وذاعـت شهرته فهاجر إلى المهدية بعد أن احتل النورمان صقلية، وهناك تصدر للتدريس بجامعها الكبير. جامع عبيد الله المهدى، وبه بث ما وسعه صدره من

(١) معجم البلدان ٣/ ١٤٤.
(٢) معجم السلفى - ورقة ٣٤٦.
(٣) المصدر نفسه - ورق ٢٩٨.

العلم الغزير والمادة الواسعة فنشر العلوم الدينية والفنون على اختلاف أنواعها ومراميها، ومن ذلك الحين ذاع صيته في الأفاق، وطبقت شهرته المشرق والمغرب[1].

ودرس على المازرى كثير من علماء إفريقية، وشهد له بالعلم غير واحد، فقال ابن خلكان[2]: "هو أحد الأعلام المشار إليهم فى حفظ الحديث والكلام عليه .. وكان فاضلاً متفنناً".

وقال عنه القاضى أبو الفضل عياض السبتى[3]: "هو إمام بلاد إفريقية وما وراءها من المغرب، وآخر المشتغلين من شيوخ إفريقية بتحقيق الفقه وممن بلغ فيه رتبة الاجتهاد، ودقة النظر، ولم يكن فى عصره للمالكية فى أقطار الأرض أفقه منه ولا أقوى لمذهبهم، وسمع الحديث وطالع معانيه. واطلع على علوم كثيرة من الطب والحساب والآداب وغير ذلك".

وقال عنه آخر[4]: "كان آخر المشتغلين بإفريقية بتحقيق العلم، ورتبة الاجتهاد، ودقة النظر وكان يفرغ إليه فى الفتيا فى الطب كما يفرغ إليه فى الفتيا فى الفقه .. وممن أخذ عنه بالإجازة القاضى عياض". كما شهد له بالعلم رجال من غير مذهبه مثل السبكى الذى يقول فيه[5].

"أما المازرى .. فكان من أذكى المغاربة قريحة وأحدهم ذهنا، بحيث اجترأ على شرح البرهان لإمام الحرمين، وهو لغز الأمة الذى لا يحوم حول حماه ولا يدندن حول مغزاه إلا غواص على المعانى، ثاقب الذهن، مبرز فى العلم".

---

(١) الإمام المارزى ص٥١ – نوابغ المغرب العربى – العدد الأول – ط. دار الكتب الشرقية بتونس.

(٢) وفيات الأعيان ٣/ ٤١٣.

(٣) كتاب (الغنيمة) للقاضى عياض فى ذكر مشيخته (مخطوط بمكتبة المرحوم الشيخ الصادق النيفر بتونس)، ونقلتها عن كتاب الإمام المازرى لحسنى عبد الوهاب ص٥٧.

(٤) المختصر فى الفقه لخليل بن إسحاق . المكتبة الصقلية ص٦٧ – ٦٨ من الملاحق.

(٥) طبقات الشافعية الكبرى ١٢٤/٤.

وخير ما يصور روحه في الدرس والبحث وقفته من الجويني في شرح البرهان ونقده للإمام الغزالي في الإحياء، ولا ندري إن كانت هذه الروح الشديدة المحافظة هي روح المازري وحده أو هي طابع مغربي صقلي؟[1].

وكان المازري من متقدمي المتكلمين على مذهب الأشعري، وله مؤلفات في علم الكلام، منها كتاب (شرح الإرشاد وشرح البرهان) لإمام الحرمين واستأذنه فيه أبو علي الحضرمي القروي[2].

وقد خلف لنا المازري آثاراً علمية قيمة منها (المعلم بفوائد كتاب مسلم) وقد شرح فيه صحيح مسلم شرحاً جيداً، وعليه بنى القاضي عياض كتاب (الإكمال)، وهو تكملة لهذا الكتاب[3]. وله في الأدب كتب متعددة، وله كتاب (إيضاح المحصول في برهان الأصول)، وهو شرح ممتع في أجزاء عديدة على برهان إمام الحرمين الجويني المتوفى سنة ٤٣٨هـ في أصول الديانة، وله نظم الفرائد في علم العقائد وهو من أجل مصنفات الإمام، وله أيضاً تعليق على مدونة سحنون[4].

ومع أن المازري هاجر من صقلية وأقام بالمهدية إلا أن صلته لم تنقطع بموطنه الأصلي، وعاش بروحه مع هذا الوطن، وشارك أهله في محنتهم، يقول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب[5]: "ومما يؤثر عن الإمام المازري أنه كان يكرم من يفد على إفريقية من مهاجري صقلية، فيوسع على فقيرهم، ويساعد بالنصيحة الميسور منهم، عطفاً على أولئك اللاجئين المصابين بفقدان الوطن، وقد استقر منهم كثير في أحواز المهدية والمنستير وسوسة، فاشتروا الأرضين

---

(١) العرب في صقلية ص٢٢٩.
(٢) العرب في صقلية ص٢٢٩.
(٣) المقفى للمقريزي - المكتبة الصقلية - ص٦٦٨.
(٤) الإمام المازري للأستاذ حسن حسني عبد الوهاب ص٥٩.
(٥) المصدر نفسه ٩١.

لإثمارها بالعلم، فكان المازرى أكبر معين لهؤلاء على استقرارهم فى وطنهم الجديد".

وكان من أثر تعلق الإمام المازرى بصقلية أن شارك أهلها فى محنتهم مشاركة فعلية، فأصدر فتوى فريدة من نوعها لإعذار أهل صقلية عن مهاجرة بلادهم عندما ورد عليه — وهو بالمهدية — سؤال من جماعة المسلمين المقيمين تحت ذمة النصارى بصقلية بعد انجلاء حكم الإسلام عنها، ونصه: "سئل الإمام المازرى عن أحكام قاضى صقلية وشهادة عدولها، ولا يدرى إقامة المسلمين هنالك تحت أهل الكفر: اختيارية أم ضرورية؟ فكان جوابه رضى الله عنه: "القادح فى هذا على وجهين: الأول فى الكلام على القاضى من ناحية العدالة حيث أقام ببلد الحرب فى قيادة أهل الكفر وذلك لا يباح، والثانى من ناحية الولاية إذ هو مولى من قبل أهل الكفر، فالأول له قاعدة يعتمد عليها شرعا وهى تحسين الظن بالمسلمين ومباعدة المعاصى عنهم، فلا يعدل عن هذا الأصل لظنون قد تكون كاذبة .. وهذا المقيم ببلد الحرب إن كان اضطرار فلا شك أنه لا يقدح فى عدالته، وكذا إن كان اختيارا .. وأما الوجه الثانى وهو تولية الكافر للقضاء والعدول والأمناء وغيرهم فلا يقدح فى حكمه، وتنفذ أحكامه كما لو ولاه سلطان مسلم[1].

ولا شك أن المازرى وغيره من شيوخ مدرسة الفقه أسهموا إسهاماً فعلياً فى تنشيط الدراسات الفقهية، ونستطيع أن نضع أيدينا على خصائص معينة تميز هذه المدرسة عن غيرها بعض التمييز، ولعل أول هذه الخصائص هى المحافظة والتشدد فى الأحكام والفتاوى، وكان من مظاهر هذا التشدد المقترن بمعنى التدين، أخذ الفقهاء بالأشد من كل حكم ولزومهم المدونة لا يحيدون

---

(١) الإمام المازرى لحسن حسنى عبدالوهاب ص٨٧ – ٨٩، وقد نقلها عن كتاب (الدكانة) مخطوطة للشيخ عظوم القيروانى.

عنها، وقول بعضهم وقد قدم إليه تلميذه خفه ليلبسه — وكان ذلك التلميذ ممن يفتى — اصفعنى به يا أبا القاسم ولا تفتنى[1]. وقد مرت بنا أمثلة تدل على تشدد الفقهاء فى الأحكام مثل وقفة الإمام المازرى من الجوينى فى شرح البرهان ونقده للإمام الغزالى فى (الإحياء)، وأورد لنا ابن مكى فتوى تدل على تشدد الفقيه عبد الحق الصقلى فى أحكامه، فقد أفتى بعدم جواز الصلاة خلف من يظهر فى قراءته النون الخفيفة أو التنوين عند الباء والواو، وعدّ هذا من اللحن، قياساً على من يتكلم فى الصلاة متعمداً. يقول ابن مكى[2]: "وقال لنا الشيخ أبو محمد عبدالحق — أيده الله —: "أى بعض أهل العلم أن اللحن الذى لا يجوز مثل إظهاره هذه النون الخفيفة والتنوين عند الباء والواو، وتبديل الضاد ظاء، والظاء ضاداً، وأشباه ذلك، إذا كان فى غير أم القرآن، أن الصلاة خلف القارىء بذلك جائزة. قال : ومنع أبو الحسن بن القابسى — رحمه الله — من الصلاة خلفه، وإن كان لحنه فى غير أم القرآن". قال لنا الشيخ أبو محمد: ، وهذا صحيح، لأنه إذا غير القرآن كان متكلما فى الصلاة، إذ كلام الله — عز وجل — غير ملحون، فليس الذى تكلم به كلام الله تعالى، وإنما هو كلامه، فصار كمن تكلم فى الصلاة متعمداً".

ونجد فى الشعر الصقلى إشارات إلى سمة التشدد هذه كما فى قول ابن حمديس[3]:

خذ بالأشد إذا ما الشرع وافقه ... ولا تمل بك فى أهوائك الرخص
ولا تكن كبنى الدنيا رأيتهم ... أن أدبرت زهدوا أو أقبلت حرصوا

وقد لاتبدو هذه الظاهرة شيئاً غريباً إذا ربطنا بينها وبين طبيعة المجتمع الصقلى ذاته، ففى مجتمع مثل هذا يضم أجناساً مختلفة وأمشاجاً

(١) العرب فى صقلية ص٣٠٣.
(٢) تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكى الصقلى تحقيق د. عبدالعزيز مطر ص٢٤٧.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٢٩٠.

مختلطة، رأى الفقراء أن تنفيذ الأحكام بدقة، والتمسك بكل ما جاءت به الشريعة هما خير وسيلة لتثبيت هذا الدين الجديد.

وهناك سمة ثانية اتسمت بها تلك المدرسة، وهى شدة الارتباط بينها وبين المدرستين الإفريقية والأندلسية فى المسائل الفقهية، فكثيراً ما كانت هذه المدارس تتبادل الآراء فى الأحكام والفتاوى، وقد احتفظ لنا النباهى بصورة مما كان يدور بينها فذكر أن الكلام كان قد استعظم بالأندلس فى حق القاضى أبى الوليد الباجى عندما أبدى رأيه فى مسألة من المسائل، فنسبوا كل تكذيب وتعطيل إليه، وكان من قوله أن النبى الأمى يجوز أن يكتب بعد أميته فيكون ذلك من معجزاته، وتفاقم الخلاف بين الناس فكتب أمير وطنه فى المسألة إلى صقلية وإفريقية، برغبة الباجى فى ذلك، فجاءت الأجوبة من هناك بتصديقه وتصويب مقالته[1].

أما السمة الثالثة التى نلحظها فهى ارتباط الفقه بالجهاد، إذ نجد غير واحد من فقهاء صقلية يجمعون بين الاشتغال بالفقه والمرابطة للجهاد على شاكلة الإمام أبى بكر محمد بن يونس التميمى الصقلى، فقد كان فقيهاً إماماً عالماً، فرضياً، أخذ عن أبى الحسن الحصائرى وعتيق بن أبى الفرضى وغيرهما، وكان ملازماً للجهاد، وتوفى سنة ٤٥١هـ[2]. ومثل الفقيه موسى بن عبدالله بن الحسن الذى انتقل من صقلية إلى الأندلس، وكان مجاهداً، وظل يجاهد حتى قتل سنة ٤٨٩هـ[3].

ومن الممكن أن نرد هذه الظاهرة أيضاً إلى طبيعة البيئة الصقلية، التى كانت دار جهاد منذ أن فتحها المسلمون، وقد وجد فيها الفقهاء وأهل الصلاح

(١) تاريخ قضاة الأندلس ص٢٠٩.
(٢) المختصر فى الفقه لخليل بن إسحاق المكتبة الصقلية ص٧٦ من الملاحق.
(٣) الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس لابن بشكوال ٢/٥٥٤.

متنفساً طبيعياً يؤدون فيه حق الجهاد، ويدفعون عن وطنهم هجمات الأعداء والطامعين فينالون بذلك ثواب الجهاد وثواب العلم.

الحديث والقراءات

حف بالفقه علوم أخرى كالتفسير والحديث والقراءات، ولكن جهود الصقليين في هذه العلوم كانت أقل بكثير بالقياس إلى جهودهم في الفقه، فلم تحتفظ لنا المصادر بمعلومات ذات قيمة عن علم الحديث، وكل ما نعرفه أن بعض المحدثين كانوا يجمعون بين رواية الحديث والقراءة أو غيرها من العلوم، ومن المحدثين الذين ورد ذكرهم في المصادر العباس بن عمرو الصقلي، وقد روى "غريب الحديث" لقاسم بن ثابت السرقسطي[1]. ويقول الضبي عن هذا الكتاب "وهو كتاب حسن مشهور ذكره أبو محمد بن حزم وأثنى عليه"[2].

ويبدو أن دراسة الحديث كانت تدور إبان ازدهار الدراسات الدينية حول الموطأ أو ملخصات منه، وكان عبد الحق الصقلي والسمنطاري من أكبر من قاموا بهذه الدراسة في عصر واحد[3].

ومما يلفت النظر أن بعض المحدثين كانوا يتحرزون من رواية الحديث خشية الوقوع في الخطأ أو الاتهام بالكذب على شاكلة ابن الحذاء القيسي الصقلي، فقد أبى أن يروى لأبى طاهر السلفي شيئاً من الحديث للأسباب التي ذكرناها، وفي ذلك يقول السلفي[4]: "وجرى بيني وبينه خطب طويل في فضل الرواية وأن روايته أولى من امتناعه منها، فاعتل بعلل تكلمت عليها معه فوجدت عمدته في تجربة التحرز من الوقوع في الكذب على النبي ﷺ إذ لم تتقدم له قراءة للعربية".

(١) جذوة المقتبس ص٢٩٩.
(٢) بغية الملتمس ص٤١٧.
(٣) العرب في صقلية ص١٠٣.
(٤) معجم السلفي ورقة ١٢٠.

أما فى القراءات، فالأمر يختلف بعض الشيء، إذ وردت فى المصادر إشارات غير قليلة إليها، وهى تدل على أن الدراسات التى قامت حولها كانت على قدر لا بأس به من النشاط، وكان يتصدر حلقات الإقراء بصقلية قراء كثيرون أمثال أبى محمد عبدالله بن فرج المدينى ومحمد بن إبراهيم بن الشامى المدينى، وأبى بكر محمد بن على الأزدى بن بنت العروق، وأبى عبدالله محمد ابن عبدالله الفتال. يقول السلفى[1]: "وهؤلاء شيوخ المدينة بصقلية والمقدمون فى الإقراء".

وقد درس على هؤلاء الشيوخ قراء كثيرون مثل أبى البهاء عبدالكريم ابن عبدالله بن محمد المقرىء الصقلى. قال عنه السلفى[2]: "كان من أهل القراءات والحديث. وروى لى شيئاً يسيراً من حفظه، وكتبت من أجزائه كذلك فوائد من حكاية وشعر، ولد سنة ٤٤٠هـ بصقلية، وتوفى سنة ٥١٧هـ بالإسكندرية".

واشتهر من بين القراء إسماعيل بن خلف الصقلى المتوفى ٤٥٥هـ وكان إماماً فى علوم الأدب، متقناً لفن القراءات[3] وقد صنف كتاباً فى القراءات سماه (العنوان فى القراءات) قال عنه ابن خلكان "وهو عمدة فى هذا الشأن .. وذكر فيه ما اختلف فيه قراءات السبعة بإيجاز واختصار لتقرب على المتحفظين دون الأغمار وعلى المبتدئين والغلمان إذ جعل كتابه المترجم بالاكتفاء كافياً للمنتهى والمبتدى وبسطه بسطاً لا يشكل على ذى لب سوى فجعل هذا المختصر كالعنوان له والترجمة" وشرحه عبدالظاهر بن نشوان الرومى[4] كما اختصر

(١) معجم السلفى ورقة ٢٤٦ – ٢٤٧.
(٢) المصدر نفسه ٢٤٦ – ٢٤٧.
(٣) بغية الوعاة ص١٩٥ .
(٤) كشف الظنون – المكتبة الصقلية – ص٧٠٤ .

الحجة للفارسي وانتفع به الناس، كما صنف إعراب القراءات في تسعة مجلدات[1].

وامتد نشاط هؤلاء القراء إلى خارج صقلية وبالذات مصر حيث وفد عليها بعض القراء الصقليين واستقروا بها، ونالوا فيها شهرة واسعة، وكان أكثرهم حظاً في الشهرة ابن الفحام الصقلي، واهتمت به كتب التراجم[2]، فقال عنه ابن الجزري[3]: "هو عبدالرحمن بن عتيق بن خلف بن الفحام الصقلي الأستاذ الثقة المحقق، شيخ الإسكندرية، والذي انتهت إليه رئاسة الإقراء بها علواً ومعرفة". وقال عنه السلفي[4] "وهو من كبار القراء، وممن رحل من المغرب إلى المشرق في طلب القراءة على الشيوخ، فأدرك بمصر ابن هاشم وابن نفيس وعبدالباقي بن فارس، وأبا الحسين الشيرازي وآخرين سنة ٤٣٨هـ وتلمذ على طاهر بن بابشاذ في النحو وأملى عليه شرح مقدمته، وقد علقت عنه فوائد وله تأليف حسن سماه "التجريد في بغية المريد" كتبت أنا منه أسانيد كل قراءة، وكان حافظاً للقراءات صدوقاً متقناً، عالماً، كبير السن"[5].

ويقول ابن الجزري عن كتاب التجريد: "وكتابه التجريد من أشكل كتب القراءات حلا ومعرفة ولكني أوضحته في كتابي (التقييد في الخلف بين الشاطبية والتجريد) ومن وقف عليه أحاط بالكتاب علماً بيناً"[6].

---

(١) بغية الوعاة ص١٩٥ – ١٩٦.

(٢) راجع ترجمته في إنباه الرواه القفطي جـ٢ ص١٦٤ – ١٦٥ ترجمة رقم ٢٨٠ ومعجم السفر للسلفي – ل١٠٧، ومعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعمار للذهبي، وطبقات النحاة لابن قاضي شهبة – جـ٢ ص٧٣، والنجوم الزاهرة ٢٢٥/٥.

(٣) طبقات ابن الجزري ٣٧٤/١ – ٣٧٥.

(٤) معجم السلفي ورقة ١٠٧.

(٥) المصدر نفسه ١٠٧.

(٦) طبقات ابن الجزري ١/ ٣٧٤ – ٣٧٥ وتوجد مخطوطة من كتاب التجريد بدار الكتب المصرية رقم ٦١٠ قراءات.

والواقع أن ابن الفحام الصقلي قد حظي بشهرة كبيرة حتى قال عنه أحد الرواة: "ما رأيت أعلم بالقراءات ووجوهها منه. لا بالمغرب ولا بالمشرق، وإنه ليحفظ القراءات كما نحن نحفظ القرآن"[1].

وظل ابن الفحام ينشر علمه بمصر حتى توفي سنة ٥١٦هـ وقد جاوز التسعين ونيف عليها[2].

ومن أشهر القراء الذين تتلمذوا على ابن الفحام وتصدروا حلقات الإقراء بمصر، عثمان بن علي بن عمر السرقوسي الصقلي قال عنه القفطي[3]: "كان عالماً نحوياً لغوياً مقرئاً، قرأ القرآن على ابن الفحام وابن بليمة، وغيرهما وله تواليف في القراءات والنحو والعروض، وكانت له في جامع مصر حلقة للإقراء وانتفع به الناس ونقلوا كلامه، وكتبوا تصانيفه، وتنافس فيها أهل العلم، ولقيه الحافظ السلفي بمصر، وشاركه في السماع على بن صادق وابن بركات والفراء الموصلي. ومن مصنفاته التي شاهدتها (الحاشية) على كتاب (الإيضاح) وهي في غاية الجودة، ومختصر عمدة ابن رشيق، وشاهدت هذا المختصر بحلب بخطه عند ابن القيسراني وقد زاد فيه أبواباً أخل بها ابن رشيق، وهي واقعة موقعها من التصنيف، وله شعر".

المدرسة اللغوية :

حظيت العلوم اللغوية باهتمام الصقليين، وكان من الطبيعي أن يحدث هذا الاهتمام في بلد لم يكن عربي الأصل، ومن ثم أصبح أهله محتاجين إلى من يضبط كلامهم ويثقف ألسنتهم، وكان هذا — في حد ذاته — سبباً من الأسباب التي حفزت الصقليين إلى الاهتمام باللغة العربية، ولكن جهود الصقليين لم تتوقف عند هذا الحد ولم تقنع بمجرد البحث عن وسائل للمحافظة على سلامة

---

(١) معجم السلفي ورقة ١٠٧.
(٢) تعرفة القراء الكبار على الطبقات والأعمار للذهبي المكتبة الصقلية ص٦٩ – ٧٠ من الملاحق.
(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاه ٣٤٢/٢ وما بعدها .

اللغة، بل أبت هذه الهمم الوثابة والنفوس الطامحة إلا أن تعمل حيث كانت، فرحل الراحلون فى طلب اللغة ومفرداتها وغريبها، وظهر الحفاظ واللغويون الكبار بصقلية، وما كان يرجى من أهل هذا البلد النائى أكثر من أن تكون العربية لغة كتابة وتدوين على قدر المكنة والضرورة[1].

وأكبر الظن أن الدراسات اللغوية بدأت فى الجزيرة بعد مضى أكثر من قرن من الفتح، أى فى الفترة التى نشطت فيها الدراسات فى مجال الفقه والحديث والقراءات والتصوف[2].

ويبدو أن الصقليين عكفوا أول الأمر على كتب المشارقة فاهتموا بدراستها وشرحها واختصارها، وأسهم فى هذا النشاط بعض اللغويين الذين هاجروا إلى صقلية على شاكلة موسى بن أصبغ المرادى القرطبى. كان بصيرا باللغة والإعراب شاعرا محسناً، خرج إلى المشرق ودخل العراق ولقى ابن دريد وغيره واستوطن صقلية ونظم (المبتدأ) فى ثمانية آلاف بيت[3]. كما هاجر إليها أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعى[4] الذى وصف بأنه كان متقدماً فى علم اللغة ومعرفة العويص، وكان أحضر الناس شاهداً وأرواهم لكلمة غريبة[5].

وقد روى بالمشرق عن أبى سعيد السيرافى وأبى على الفارسى وغيرهما، ودخل الأندلس فى أيام هشام بن الحكم وولاية المنصور بن أبى عامر، وكان عالما باللغة والأدب والأخبار سريع الجواب، حسن الشعر، طيب المعاشرة

---

(١) الأستاذ أمين الخولى من مقال له بمجلة المقتطف عدد فبراير ١٩٢٣ بعنوان المدنية العربية فى صقلية من سنة ٢١٣هـ - ٤٨٤هـ ص١٤٢.

(٢) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٦٠.

(٣) بغية الوعاة ص٤٠٠.

(٤)راجع ترجمته فى الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم٥٣٦ ص٢٣٥، وفى وفيات الأعيان لابن خلكان جـ٢ ص ١٨١، وبغية الوعاة للسيوطى ص٢٦٧ - ٢٦٨ وجذوة المقتبس للحميدى ص٢٢٣.

(٥) بغية الوعاة ص٢٦٧ - ٢٦٨.

ممتعاً، فأكرمه المنصور وزاد فى الإحسان إليه، والأفضال عليه .. وجمع له كتاب الفصوص الذى نحى فيه منحى القالى فى أماليه وأثابه عليه خمسة آلاف دينار[1]. ولكنه خرج من الأندلس فى الفتنة وقصد صقلية واستقر بها حتى توفى سنة ٤١٠هـ[2] ويغلب على الظن أنه أسهم مع غيره من المهاجرين فى النشاط اللغوى بصقلية ولكننا لا نملك أية إشارات تدلنا على كيفية هذا الإسهام أو مداه.

غير أن هذه الجهود لم تلبث أن نضجت على يد جماعة من اللغويين الصقليين الذين وضعوا إلى حد كبير أساس ما يمكن أن نسميه مدرسة لغوية صقلية فى القرن الخامس الهجرى على غرار المدرسة الفقهية. وفى هذه المدرسة تخرج أشهر أعلام صقلية أمثال ابن القطاع وأبى العرب الصقلى وابن الخياط الربعى وعمر بن خلف بن مكى الصقلى وغيرهم. ومن ثم كانت مدرسة واضحة المعالم لأننا نعرف أصحابها بأعيانهم وببعض آثارهم، ونستطيع أن نتصور مبلغ نشاطهم وخطوط اتجاهاتهم وقد ضم ابن رشيق جهوده إلى جهود هذه المدرسة وقوى فيها الناحية الأدبية والنقدية[3].

وامتد تأثير هذه المدرسة إلى خارج صقلية، وبرز من أبنائها علماء كثيرون مثل محمد بن أبى الفرج المالكى الكنانى الصقلى المعروف بالذكى النحوى، كان فاضلاً عارفاً باللغة والأدب وكان آية فى النحو وعلومه[4]. وكان مولده بصقلية سنة ٤٣٧هـ وقرأ الفقه على محمد بن يونس، والنحو على أبى على الحيولى ولم يخرج من صقلية إلا وهو إمام فى الفقه والنحو[5].

---

(١) وفيات الأعيان ١٨١/٢.

(٢) الصلة ص٢٣٥ .

(٣) العرب فى صقلية ص١٠٨.

(٤) أنباه الرواة ٧٣/٣.

(٥) بغية الوعاه ص٩٠.

وقد خرج هذا العالم اللغوى من صقلية متوجهاً إلى العراق ثم خرج منها إلى خراسان، وجال فى أقطارها، وأقام بها مدة، ثم خرج إلى غزنة وبلاد الهند، وانصرف عنها إلى أصبهان وظل بها حتى توفى سنة ٥١٢هـ[1].

وجرت بينه وبين علماء البلاد التى زارها محاورات ومناظرات، وقرئ عليه كتاب (الشهاب) للقضاعى، وكان ينفرد بأشياء من تفسير الأخبار وغيرها، لا يتابعه فيها أحد[2]. ومن الطريف أنه كان يتتبع عثرات الشيوخ، وكانوا يضيقون به بسبب ذلك، فقد حضر مرة إملاء محمد بن منصور السمعانى فأملى المجلس فأخذ عليه الذكى شيئاً وقال: ليس كما يقول بل هو كذا، فقال السمعانى: اكتبوا كما قال فهو أعرف به فغيروا تلك الكلمة وكتبوا كما قال الذكى، وبعد ساعة قال: يا سيدى أنا سهوت والصواب ما أمليت فقال: غيروه واجعلوه كما كان، ففعلوا فلما فرغ من الإملاء وقام الذكى، قال السمعانى: ظن المغربى أنى أنازعه فى الكلام حتى يبسط لسانه فى كما بسطه فى غيرى فسكت حتى عرف الحق ورجع[3].

ومن أبرز أبناء هذه المدرسة الذين حظوا بشهرة واسعة خارج صقلية ابن القطاع الصقلى، فبعد أن قرأ الأدب على فضلائها كابن البر اللغوى وأمثاله، وأجاد فى النحو غاية الإجادة، رحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الفرنج واستقر بمصر، وبالغ أهلها فى إكرامه، وألف هناك تصانيف نافعة، منها كتاب الأفعال الذى أحسن فيه كل إحسان ووصف بأنه أجود من الأفعال لابن القوطية كما ألف كتاب أبنية الأسماء الذى جمع فأوعى، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه[4].

---

(١) أنباه الرواة على أنباه النحاة ٧٣/٣.
(٢) أنباه الرواة ٧٣/٣.
(٣) بغية الوعاة ص٩٠.
(٤) وفيات الأعيان ١١/٣ وما بعدها.

وكان من أشهر شيوخ هذه المدرسة أربعة علماءهم:

١- عمر بن حسن النحوى الصقلى وكنيته أبو حفص. قال عنه القفطى[1]:

"شيخ فى اللغة والنحو، طويل الباع فيهما، أخذا ورويا عنه، وتصدر للإفادة ببلرم".

وظل أبو حفص ينشر علمه فى صقلية ولم يغادرها حتى بعد أن انتثر عقدها، ولكنه أسر من قبل النورمان لأسباب لا نعرفها تماماً وإن كان يغلب على الظن أنه اشترك مع أبناء وطنه فى مقاومة الاحتلال النورمانى فأسر فى الحرب:

٢- يوسف بن الدباغ النحوى الصقلى وكنيته أبو يعقوب. قال عنه السيوطى:

"كان حافظاً لكتب المتقدمين، متنبهاً لأسرار المؤلفين، تقدم فى زمانه، وله مع ذلك شعر صالح أكثره فى مسائل النحو، ومنة قوله[2]:

إن هند المليحة الحسناء ... وأى من أضمرت لخل وفاء

فعسى أن يكون يحسن من قد ... كان من قبل ذاك أساء

٣- ابن البر اللغوى:

وهو شيخ هذه المدرسة غير مدافع، اسمه محمد بن على الحسن بن على التميمى الغوثى يكنى أبا بكر ويعرف بابن البر، ولد بصقلية وتلقى علومه الأولى بها ثم رحل عنها فى طلب العلم إلى المشرق[3]. وهناك درس على كثير من العلماء أمثال أبى يعقوب يوسف بن يعقوب النجيرمى، وأبى القاسم المالينى ومحمد بن عبدوس من أصحاب أبى منصور الثعالبى، وأبى سهل محمد بن المروزى من أصحاب أبى محمد الهروى[4]. وعرج فى رحلته على مصر وفيها

(١) أنباه الرواة ٣٢٨/٢.

(٢) بغية الوعاة ص٤٢٢.

(٣) أنباه الرواه ١٩٠/٣.

(٤) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار ص٣٦٧.

سمع شعر أبى الطيب المتنبى من أبى على صالح بن رشيدين سنة ٤١٣هـ ولقى القاضى أبا محمد عبدالوهاب بن على[1] ثم عاد إلى صقلية سنة ٤١٥هـ بعد أن نال إجازات العلماء، وتزود بقدر كبير من العلم، وقد أشار التجيبى إلى علاقته بابن البر فقال[2]: "كان أبو بكر محمد بن على بن الحسن التميمى الغوثى عقد لى على نفسه بمصر سنة ٤١٥هـ أنه يسافر معى فى بعض المراكب من الإسكندرية إلى المغرب وفارقته على ذلك وانحدرت إلى مدينة الإسكندرية واتفق له بعد مفارقتى أن صحب فتياناً من أهل القيروان فألفهم وآثر صحبتهم وسهل عليه حل ذلك العقد وقدر أن أقلعنا من الإسكندرية فى يوم واحد بريح طيبة شرقية وتغيرت من بعد فدخلنا مرسى يعرف بمرسى الشقراء، أرست السفينة التى هو بها قريباً من سفينتنا فنظرت نحوها فرأيته وهو يشير إلى بالسلام فرددت عليه إشارة وحركنى صنيعه فصنعت بديهاً أبياتاً أنفذتها إليه، والتقينا بعد الوصول بمدينة المهدية فقضى كل واحد منا من حق صاحبه ما انبغى له أن يقضيه".

واستقر ابن البر فى مازر، وذاع صيته فى الآفاق، واتصل بابن منكود صاحب مدينة مازر؛ فقربه وأدناه، وأكرم محله وأجل مثواه[3].

وأقبل عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب، وأصبح اسمه علما على هذه المدرسة حتى عد شيخها غير مدافع، وأصبحت تعرف بمدرسة ابن البر اللغوى، وشهد له بالفضل غير واحد، فقال عنه ابن الأبار[4]، "وكان أحد الأئمة فى علم العربية واللغات والآداب، ويجمع إلى ذلك جودة الضبط وحسن الخط وكل ما وجد له من تقييد ففى غاية الإفادة والإمتاع".

---

(١) المصدر نفسه ص٦٣٧.
(٢) شرح المختار من شعر بشار ص٢٥٣ – ٢٥٤.
(٣) إنباه الرواه ١٩٠/٣.
(٤) التكملة لكتاب الصلة ص٣٦٧.

ومن العلماء الذين درسوا عليه ونالوا إجازته أبو القاسم عبد الرحمن بن عمر القصديرى وأبو محمد عبدالله بن إبراهيم الصيرفى وأبو الطيب عبدالمنعم القروى المعروف بابن الكماد وابن القطاع وأبو العرب الصقلى الشاعر وغيرهم[1] وكان أبو العرب الصقلى آخر من حدث عنه[2].

ورحل إليه لطلب العلم من خارج صقلية طلاب كثيرون نذكر منهم على سبيل المثال أبا الحسن على بن عبدالجبار بن سلامه[3]، ويذكر السلفى أنه كان إماماً فى اللغة حافظا لها حتى إنه لو قيل: لم يكن فى زمانه ألغى منه لما استبعد، وقد رأى ابن البر فى مدينة مازر ورغب فى أن يقرأ عليه لما اشتهر من فضله وتبحره فى اللغة[4]. ولكن المقام لم يطب لابن البر فى مازر، فقد بلغ ابن منكود صاحب مازر عن ابن البر أنه يشرب الخمر سرا. فعز عليه ذلك وسير إليه: إننا إنما أردناك لعلمك ودينك وأردنا منك الصيانة، وإذا كان ولابد من شرب الخمر فهذا النوع ببلرم كثير، وربما يعز وجوده هاهنا، فخجل من قوله وارتحل إلى بلرم وأقام بها للإفادة، كان موجودا بها إلى سنة ٤٥٠هـ"[5].

وظل ابن البر ينشر علمه فى بلرم حتى بدأت قلاع صقلية تتساقط أمام غزو النورمان فهاجر إلى الأندلس سنة ٤٦٠هـ وظل هناك إلى أن وافته المنية ويذكر القفطى أن ابن القطاع كان ممن أخذ عنه وأكثر، ويقول إن كتاب (الصحاح) بمصر لا يروى إلا من طريق ابن البر هذا[6]. ويبدو أن ابن البر كان يعجب كثيراً بكتاب الصحاح، فقد روى عنه ابن القطاع قوله: "ما صنف فى اللغة كتاب مثل كتاب الصحاح للجوهرى"[7].

---

(١) المصدر نفسه ص٣٦٧ – ٣٦٧.
(٢) المصدر نفسه ص٣٦٨.
(٣) راجع ترجمته فى بغية الوعاه للسيوطى ص٣٤٠، وأنباه الرواه جـ٢ ص٢٩٢، معجم السلفى لوحة ٨٧.
(٤) معجم السلفى ورقة ٨٧.
(٥) إنباه الرواه ٣/ ١٩٠.
(٦) إنباه الرواه ٣/ ١٩٠.
(٧) معجم السلفى ورقة ٣٥١.

ابن مكي وكتابه تثقيف اللسان :

هو أبو حفص عمر بن خلف بن مكي الصقلي أفاض في وصفه المؤرخون وكتاب التراجم، فوصفه القفطي بأنه "فقيه محدث لغوى عالم بالعربية، مصنف فى اللغة"[1]. ولقبه السيوطي بالإمام اللغوى المحدث"[2]. ولقبه النووى بالإمام[3]، وقال عنه العماد الأصفهاني[4]. "وهو فقيه محدث خطيب لغوى، وفضله بالألسنة في جميع الأمكنة مأثور مروى، وله خطب لا تقصر عن خطب ابن نباته، وتعجب رواته". ويحتقط له العماد فى (الخريدة) ببعض المقطوعات الشعرية وتدور كلها حول الوعظ والزهد والقناعة[5].

ولد ابن مكى فى صقلية، وتلقى علومه بها، وتخرج فى مدرسة ابن البر اللغوى، وكان أهم شيوخه، ولكن الذين ترجموا لابن البر لم يذكروا أن ابن مكى من تلامذته على ما بينهما من صلة علمية قوية، إلا أن ابن مكى أشار إلى هذه الصلة في غير موضع من كتابه (تثقيف اللسان) الذى سنتناوله بعد قليل، فقال في مقدمة كتابه: "وعرضت جميع ذلك على الإمام الأوحد والعلم المفرد، أبى بكر محمد بن على بن الحسن بن البر التميمى — أيده الله — فأثبت جميع ما عرفه وارتضاه، ومحوت ما أنكره وأباه، لأزول عن مواقف الاستهداف، وأريح نفسى من عهدة التغليط، وأقطع لسان كل حاسد، وأفل غرب كل مكابر ومعاند"[6].

ويدل هذا دلالة واضحة على وجود صلة عملية قوية بين ابن البر وابن مكى وتظهر هذه الصلة بشكل أوضح في مواضع كثيرة من الكتاب حيث ينقل

---

(١) إنباه الرواة ٢/ ٣٢٩.

(٢) بغية الوعاة ص٣٦١.

(٣) تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٩٨.

(٤) خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني – الجزء الأول – القسم الرابع – ص١٢٦ – تحقيق عمر الدسوقي وعلى عبدالعظيم – ط. دار نهضة مصر للطبع والنشر – الفجالة – مصر.

(٥) المصدر نفسه ص١٢٦.

(٦) تثقيف اللسان لابن مكي ص٤٧.

ابن مكى كثيراً عن آراء أستاذه ابن البر، ويذكره بقوله: قال الشيخ أبو بكر[1]، أنشدنا الشيخ أبو بكر[2] .. إلخ.

وفـي الكـتاب مـا يدل كذلك على أن ابن مكى درس على علماء آخرين بخلاف ابن البر مثل الفقيه عبد الحق الصقلى، وقد أورد له بعض الأمثلة التى تـدل على آرائه فى الأحكام والفتاوى، ويذكر روايته بقوله: (ذكر لنا الشيخ أبو محمـد عـبدالحق) وقـال لنا الشيخ أبو محمد عبدالحق[3]، كما درس أيضاً على ابـن رشـيق – الذى هاجر إلى صقلية – وأخذ برأيه فى روايات أبيات للمتنبى وجميل وكثير وغيرهم، وهو يذكر ابن رشيق بقوله: هكذا قال لى أبو على حسن بن رشيق وقال لى حسن بن رشيق[4].

وبعد أن تخرج ابن مكى فى مدرسة ابن البر وجه اهتمامه إلى الدراسات اللغـوية وضم جهوده إلى جهود زملائه فى هذا المجال، وتوج جهوده بتصنيف كتابه (تثقيف اللسان وتلقيح الجنان).

ونـرجح أنـه ألفه قبيل عام ٤٦٠هـ، وهو العام الذى رحل فيه ابن البر عـن صـقلية، لأن ابـن مكـى – كما أسلفنا – عرض مادة كتابه على ابن البر، ويرجع د. عبد العزيز مطر أنه ألف – على وجه التحديد – بعد سنة ٤٥٦هـ، وهـى الـسنة التـى توفى فيها ابن رشيق – على الأرجح – وذلك لأن ابن مكى يذكر بقوله: رحمه الله[5].

والسبب الذى دعا ابن مكى إلى تأليف كتابه يقترن بحياة اللغة العربية فـى صـقلية بـل لعلـه يقـترن بحياة اللغة العربية بصفة عامة، فمن المعروف أن اللحـن قـد تـسرب إلى هـذه اللغـة بعد دخول الأعاجم فى الإسلام، واستوجب

(١) المصدر نفسه ص٥٤.
(٢) المصدر نفسه ص٢٧٤.
(٣) تثقيف اللسان ص٢٤٧.
(٤) المصدر نفسه ص٢٧٧.
(٥) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة – د. عبدالعزيز مطر ص١٣٦.

الحرص عليها أن يعمل العلماء على تنقيتها وضبطها، فسارع فريق منهم إلى تأليف الكتب فى هذا الموضوع الخطير، دفعا لوقوعه، وتنبيها على ما وقع كى يتحرز من روايته مصحفا، ومن جملة تلك المؤلفات، لحن العامة لأبى الحسن على بن حمزة الكسائى، و(التنبيه على حدوث التصحيف) لحمزة بن الحسن الأصبهانى المتوفى سنة ٣٦٠هـ وشرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف لأبى أحمد العسكرى المتوفى سنة ٣٨٢هـ وغيرها. ؤيجيء كتاب ابن مكى ليصبح حلقة فى هذه السلسلة الطويلة من كتب التصحيف.

ويبدو أن اللغة العربية فى صقلية أصيبت باللحن بعد دخول الإسلام إليها بزمن قصير، وربما يكون ذلك أمراً طبيعياً لدخول عدد كبير من الصقليين فى الإسلام، وقد تنبه ابن حوقل إلى هذه الظاهرة فى زيارته صقلية، ولحظ أن اللحن يشيع على ألسنة عدد كبير من الناس وهم لا يأبهون لذلك فقال[1]: "ولقد رأيت ولدا كان لإسحاق بن الماجلى المعلم القاصى يخطبهم نحو حولين يجزم الأسماء مع الصلة ويجر الأفعال من أول خطبته إلى آخرها، وخاطبت أديباً كان من أهلها يسمى ويدعى الدراية بجميع الأحوال، وقد نصب هذا الخطيب مالم يسم فاعله أو رفع منصوباً، وأظنه كان مفعولاً به فقلت: أما سمعت هذا الخطيب وما كان منه؟ وذكرته له وقد ذهب عنى اللفظ فقال: كأنه والله يا سيدى كما تقول غير أنا نحن لا نأبه لمثل هذا".

وكان من نتائج هذا التساهل أو الإهمال أن فشا اللحن فى لغة الصقليين بصورة خطيرة وصفها ابن مكى فى عصره بقوله[2]: "فلما تمت الحجة ووضحت المحجة، هجم الفساد على اللسان، وخالطت الإساءة الإحسان، ودخلت لغة العرب، فلم تزل كل يوم تنهدم أركانها، وتموت فرسانها، حتى استبيح

---

(١) صورة الأرض ص١٢١.
(٢) تثقيف اللسان ص٤١.

حريمها وهجن صميمها، وعفت آثارها، وطفئت أنوارها، وصار كثير من الناس يخطئون وهم يحسبون أنهم مصيبون، وكثير من العامة يصيبون وهم لا يشعرون، فربما سخر المخطئ من المصيب، وعنده أنه قد ظفر بأوفر نصيب، وتساوى الناس فى الخطأ واللحن إلا قليلاً، وإنما يتميز أولئك القليل — على ما بهم من تقصير — عند المباحثة والمكاتبة وقراءة الكتب ومواضع التحقيق. فأما عند المخاطبة والمحاورة فلا يستطيعون مخالفة ما تداوله الجمهور واستعمله الجم الغفير".

ويتضح من كلام ابن مكى أن اللغة العربية فى صقلية كانت تعانى من مشكلة "الازدواج" أو "الثنائية" حيث كانت تختلف اللغة المنطوقة عن اللغة المكتوبة وهى المشكلة ذاتها التى تعانى منها اللغة العربية فى أيامنا هذه.

وقد أدى هذا التفاوت فى استعمال اللغة إلى نتائج خطيرة، "فلم يزل الغلط ينتشر فى الناس ويستطير، حتى وقع بهم فى تصحيف المشهور من حديث النبى ﷺ ، واللحن فى الواضح المتداول منه، وتعمد الوقف فى مواضع لا يجوز الوقف عليها، من كتاب الله عز وجل، وتغيير أشعار العرب وتصحيفها، وتصنيف كتب الفقه وغيرها ملحونة، تقرأ كذلك فلا يؤبه إلى لحنها، ولا يفطن إلى غلطها، بل إذا سمعوا الصواب أنكروه ونافروه لطول ما ألفوا فقده، وركبوا ضده"[(1)].

ويسوق ابن مكى بعض الأمثلة التى تدل على انتشار اللحن فى لغة أهل صقلية، ونلاحظ أن هذه الأمثلة كلها من أخطاء خاصة الناس وليس عامتهم. يقول ابن مكى[(2)]: "ولقد وقفت على كتاب بخط رجل من خاصة الناس وأفاضلهم فيه: "وأحب أن تشتهد لى فى كذا وكذا "بالشين يزيد

---

(1) تثقيف اللسان ص٤١ – ٤٢.

(2) المصدر نفسه ص٤٢ – ٤٣.

(تجتهد). ورأيت بخط آخر أكبر منه وأعلى منزلة بيت شعر على ظهر كتاب، وهو قول الشاعر:

زوامِلُ للأصفار لا علمَ عندهم   بجيِّدها إلا كعلمِ الأباعرِ

كتبه "للأصفار" بالصاد. وأكثر الرواية فيه (للأشعار).

وكتب إلى آخر من أهل العلم رقعة فيه: قد عزمت على الإيتيان إليك بزيادة ياء. وشهدت يوماً رجلاً قبله تخصص وفقه وحفظ الأخبار، والأشعار وقد سمع كلاما فيه ذكر الشدق، فلما سمعه بالدال — غير معجمة — أنكره وتعجب من أن يجوز ذلك، وليس يجوز سواه، ثم سألني، ورغب إلى أن أجمع له مما يصحف الناس فى ألفاظهم، وما يغلط فيه أهل الفقه، ما قدرت على جمعه، فأجبته إلى ما سأل".

ويدل هذا الكلام على أن الغرض الأساسى من تأليف الكتاب هو التصحيف ومعالجة أخطاء الفقهاء ولكن ابن مكى رأى أن ذلك ليس كافيا — فى ذاته لإصلاح ما فسد فى أمر اللغة فى بيئته، فأضاف إلى ذلك غيره من الأغاليط التى سمعها من الناس على اختلاف طبقاتهم، مما لا يوجد فى كتب المتقدمين التنبيه على أكثره لأن كل من ألف كتاباً فى هذا المعنى، فإنما نبه فيه على غلط أهل عصره وبلده وأهل البلدان مختلفون فى أغاليطهم، فربما يصيب هؤلاء فيما يغلط فيه أولئك وربما يصيب أولئك فيما يغلط فيه هؤلاء، وربما اتفقوا فى الغلط[1].

وفيما ذكره ابن مكى ما يدل بوضوح على أهمية كتابه، فلو كان قد اقتصر فيه على تناول ظاهرة التصحيف بصفة عامة لما أوليناه هذا الاهتمام، ولكنا قد نظرنا إليه على اعتبار أنه ترديد لكلام من ألفوا فى التصحيف قبله، ولكن القيمة الحقيقية لهذا الكتاب تأتى من كونه كتابا متخصصا بلغة أهل

(١) تثقيف اللسان ص٤٢ – ٤٣.

عصرنا، يبحث في موضوع يرتبط ببيئة معينة وليس بكل البيئات، وكان ابن مكي على صواب كبير بل لعله أصاب كبد الحقيقة عندما قال: "إن كل من ألف كتابا في هذا المعنى، فإنما نبه فيه على غلط أهل عصره وبلده، وأهل البلدان مختلفون في أغاليطهم"(1).

وقد سلك ابن مكي مسلكاً علمياً في كتابه، واستطاع أن يطبق فكرة "التخصص البيئي" بشكل واضح، فاستقى مادة كتابه من الأخطاء التي سمعها تتردد على ألسنة أهل بلده، ويرى د. عبدالعزيز مطر أنه قد سلك طريقاً سليماً في الملاحظة المباشرة لما ينطق به أهل بيئته(2)، وتأتي هذه الأخطاء التي جمعها على ثلاثة مستويات، أحدها ما لا يجوز مطلقاً في لسان العرب، والثاني ما يجوز ولكن غيره أفصح منه، والناس لا يعرفون هذا الأفصح، والثالث ما كان مستعملاً وهو غير فصيح ولكنه جائز وأنكر الناس جوازه، ويرى أن إنكار الجائز غلط(3).

ولم يقتصر ابن مكي على مجرد حصر الأخطاء ومحاولة تصحيحها بل أضاف إلى ذلك ما تعلق به من الأوزان والأبنية والتصريف، والاشتقاق، وشواهد الشعر، والأمثلة والأخبار(4) ثم أضاف إلى ذلك أبواباً مستطرفة، ونتفا مستملحة وأصولاً يقاس عليها ليكون الكتاب تثقيفاً للسان، وتلقيحاً للجنان، ولينشط إلى قراءته العالم والجاهل، ويشترك في مطالعته الحالي والعاطل(5).

وعلى هذا النحو فقد أراد ابن مكي لكتابه أن يكون "تثقيفاً للسان" بما يضم من تصحيح للأخطاء اللغوية التي شاعت بين العامة والخاصة في صقلية

---

(1) تثقيف اللسان ص43.

(2) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص134.

(3) تثقيف اللسان ص44 – 45.

(4) تثقيف اللسان ص45.

(5) المصدر نفسه ص45.

فى القرن الخامس الهجرى، وأن يكون "تلقيحاً للجنان" بما تضمنه من شرح لما يجرى على الألسنة من أمثال سائرة، ومن تفسير طائفة من أبيات الشعر ظاهر لفظها مخالف لمعناها، إلى غير ذلك من الموضوعات التى اشتمل عليها الكتاب[1].

وقسم ابن مكى كتابه إلى خمسين بابا تحدث فيها عن التصحيف والتبديل والتأنيث والتذكير والتصغير .. إلخ. وخصص أبواباً تحدث فيها عن غلط قراء القرآن وغلط أهل الحديث، وأهل الفقه، وأهل الوثائق، وأهل الطب وأهل السماع. [2].

وقد أودع ابن مكى فى كتابه خلاصة آرائه اللغوية وهى تدل بحق على اتساع ثقافته اللغوية، كما أودع فيه آراء بعض العلماء الصقليين مما يزيد من أهمية الكتاب، وفى رأيى أن الكتاب ما يزال جديراً بدراسة لغوية موضوعية تكشف لنا كثيراً من حياة اللغة العربية فى صقلية مما لايزال غامضاً حتى الآن.

وتتردد طريقة ابن مكى فى عرض مادته بين الإيجاز والإطناب، وإن كان يميل أكثر إلى الإيجاز، فهو فى حالات كثيرة يقتصر على ذكر الخطأ والصواب، مع حرصه غالباً على ضبط العبارة. وهو يذكر الخطأ بقوله: ويقولون، ويصححه بقوله: "والصواب" وفى حالات أخرى كثيرة يتبع اللفظ الصواب شاهداً أو أكثر من القرآن أو الحديث أو الشعر، أو الأمثال، أو الأقوال، وقد يسوق بعض الأخبار المتعلقة بما ذكره من تصحيح، وقد تقتضى طبيعة المادة أن يطنب فيها كالباب الذى عقده لما يجرى فى ألفاظ الناس ولا يعرفون تأويله، فهو يشرح اللفظ واشتقاقه وموضع استعماله، ويشرح المثل ويفصل مورده[3].

---

(١) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٣٩.

(٢) تثقيف اللسان ص٤٥ – ٤٧ .

(٣) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٣٩.

ويميل ابن مكي في أسلوبه إلى السجع وإن كان لا يطغى على الكتاب، كما نلاحظ تواضعه الجم في مواطن كثيرة من كتابه.

ومن دراستنا لكتاب ابن مكي نخرج بنتيجة هامة، وهي أن صقلية كانت تنفرد بلهجة معينة تختلف عن لهجة المشارقة ولهجة الأندلسيين، ويرى د. عبدالعزيز مطر أن هذه اللهجة كانت تتميز بخصائص معينة في الأصوات، وفي الصيغ، وفي دلالة الألفاظ[١].

ففي الناحية الصوتية نلحظ أنهم كانوا يخلطون بين الضاد والظاء في النطق، كما يحدث في بعض اللهجات العربية الحديثة. وقد نص على ذلك ابن مكي بقوله[٢]: "حتى لا تكاد ترى أحداً ينطق بضاد ولا يميزها من ظاء، وإنما يوقع كل واحدة منها موقعها، ويخرجها مخرجها الحاذق الثاقب إذا كتب أو قرأ القرآن لا غير، فأما العامة وأكثر الخاصة فلا يفرقون بينهما في كتاب ولا قرآن".

ومن مميزات هذه اللهجة أنهم كانوا ينطقون بالجيم الشديدة المجهورة التي تشبه الجيم القاهرية الآن، ولعل النطق بهذه الجيم جعل عامتهم وخاصتهم يختلفون في كتابة اسم البلد الصقلي (جرجنت). فالخاصة يكتبونها بالجيم والعامة يكتبونها بالكاف.

كما كانوا ينطقون بالباء المهموسة في بعض الكلمات المُعَرَّبة، مثل: بليذ والبلاذة، وتميزت لهجتهم كذلك بترقيق الأصوات، فكانوا يقولون (منتقة) بدلاً من (منطقة) و(سراحا) بدلاً من (صراحا)، كما كانوا يتخلصون من الهمز بالحذف أو الإبدال، فيقولون: مليت الإناء، وخبيت الشيء بدلاً من ملأته وخبأته، ويقولون (فقعت عينه) بدلاً من فقأت"[٣].

---

(١) المرجع السابق ص١٤٨.

(٢) تثقيف اللسان ص٩١.

(٣) المصدر نفسه ص٧٤ – ٧٦ (باب التبديل).

وكانوا يميلون الفتحة الطويلة نحو الكسرة الطويلة كما في قولهم: خبيز وحميض ونيب بدلاً من خباز وحماض وناب[1]. ولا تزال هذه الكلمات تنطق ممالة في اللهجات العربية المعاصرة[2].

أما في الصيغ، فكانوا يحركون الاسم الساكن الوسط، بالفتح، فيقولون: السمن، والبقل، والضرع، والبحر، والبغل .. إلخ[3].

وكان المبني للمجهول من الثلاثي الأجوف يصاغ عندهم - كأهل الأندلس - على وزن أفعل، فيقولون: أبيع الثوب، وأزيد في ثمنه، والصواب بيع وزيد[4].

كما كانوا يضمون الميم من اسم الآلة الذي على وزن مفعال، فيقولون: مفتاح ومصباح، ومسمار، ومسواك[5].

وكانت لهم في التصغير قواعد خاصة كأن يصغروا الثلاثي المذكر بتشديد ياء التصغير مثلا وما شابه ذلك مما ذكره ابن مكي في باب غلطهم في التصغير[6].

أما في التأنيث فقد سلكت لغة العامة مسلكا موحداً في التذكير والتأنيث بالنسبة للكلمات الواردة في اللغة بالوجهين، وكانوا يلحقون الكلمات المؤنثة، التي وردت في اللغة خالية من التاء، يلحقونها التاء، فيقولون: عروسة وعجوزة .. إلخ[7].

---

(١) نفسه ص٢٩.

(٢) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٥٥.

(٣) تثقيف اللسان ص١١٥ باب (ما جاء ساكنا فحركوه).

(٤) تثقيف اللسان ص١٥٣ (باب ما غيروه من الأفعال بالزيادة).

(٥) المصدر نفسه ص٣٢٤.

(٦) نفسه ص١٨٣.

(٧) تثقيف اللسان ص١٧٤ وما بعدها. وأنظر لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٥٩.

وفي دلالة الألفاظ تطورت عندهم معانى كثير من الكلمات، فخصص العام، أو عمم الخاص، أو تغير مجال الاستعمال[1].

ولابن مكى آراء واضحة محددة، ويتبين لنا من دراسته فى هذا الكتاب أنه يميل إلى التوسع فى قبول ما نطقت به العامة، وكان جارياً على لهجة عربية معروفة، ويتبين هذا المسلك بوضوح فى الباب الذى عقده لما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر، كما يدل عليه باب (ما جاء فيه لغتان استعمل العامة أفصحهما) وباب (ما جاء فيه لغتان فتركوها واستعملوا ثالثة لا تجوز)، ومفهوم هذا كله إجازة ما جاءت به لهجة من اللهجات المعرفة، وأوضح هذه الأبواب دلالة على مسلك ابن مكى فى التوسع فى قبول كثير مما أنكره غيره، هو باب (ما تنكره الخاصة على العامة وليس بمنكر) [2].

والواقع أن كتاب ابن مكى يعد من الأهمية اللغوية بمكان، وكما يقول د. إحسان عباس، "فليس لدينا ما هو أصدق من هذا الكتاب تعبيراً عن الشعور باستقلال صقلية فى طابعها اللغوى فى كل ما خلفه الصقليون وربما التزمنا هذا الثناء لأنه رمز لوعى قومى فى نفس مؤلفه، ودليل على معاناته تجربة الرصد والتحرى والإصغاء لما يقرأ ويسمع، وربما استحق صاحبه تقديرنا لخضوعه للإشراف العلمى الصحيح، وأخذه بتوجيه أستاذه"[3].

وقد لقى كتاب ابن مكى تقدير كثير من العلماء، فوصفه القفطى بأنه "فى نهاية الملاحة والبيان، يدل على وفور حظه من هذا الشأن"[4].

ووصفه السيوطى بأنه "دال على غزارة علمه وكثرة حفظه"[5]. وألف ابن هشام اللخمى كتابا سماه "المدخل إلى تقويم السان" علق فيه على كتابى

---

(١) المصدر نفسه ص١٩٧ وما بعدها باب (ما وضعوه فى غير موضعه) وما جاء لشيئين أو لأشياء فقصروه على واحد) و(ما جاء لواحد فأدخلوا معه غيره) وانظر لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية ص١٦٠ - ١٦١.

(٢) لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٤٣.

(٣) العرب فى صقلية ص١١١.

(٤) إنباه الرواه ٣٢٩.

(٥) بغية الوعاة ص٣٦١.

تثقيف اللسان لابن مكي، ولحن العامة للزبيدي[1]. وقد نقل ابن هشام كثيراً مما جاء في كتاب ابن مكي. ومما يدل على ثقة ابن هشام في ابن مكي أنه استشهد بما جاء في (تثقيف اللسان) أثناء رده على الزبيدي[2].

وقد ترك كتاب ابن مكي آثاراً عميقة فيمن جاءوا وبعده، ومن الكتب التي تأثرت به ونقلت عنه كتاب (تصحيح التصحيف وتحرير التحريف) للصفدي (ت ٧٦٤هـ)، كما نقل عنه ابن دحية الكلبي (ت ٦٦٣هـ) وذلك في كتابه (المطرب من أشعار أهل المغرب) ونقل عنه يحيى النووي (ت ٦٧٦هـ) في كتابه (تهذيب الأسماء واللغات)، والعماد الحنبلي في كتابه (شذارات الذهب)[3] وغيرهم.

العلوم العقلية والطبيعية :

قبل أن نتعرف على حال العلوم الفلسفية في صقلية نبادر فنقول إن موقف هذه العلوم في كل من المغرب والأندلس كان ضعيفاً، ويحاول أحد الباحثين أن يعزو أسباب هذا الضعف إلى استمرار الثورات والفتن في هذين الإقليمين مما جعل المجتمع لا يتمتع بفترة كافية من الاستقرار الذى لابد منه للنهوض والتقدم الحضارى والفكرى ويرى أن من هذه الأسباب كذلك انصراف المسئولين ورجال الدولة في المغرب إلى تنمية القوة العسكرية للمحافظة على مراكزهم أكثر من انصرافهم إلى الاعتناء بالثقافة والفكر[4].

وهذه الأسباب التي يرددها الباحث لا يمكن أن تؤدى إلى انكماش الثقافة العلمية والفلسفية وحدها دون غيرها من الثقافات كما يزعم هذا الباحث ولو كانت هذه الأسباب صحيحة في ذاتها لما أمكن أن تحرز العلوم الأخرى

---

(١) أنظر حولية كلية البنات – جامعة عين شمس – العدد السابع – ١٩٧٣ ص٨٥ وما بعدها.
(٢) لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة ص١٦٥.
(٣) المرجع السابق ١٦٥.
(٤) عصر القيروان ص٣٦.

كاللغـة والفقه ما أحرزته من تقدم وازدهار، بل ولما أمكن أن ينمو الشعر ويزدهر في هذه الأقاليم على هذا النحو الذى نعرفه.

والواقـع أن هـناك أسـباباً أخـرى أدت إلى تأخـر الفلـسفة فى الأندلس والمغـرب، لعل أهمها موقف الحكام المتشدد ضد تيار الفلسفة، ومحاربة الفقهاء ورجـال الدين لها، لأنهم كانوا يعتقدون بأنها تفسد عقائد الناس، وتزرع الشك فـى نفوسـهم، ولذلك فقد ظلت الفلسفة — لفترة طويلة — تُعد من ألوان النشاط الفكـرى المحـرمة، وكـان المـشتغلون بهـا يـتهمون بالزندقة ويعاقبون بالقتل أو النفـى خـارج الـبلاد، وفى ذلك يقول المقرى فى نفح الطيب[1]: "إن كل العلوم لهـا حـظ عـند الأندلـسيين واعتـناء إلا الفلـسفة والتنجـيم، فإن لهما حظا عند خواصهم، ولا يتظاهرون بها خوف العامة، فإنه كلما قيل — فلان يقرأ الفلسفة أو يـشتغل بالتنجـيم أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه فإن زل فـى شـبهة رجمـوه بالحجـارة أو أحرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان أو يقـتله الـسلطان تقـرباً لقلـوب العامة، وكثيراً ما كان يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت".

وإذا كانت تلك هى نظرة الأندلسيين والمغاربة إلى الفلسفة، فلا شك أن صـقلية قـد تأثـرت بـتلك النظـرة، وقـد وضـح هـذا التأثر فى عدم الإقبال على الفلـسفة ولكـن نظـرة الـصقليين إلى الفلـسفة لم تصل إلى حد الغلو على نحو ما رأيـنا فـى الأندلس، والدليل على ذلك أنها لم تغلق أبوابها فى وجه من هاجر إلـيها من فلاسفة الأندلس الذين طردوا منها، وخير شاهد على ذلك هجرة أبى عـثمان سعيد بن فتحون السرقسطى إليها، فقد امتحن من قبل المنصور بن أبى عامـر فـسجن ثـم أطلق سراحه فهاجر إلى صقلية واستقر بها إلى أن وافته المنية سنة ٤١٠هـ وقد وصف ابن فتحون بأنه كان متمكناً من علوم اللسان، وألف فى

---

(١) نفح الطيب ١/ ١٣٦.

العـروض مختصراً ومطولاً، وله حظ من علوم الفلاسفة[1]، وله رسالة فى المدخل إلى علـوم الفلـسفة سماهـا (شـجرة الحكمـة)، ورسـالة فى تعديل العلوم وكيف درجـت إلى الوجـود من انقسام الجوهر والعرض، ويبدو أنه كان من أساتذة ابن الكتانى مؤلف كتاب (التشبيهات من أشعار أهل الأندلس)[2].

ولا نكـاد نظفـر بشىء من المعلومات عن فلاسفة من صقلية فيما عدا ما يذكـره القفطـى مـن أن فيلسوفاً صقلياً اسمه غراب كان من أهل جزيرة صقلية، وكـان عنـى مـن الفلسفة بصناعة الخطابة المنتجة للإقناع، وقام بها إلى أن مهر فيها وتقدم على أهل زمانه وسار إليه الطلبة لاستفادة ذلك منه[3].

ويحـتفظ لـه القفطـى بقصة طريفة يقول فيها: وكان من جملة قاصديه فتـى مـن يونان يقال لـه تيسناس، ورغب إليه فى تعلم الخطابة وضمن له عن ذلـك مـالاً معيناً فأجاب برغبته وعلمه، فلما لقنها حاول الغدر به ورام فسخ ما وافقـه علـيه فقـال لـه: يـا معلـم حـد لى الخطابة، فحد بأنها مفيدة للإقناع، فتمَسك بالحـد وبنـى علـيه قياسـا، وقال: إننى أناظرك الآن فى الأجرة، فإن أقنعتك بأنى لا أدفعها إليك لم أدفعها، إذ قد أقنعتك بذلك، وإن لم أقدر على إقـناعك فلـست أعطـيك شيئاً لأنى لم أتعلم من الخطابة التى هى مفيدة الإقناع فأجابـه المعلـم وقـال : أنا أيضاً أناظرك، فإن أقنعتك بأنه يجب لى حقى منك أخذته أخذ من أقنع وإن لم أقنعك فيجب أيضاً أخذه منك إذ قد أنشأت تلميذاً يـستظهر علـى معلمـه، فقـال لـه بعض من حضر: بيض ردى لغراب ردى أى تلميذ نكد ومعلم نكد"[4].

---

(1) بغية الوعاة ص٢٥٦.

(2) التشبيهات من أشعار أهل الأندلس ص٣٢٣.

(3) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٦٨.

(4) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٦٨.

وهـذه القصة واضحة الدلالة على أنه كان للخطابة شأن غير قليل فى صقلية وإن كانت المصادر قد بخلت علينا بما يمكن أن يزيد الصورة وضوحاً.

أمـا العلـوم الطبيعية، فمن المؤكد أنها لم تكن مفقودة بالمرة فى صقلية، وتشير المصادر إلى أسماء بعض من كانوا يزاولون مهنة الطب أو الهندسة أو التنجيم ومن هؤلاء محمد بن عيسى بن عبدالمنعم من أهل صقلية، وكان من أصحاب العلم بعلمى الهندسة والنجوم، ماهر فيهما، قيم بهما، مذكور بين الحكماء هناك بأحكامهما[1]. وذكر صاحب الخريدة أنه كاتب شاعر ماهر مهندس منجم[2] ومنهم أبو عبدالله محمد بن الحسن بن القرنى ذكر أنه منجم حاسب كاتب[3] وأبو حفص عمر بن الحسن بن العونى ذكر أنه لغوى شاعر كاتب منجم مهندس[4].

ونلاحظ أن أولئك جميعاً لم يتخصصوا فى علم بعينه، وإنما كانوا يشتغلون بأكثر من علم فى وقت واحد. وكذلك كان الحال فى الطب أيضاً؛ فقد اطلع المازرى على علم الطب، وكان يفرغ إليه فى الفتيا فى الطب كما يفرغ إليه فى الفتيا فى الفقه[5]. واشتهر أبو عبدالله بن الطوبى بأنه كان طبيباً مترسلاً شاعراً[6]، وذكر ابن القطاع أنه أربى فى الطب على ماسويه[7]. كما جمع ابن المعلم الصقلى (المتوفى سنة ٥٣٢هـ) بين إجادة النحو والطب وتعبير الرؤيا ويبدو أنه برع فى الأخيرة براعة كبيرة، وقد احتفظ له السلفى بتفسير

(١) المصدر نفسه ص١٨٩.
(٢) خريدة القصر وجريدة العصر ٣٧/١/٤.
(٣) المصدر نفسه ١٠٩/١/٤.
(٤) نفسه ١٢٠/١/٤.
(٥) المختصر فى الفقه لخليل بن إسحاق، المكتبة الصقلية ص٦٧ – ٦٨.
(٦) الخريدة ٥٦/١/٤.
(٧) إنباه الرواه ٣/ ١٠٧.

طريف لأحد المنامات فقال: "قلت لابن المعلم الصقلى: رأيت فى المنام كأنى أطعم والدتى حلواء ثم ألصق أصابعى فلا أجد لها الحلاوة الصادقة، فقال:

هو خير يصل منك إليها وهو المخصوص به، فقلت: صدقت، فإنى بعد صلاة المغرب أصلى ركعتين أقرأ فى كل ركعة الفاتحة وسورة الإخلاص ست مرات، والمعوذتين مرة، وأهب ثوابها لوالدتى. فقال: هو ذاك"[1].

ولعل أشهر أطباء صقلية هو أبو عبدالله الصقلى الذى كان يتكلم باليونانية ويعرف أشخاص العقاقير والأدوية[2]، وقد هاجر هذا الطبيب إلى قرطبة فى زمان الخليفة عبدالرحمن الناصر، وأسهم مع بعض الأطباء فى ترجمة كتاب العقاقير لديوسقوردس[3]. وهو يعطينا فكرة عن مبلغ ما وصل إليه أزدهار العلوم — ولاسيما الطب — فى صقلية. وفى ذلك يقول أحد الباحثين: أنجبت صقلية كثيراً من العلماء والمثقفين وأصبحت فى عصر ازدهارها المتفق فى الزمان تقريباً مع الازدهار فى المغرب، أصبحت فى عصرها هذا يضرب المثل بمثقفيها جودة وعلماً، فيقال: "فلان تلقى علمه فى صقلية" وما يزال حياً إلى اليوم فى كلامنا العامى ما يؤكد هذه الحقيقة، حيث يقولون "الطبيب الصقلى" تعظيماً للطبيب الماهر وتقديراً لعلو مقدرته، ولا شك أن هذا منحدر من عصر الازدهار الذى وصلت إليه صقلية"[4].

---

(١) معجم السفر ورقة ٣٦١.

(٢) عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وأنظر المكتبة الصقلية ص٦٢٢.

(٣) المصدر السابق ص٦٢٣.

(٤) عصر القيروان ص٣٥ – ٣٦.



الشعــر

الفصل الأول : المؤثرات العامة فى الشعر الصقلى

الفصل الثانى : الطابع العام للشعر الصقلى

الفصل الثالث : موضوعات الشعر التقليدية

الفصل الرابع : السمات الفنية فى الشعر الصقلى

الفصل الأول

المؤثرات العامة فى الشعر الصقلى

- المؤثرات المشرقية
- المؤثرات المغربية
- المؤثرات الأندلسية

المؤثرات المشرقية

أولاً : أسبابها وبواعثها
ثانياً : مظاهرها

١- احتذاء القصيدة القديمة
- المطالع التقليدية
- الجو البدوى
- الصور والتشبيهات القديمة
- احتذاء الشكل

٢- المعارضات

٣- المناظرات



المؤثرات المشرقية

أسبابها وبواعثها :

خضع الشعر الصقلي في بعض مظاهره للمؤثرات المشرقية خضوعاً تاماً وساعد على ذلك عوامل كثيرة لعل أهمها أن الأساس الأول للثقافة والأدب فى المغرب والأندلس هو القرآن وعلوم الدين واللغة والأدب الجاهلى تماماً كما كان الأمر فى المشرق . ثم إن العنصر البشرى الذى كون الأدب فى المشرق كان هو نفسه الذى كونه فى المغرب والأندلس، ونحن نعلم أن الجيوش العربية التى فتحت المغرب والأندلس قد استقرت فيهما، ومالبثت القبائل العربية أن توافدت على المغرب والأندلس وظلت الهجرة أمامها مفتوحة طوال القرون الخمسة الأولى للإسلام، وكان فى طليعة الوافدين من قبائل عدنان وربيعة وغطفان وتميم وكنانة وقيس وتغلب. وكانت أغلبية العرب الوافدين عدنانيين[1].

فالعناصر الأساسية الأولى التى كونت الثقافة العربية وخاصة الأدب العربى فى المشرق والمغرب كانت واحدة، وهى العنصر الدينى والعنصر البشرى والعنصر السياسى واللغوى، وإذن فلا غرابة فى تشابه وحدة الثقافة والأدب فى المشرق والمغرب، ذلك أن المثال المحتذى قد كان واحداً هنا وهناك، فهو بمثابة الشجرة أصلها واحد فلا يمكن أن تختلف طبيعة ثمارها، وإن اختلفت ألوانها[2].

ومما أسهم فى هذا التشابه أيضاً هجرة عدد كبير من أدباء المشرق إلى صقلية وهجرة كثير من الصقليين إلى المشرق إما لتلقى العلم أو بحثاً عن المجد والشهرة هناك.

---

(١) عصر القيروان ص٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٧ .

ومـن تلـك الأسـباب أيـضاً انتـشار دواوين وأشعار الشعراء المشارقة بين شـعراء صـقلية وإقـبال الـصقليين علـى تلـك الدواوين والأشعار بالحفظ والدرس والتحليل والشرح.

وربمـا أسـهمت الأحـوال الـسياسية فـى صـقلية فـى تقوية هذا التأثير المشرقى فالصراع بين العرب المسلمين وبين الأعاجم النصارى كان شديداً، وكان الـصقليون يـشعرون بـأنهم حمـاة للإسـلام فـى تلك الجزيرة النائية، فكان هذا الموقـف الـسياسى والدينى يدعو إلى التمسك فى بعض المواقف بالتقاليد العربية المـوروثة، والحفـاظ علـى تـراث المـسلمين، ومـن ثـم اسـتقر فى نفوس الشعراء الاحتفاظ بتقاليد الشعر الموروثة، وحرصوا على أن يظل شعرهم موصولاً بماضيه.

يـضاف إلى هـذا مـا لاحظـه د. أحمـد هـيكل وهو بصدد دراسته للشعر الأندلـسى من أن العرب كانوا ينتقلون إلى أى إقليم جديد، وفى مخيلاتهم عالم مـثالى، هـو ذلك العالم الذى عاش فيه آباؤهم الأقدمون، حيث الصحراء والبوق والـبان والكثـبان، والجـآذر والآرام، إلى آخـر هذه الخطوط والألوان التى تؤلف لـوحة الـبادية، عـالم العـرب المثالى الأسطورى، وكان أبناء العرب يعتقدون أن خـير أدب هـو مـا كـتب آباؤهم فى عالمهم ذاك المثالى الأسطورى، وأن قصارى الأديب بعد ذلك أن يأتى بما يشبه نتاج هؤلاء الرواد الأوائل[1].

والحـق أن الـشعر المـشرقى قـد حظـى بجاذبـية غـريبة فـى البيـئات الـثلاث: المغـرب والأندلس وصقلية، فوقع الشعراء فى أسر المشرق، وداروا فى فلـك آدابـه حتـى لـنجد ناقـداً مـثل ابـن بـسام يضيق بهذه الظاهرة فيقول:[2] "إن أهـل هـذا الأفـق أبوا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجـوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طن بأقصى الشام

---

(1) الأدب الأندلسى، د. أحمد هيكل ص٩٨.
(2) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ١/١ ص٢.

والعراق ذباب، لجثوا على هذا صنما، وتلوا ذلك كتابا محكماً، وأخبارهم الباهرة وأشعارهم السائرة مرمى القصية، ومناخ الرذية، لا يعمر بها جنان ولا خلد، ولا يصرف فيها لسان ولا يد، فغاظنى منهم ذلك، وأنفت مما هنالك..".

ولقد وقف الباحثون المحدثون مواقف متباينة إزاء هذه الظاهرة، فالدكتور شوقى ضيف يرى أن انجذاب الشعراء إلى المشرق قد جعلهم يعيشون فى إطار الشعر العباسى العام، معيشة مضطربة ويرى أنه "كان حريا بالشعراء أن ينحوا عن شعرهم كل ما هو عتيق، غير أن التفكير الفنى عند العرب كان قد فقد مقدرته على الابتكار والتجديد"[1].

ويميل غرسيه غومس إلى مثل هذا الرأى، فيتهم الشعر العربى بقلة الصدق والتقليد والجرى على المألوف والمطروق "لأن شاعرهم يجد نفسه – قبل أن يبدأ فى صوغ أبياته – مقيداً بمثل ومواضيع وضعها له السابقون كما وضعوا الأوزان والبحور التى لا يمسها تعديل أو تغيير ولا يتعداها شاعر قط"[2].

ويقف د. جودت الركابى من هذه الظاهرة موقفاً آخر، فيرى أن تراثنا تراث إنسانى واسع، وأن عودتنا إلى آثارنا القديمة: إلى الشعر الجاهلى والأموى والعباسى، إلى هذا الأدب الإنسانى الواسع دليل على رغبتنا فى المحافظة على إنسانيتنا الأدبية، وإذا فهمنا الإنسانية بمعناها الفنى هذا حق لنا أن نقول إن كل أديب عربى سواء أكان شرقياً أم أندلسياً، كان يرمى إلى هذه النزعة الإنسانية فى آثاره ودراساته، وقراراته إذا أراد لإنتاجه ولفنه النجاح[3].

وفى ظنى أن النظر إلى الشعر الصقلى أو الأندلسى على أنه مجرد محاكاة للشعر المشرقى أو صدى خافت له إسراف فى الرأى، فقد كان من الطبيعى أن يكون ارتباط هذين الإقليمين بالمشرق ارتباطاً قوياً، وصقلية – مثلها

(1) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤٣٦ .
(2) الشعر الأندلسى لغرسيه غومس، ترجمة حسين مؤنس ص٤١ .
(3) فى الأدب الأندلسى، د. جودت الركابى ص٦٧ .

مثل الأقاليم الأخرى التى فتحها المسلمون - كانت جزءاً من الدولة الإسلامية، وإذا كان موقعها الجغرافى فرض عليها أن تنفصل مكانياً عنها، فإن ذلك لم يكن يعنى أنها انفصلت عن التراث العربى، بل ظلت الصلة قائمة، والوشائج متصلة. ولا ينسحب هذا على صقلية وحدها ولكنه ينسحب أيضاً على الأقاليم الأخرى التى فتحها المسلمون "فهذه الأقاليم لم تنفصل عن الدولة الإسلامية كما تنفصل الأعضاء عن الجسد بل هى ثمرات ناضجة سقطت من شجرة صحيحة فوزعت بذورها حولها"[1].

وما دمنا نؤمن بأن العناصر الأساسية التى كونت الأدب العربى فى المشرق والمغرب قد كانت واحدة، ومادامت الأقاليم العربية قد اتجهت نحو قبلة واحدة فى الدين والحياة الفنية، فمن الطبيعى أن يكون تأثرها بالمشرق قوياً، وأن يكون ماضيها موصولاً بحاضرها، ومن ثم فمن الخطل فى الرأى أن نتحدث عن تقليد المغرب للمشرق، وأن نرى فى تأثر أحدهما بالآخر مجرد تقليد ومحاكاة.

مظاهر التأثير المشرقى فى الشعر الصقلى:

نبع الشعر الصقلى من بحر الشعر المشرقى فلا غرو أن يتأثر به وأن يحتذيه وقد اتخذ هذا التأثر أشكالاً وصوراً متعددة، لعل أهمها المحافظة على نمط القصيدة العربية القديمة فى منهجها ومظهرها، فسار الشعراء على الطريقة القديمة فى البدء ببكاء الأطلال من مثل قول ابن حمديس:[2]

قفْ وقوف الحيا بدمنة ربع	ضيعَ الدمع فيه رسمٌ مُضيعْ
دارس لاتزال غير السوافى	تفرق التربَ فيه ثُمت تجمع

ويقف على الأطلال فى قصيدة أخرى يقول فى مطلعها:[3]

---

(1) المعجزة العربية تأليف، ماكسى فانتاجو، ترجمة رمضان لاوند ص٦٢.

(2) ديوان ابن حمديس ص٣٠٥.

(3) نفسه ص٣٠٧.

أيا جزعي بالدار إذ عن لي الجزع — وقاد حمامي من حمائمه السجع

وعاودني فيها رداعي ولم أشم — ترائب عواد يضمخها الردع

وقفت بها والنفس في كل مقلة — تذوب بنار في الضلوع لها لدع

طلول عفت آياتها فكأنما — غرابيبها جزع وأدمانها ودع

ويسلك الفقيه عيسى بن عبد المنعم الصقلي مسلك ابن حمديس في البدء بالوقوف على الأطلال، فيقول: [1]

قف باللوى المنعرج — وناد يا ركب عج

واسأل سليمى أين با — ن ركبها بالمدلج

ووجدت الثورة على المقدمات الطللية أصداء لها في الشعر الصقلي، فرفع لواءها بعض الشعراء محاذاة للشعراء المشارقة على نحو ما نرى عند ابن القطاع إذ يقول: [2]

فلا تنفدن العمر في طلب الصبا — ولا تشقين يوماً بسعدى ولا نعم

ولا تندبن أطلال مية باللوى — ولا تسفحن ماء الشئون على رسم

ويلتزم ابن حمديس بطريقة أبي نواس في البدء بالحديث عن الخمر تاركا وصف الطلول فيقول: [3]

خلعت على بنيات الكروم — محاسن ما خلعن على الرسوم

أخذت بمذهب الحكمي فيها — وكيف أميل عن غرض الحكيم

وما فضل الطلول على شمول — تمج المسك في نفس النسيم

ومن مظاهر التأثير المشرقي أيضاً مجاراة القصيدة العربية في تلك المطالع التقليدية التي يتكئ عليها الشاعر للوصول إلى غرضه المطلوب من مدح أو رثاء أو فخر ومن أمثلتها قول أبي يوسف يعقوب بن علي الزبيدي في مطلع إحدى قصائده[4].

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر ٣١/١/٤.

(٢) نفسه ٥١/١/٤.

(٣) ديوانه ص٤٣٥. والحكمي هو أبو نواس، أي هو على مذهبه في تفضيل وصف الخمر على الطلول.

(٤) عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب ١٣٥/١ ى.

أبيت وجفني من جفائك نائم	وقلت بما قالته فيك اللوائم
وعهدي بذاك الدر غير مثقب	فكيف أجادته بفيك النواظم

ويسير أبو الحسن البلنوبي في الاتجاه نفسه فيفتتح إحدى مدائحه بقوله[1] :

لحظات من شبيهات الدما	صرعتني بين ظلم ولمى
بعد ماقلت تناهت صبوتي	رجعتني مستهاما مغرما
لائمي أقصر فإني كلما	زدت لوما زاد سمعي صمما

ولم تكن تلك المطالع سنة متبعة أو صفة لازمة في جميع القصائد أو عند جميع الشعراء فكثيرا ما كان الشعراء يستغنون عنها حتى في قصائد المدح، فيتناولون موضوعاتهم دون تقديم أو تمهيد.

وكان من مظاهر هذا التأثير أيضاً التفات بعض الشعراء إلى الحياة العربية، والتقاط كثير من صورهم ومعانيهم وتشبيهاتهم من مادتها وعالمها البدوي، فأفاضوا في وصف الصحراء، والناقة، والأثافي، ورددوا كثيراً من الأسماء البدوية. وقد تنبه فون شاك إلى هذه الظاهرة في الشعر الصقلي فقال[2] : "وحين انتقل الشعر العربي إلى صقلية من المشرق لم يتغير إلا تغيرا طفيفاً وبقي دائماً مشرقياً في مظهره، ففي هذه الجزيرة الجميلة نجد العرب يكتبون شعرا عن الصحراء والبدو والإبل بالرغم من أن هذه الأشياء لم تكن موجودة هناك. لقد تكلموا وهم في صقلية عن صنعاء، ولم يتكلموا عن بالرمو، وكتبوا عن الحيرة وغسان كما لو كانتا أجمل بقاع الدنيا".

ونستطيع مما يقوله شاك أن نتصور مدى تغلغل التأثير المشرقي في الشعر الصقلي. والشواهد على ذلك كثيرة، فابن حمديس يصف النوق وصفا

---

(١) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة لأبي إسحاق بن أغلب - نسخة مصورة رقم ٢٢١٦ - تاريخ المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية - ورقة ١٠٧ .

(2) Poesie and Kunst der Araber in Spanien and Sicilien, Vol. 2 – P. 13 – 14 by Schack.

يجعلنا نحس بأننا إزاء شاعر جاهلي يسترفد صوره ومعانيه من بيئته الجاهلية، فمن ذلك قوله[1]:

وداخلات على الظلماء سبسبها	بكل خرق عريق في العلى ندس
كأنها وهي ترمي المقفرات بهم	من الوجيف نبال والهزال قسي
مثل الحواجب لاذت وهي ظامئة	بأعين بالفلا مطموسة درس
لا يحبس الماء إلا في ثمائلها	تيها فتحرس نقطا بالكبود حسي
من كل دامية الأخفاف مرملة	ترتاع من صوت حاد خلفها شرس
مستوحش من كلام الإنس تؤنسه	من جوع من ذئاب المهمه الطلس

ونتوقف أمام صورة أخرى يتحدث فيها ابن حمديس عن النوق أيضاً فيكرر تلك الصور والمعاني والتشبيهات القديمة، فيقول: [2]

ركبت النوى في رحل كل نجيبة	تواصل أسبابي بقطع السباسب
قلاص حناهن الهزال كأنها	حنيات نبع في أكف جوانب
إذا وردت من زرقة الماء أعيناً	وقفن على أرجائها كالحواجب

وفي قصيدة أخرى يصف ابن حمديس الأثافي فيقول[3]:

ومجموعة جمع الثلاث ولم تزد	عليه صوالي النار أوجهها سفع
لبسن حداد الثكل وهي مقيمة	على ميت نار لا يفارقها فجع

ومن الصور البدوية أيضاً قوله يصف الذباب الذى يقع على الإبل[4]:

ومودع في المطايا لسعة حمة	فينزع الروح تعذيباً من الجسد
يغشى السوام مناقيرا فتحسبها	مباضعا مدميات كل مفتصد
يحك من دمها القاني يدا بيد	حك الظريف بحناء بنان يد

وتتردد في الشعر الصقلي أسماء الأماكن العربية القديمة مثل منى والعقيق والحجاز، وأسماء النساء مثل سلمى وسعدى كقول أحد الشعراء[5]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٢٨٥ .
(٢) ديوان ابن حمديس ص٢٩ – ٣٠ .
(٣) ديوانه ص٣٠٧ – ٣٠٨.
(٤) ديوانه ص١٣٤ – ق٨٥ .
(٥) عنوان الأريب ١/ ١٢٧ .

أي طـيف مــن لامعــات الــبروق بــات يــسرى بـين الحمــى والعقـيق

وقول أبى الحسن البلنوبى يصف البرق[1]:

بدا البرق من نحو الحجاز مذكرا بـسلمى وسعدى والتذكـر ينـصب

يلــوح علــى لــون الدجــى فكأنــه ســيوف علــى زرق الثـياب تقلــب

فللـــه بـــرق عـــذب القلـــب لمعـــه أكـــل محـــب بالـــبروق معـــذب

وفـى هـذا الجـو الـبدوى الـذى كـان الـشعر الصقلى يتنفس فيه استمد الـشعراء كـثيراً من تشبيهاتهم من البيئة الصحراوية على الرغم من أنها لم تكن بيئتهم. من ذلك قول ابن حمديس فى المدح[2]:

ويمـتح نفـس القـرن عامـل رمحـه كمـا يمـتح المـاء الرشـاء مـن الجـد

كمـا اسـترفد الـشعراء كـثيراً مـن المعانـى القديمة التى تعاورها الشعراء قـديماً وقـد يغـيرون علـى بعـض المعانـى المعروفة التى ارتبطت بشعراء معينين وانتسبت إليهم فنحن إذا قرأنا هذين البيتين لأبى العرب الصقلى[3]:

كـأن فجـاج الأرض يمـناك إن يـسر بهـا خائـف تجمـع علـيه الأنـاملا

فـأين يفـر المـرء عـنك بجـرمه إذا كـان يطـوى فى يديك المراحلا

نتذكر على الفور بيت النابغة[4]:

فإنـك كالليـل الـذى هـو مدركـى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ويردد ابن القطاع المعنى نفسه فيقول[5]:

أنـت كالمـوت تـدرك الخلـق طـرا مـثل مـا يـدرك الـصباح المـساء

كـيف يـرجو الـذى أخفـت نجـاء مـنك، هـيهات أيـن مـنك الـنجاء

---

(1) المصدر نفسه ١/ ١٢٩.

(2) ديوان ابن حمديس ص١٥١ والجد: البئر القليلة الماء.

(3) مخطوط الذخيرة لابن بسام ١١١/٢/٤.

(4) أنظر ديوان النابغة – ط بيروت ص١١٤ .

(5) خريدة القصر ٥٣/١/٤ .

ويختلف تأثر الشعر الصقلى بالشعر المشرقى سعة وضيقاً تبعاً لأغراض الشعر وموضوعاته ويتفاوت من غرض إلى آخر، فهو فى المديح والرثاء أقرب منه فى شعر الغزل والخمر والطبيعة.

وكان تعدد الأغراض فى القصيدة الواحدة فى كثير من نماذج الشعر الصقلى مظهراً من مظاهر التأثر بالشعر المشرقى ويكفى أن نلقى نظرة سريعة على ديوان ابن حمديس لنرى أن كثيراً من قصائده تشتمل على الغزل والوصف والمديح فى آن واحد، ولعل هذا ما جعل صفة الطول تلازم قصائده فى أغلب الأحيان.

وعلى نحو ما تأثرت القصيدة الصقلية فى مضمونها بالشعر المشرقى، تأثرت به من حيث الشكل أيضاً، فآثر بعض الشعراء الأسلوب القديم الذى يُعنى بجزالة الألفاظ، ومتانة اللغة، وفخامة العبارة.

أما من حيث الموسيقى الشعرية فقد مال بعض الشعراء إلى البحور الطويلة ذات التفاعيل الكثيرة كالبحر الطويل والكامل والبسيط، كما آثروا استعمال القوافى القوية الفخمة.

معارضة الشعراء المشارقة:

وكانت معارضة شعراء صقلية لقصائد المشارقة مظهرا من مظاهر التأثر بالشعر المشرقى فابن حمديس يعارض أمرأ القيس والمعرى وأبا تمام، وأبو البشر البلنوبى يعارض معلقه طرفة بن العبد، وابن الخياط يحتذى الأعشى فى إحدى قصائده. وأصبح شعراء المشارقة يمثلون رافداً هاماً من روافد الثقافة المشرقية التى تأثر بها شعراء صقلية.

وكان لامرئ القيس مكانة عالية عند هؤلاء الشعراء فأقبلوا على لاميته، وأولعوا بتضمينها ومعارضتها مثل ابن حمديس الذى عارضها، فقال فى وصف الزرافة[1]:

---

(١) ديوان ابن حمديس – ص ٣٨٠.

ونوبية في الخلق منها خلائق ... متى ما ترق العين فيها تسهل
إذا ما اسمها ألقاه في السمع ذاكر ... رأى الطرف منه ما عناه بمقول
لها فخذا قرم، وأظلاف قرهب ... وناظرتا رئم، وهامة أيّل

ويمضي ابن حمديس في وصفه فيتتبع الدقائق والجزئيات فيصف طريقة سيرها، ويصف شعرها وأنفها.. إلخ وهو في ذلك كله يحاكي امرأ القيس وينسج على منواله ثم يختمها بهذا البيت[1]:

وكم منشد قول امرىء القيس حولها ... أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

ولم يكتف ابن حمديس بمعارضة الشعراء الجاهليين بل نراه يتجه إلى شعراء العصر العباسي فيعارض بعضهم كأبي العلاء المعري وأبي تمام، وفي ديوانه قصيدة يعارض بها إحدى قصائد المعري يقول في مطلعها[2]:

أجمل على بخل الغواني وإجمال ... تفاءلت باسم لا تصح به الفال

ويطرق ابن حمديس في قصيدته هذه أغراضاً متعددة، فيصف الليل ثم يتغزل فيصف المرأة وصفا تقليدياً، ويذكر امرأ القيس فيقول[3]:

وفيك على الرواض إدلال صعبة ... ينال بها عز امرئ القيس إذلال
ويقسم للتقبيل فوك مصدقا ... بأن التي تحوي القسيمة متفال

ثم ينتقل إلى وصف إحدى المغنيات، وتذكره هذه المغنية بصقلية فيعبر عن حنينه إليها ولكنه لا يلبث أن ينتقل فجأة إلى وصف الذئب ويفتخر بنفسه ثم يعود فيصف الناقة ثم يذكر أبا العلاء المعري الذي يعارضه في هذه القصيدة فيقول[4]:

وأركب إذ لا أرض إلا غطا مط ... مطية ماء سبحها فيه إرقال
حمامة أيك مالها فوق غصنها ... غناء له عند المعري إعوال[5]

---

(١) نفسه – ص٣٨٢ .
(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٥٤.
(٣) نفسه ص٣٥٦ .
(٤) نفسه ص٣٥٨ .
(٥) إشارة إلى قول المعري في قصيدته التي يعارضها ابن حمديس:

وفي قصيدة أخرى يعارض ابن حمديس أبا تمام في إحدى قصائده، وتبدأ هذه القصيدة بمقدمة غزلية يقول في مطلعها[1]:

أمسك الصبا أهدت إلى صبا نجد ... وقد ملئت أنفاسه لى بالوجد

ويشير فيها إلى أبى تمام فيقول:

أحب حبيبا نجل أوس لقوله ... فيادمع أنجدني على ساكني نجد[2]

ويظهر في هذه القصيدة تأثره بالقديم ولاسيما في وصف الرحلة وترديد الألفاظ الجاهلية.

ولأبى البشر البلنوبى قصيدة في المدح يبدو فيها تأثره الواضح بمعلقة طرفة بن العبد في وزنها وقافيتها وبعض معانيها. يقول في مطلعها[3]:

سرى طيف من أهوى فهل هو مسعدى ... فأطلبه عنه بإنجاز موعدى

وفيها يقول:

أحس بقلبى كلما رمت ضمة ... لهيب جوى من حبه المتوقد

ولولا بروق الثغر أخفى اجتماعنا ... دجى كحل ما مس جفنا بأثمد

تفرد لم يقصد بكحل وإنما ... ترادف تكرار الحديث المردد

أما ابن الخياط الربعى فله قصيدة يقول في مطلعها[4]:

ليس إلا تنفس الصعداء ... وبكائى وما غناء بكائى

ومن الواضح أنه ناظر فيها إلى قصيدة الأعشى:

ما بكاء الكبير بالأطلال ... وسؤالى، وهل ترد سؤالى

دمنة قفرة تعاورها الصيف (م) ... بريحين من صبا وشمال

فقلت تغنى كيف شئت فإنما ... غناؤك عندى يا حمامة إعوال

(1) ديوان ابن حمديس ص١٤٩.

(2) عجز بيت لأبى تمام حبيب بن أوس وصدره:
"وأنجدتم من بعد اتهام داركم". أنظر ديوان أبى تمام ص١٢٧ – ط. الخياط.

(3) ديوان أبى الحسن الصقلى (ابن أبى البشر البلنوبى) رواية الفقيه الخريمى بمكتبة الاسكوريال رقم ٤٦٧ ومنه صورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية ٣ ظ – ٤ ظ.

(4) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١٠٧.

ويتصل بظاهرة المعارضة فى الشعر الصقلى ظاهرة أخرى هى ترديد أسماء الشعراء المشارقة فى الشعر مثل جميل بثينة وكثير عزة وجرير والفرزدق وغيرهم فمن أمثلة ذلك قول البلنوبى[1]:

بى من هوى الإنس الذين علقتهم ... مالم يكن بكثير وجميل

ويقول الطرابنشى[2]:

أتدرى ما يقول لك العذول ... وتدرى ما يريد بما يقول

يريد بك السلو وهل جميل ... سلوك عن بثينة يا جميل

ويذكر ابن حمديس قيس بن الخطيم فى قوله يصف عقرباً[3]:

لها طعنة لا تستبين لناظر ... ولا يرسل المسبار فيها طبيبها

نسيت بها قيسا وذكرى طعينه ... وقد دق معناها وجلت خطوبها

ويذكر جريراً والفرزدق فى قوله[4]:

كأن الفرزدق فى طيرها ... يجيب على كل شعر جريره

ومدح ابن حمديس شاعراً مغربياً معاصراً، فذكر أنه لا يناظره سوى زهير[5]

فيا فارس الشعر الذى مات قرنه ... بموت زهير فى ارتجال غرائبه

المناظرات :

ووجدت المناظرات التى كانت شائعة فى شعر المشارقة صدى لها فى شعر الصقليين، وصارت من مظاهر تأثر الشعراء الصقليين بالشعراء المشارقة. وقد أشار د. إحسان عباس إلى هذه الظاهرة فقال[6] "وفكرة المناظرة تنخر فى

---

(١) ديوان البلنوبى – نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ظ٤ – ٦.٠.

(٢) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد – الجزء الرابع – مخطوطة رقم ٢٧١٢ – بدار الكتب المصرية – ورقة ٣٥٣.

(٣) ديوانه ص٤٣، وهو يعنى قيس بن الخطيم فى قوله "طعنت ابن عبدالقيس طعنة ثائر".

(٤) ديوانه ص١٨٤.

(٥) نفسه ص٢٧.

(٦) العرب فى صقلية ص٣٠٨.

الشعر الصقلى – فمناظرة بين الشيب والشباب، والسوداء والبيضاء — وكلها تدور فى رأس الشاعر الذى يحاول أن ينتصر للشىء وضده، ويظهر بذلك براعته. وهى لوثة جاءته من المشرق أيضاً".

ومن أمثلتها قول ابن الطوبى يناظر بين الشباب والشيب[1]:

بكى الشباب رجال بئس ما صنعوا	والشيب أفضل فى التحصيل والنظر
إن الشباب كليل ضل مسلكه	والشيب كالصبح يهدى العين للأثر

ويقول فى المعنى نفسه[2]:

بعيشك ما أنكرت من ذى صبابة	تحيل فى رد الصبا فأعاده
هب الشيب فى خدى بياض أديمه	زمان شبابى فى الخضاب سواده

ويقول فى تفضيل السود على البيض[3]:

شبيهات المشيب تعاف نفسى	وأشباه الشبيبة هن حور
سواد العين نور العين منه	وما لبياضها فى العين نور

ومما تقدم يتضح لنا ما سبق أن ذكرناه من أن التأثير المشرقى كان واضحا بيناً فى الشعر الصقلى. ويرى بعض الباحثين أن هذا التأثير قد أضر بالشعر الصقلى ضررا كثيراً. وجنى عليه جناية كبيرة على نحو ما يرى أمبرتو ريزيتانو إذ يقول[4]. "إن ميول الشعراء الصقليين فى تقليد فحول شعراء الإسلام تذكرنا أستاذنا المغفور له أحمد أمين، الذى أراد أن ينوه بالتقليد السائد فى الأدب العربى فكتب مقالة قيمة عن "جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى". وفى وسعنا أن نحذو حذوه فنشير إلى "جناية الشعراء العباسيين على الشعراء الصقليين" لما جاء فى شعر هؤلاء الداحين من معان معروفة مألوفة لم

(١) خريدة القصر ٦٣/١/٤.
(٢) المصدر السابق ص٧١.
(٣) المصدر نفسه ص٨٥.
(٤) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٩١.

تكن تلائم البيئة الصقلية التى عاشوا فيها. بل تلائم البيئة السورية والعراقية التى عاش فيها شعراء بنى أمية وبنى العباس".

أما د. إحسان عباس فرأيه لا يختلف كثيراً عن هذا الرأى إذ يقول[1]:

"فالصبغة العامة للشعر (الصقلى) هى الصورة التى نلمحها فى الشعر العربى حين أصبح نماذج مكررة يسرى عليها التقليد. وتتمشى فيها المبالغة بقدم عنيفة، ويتوارثها الشعراء كأنها ملك عام لهم".

ويسلك فون شاك ذلك المسلك فى النظر إلى الشعر الصقلى فيرى أن المؤثرات المشرقية كبلته بأغلال التقليد وحرمته من التطلع إلى آفاق أخرى جديدة. يقول شاك[2]: "إن الشعر العربى فى الغرب كان نبتة من أرض بعيدة، يتوقع لها أن تستمد أنواعاً جديدة من التغذية، حيث زرعت فى التربة الجديدة، ولكنها تغيرت قليلاً فى شكلها فى هذا المناخ الغريب، ولم تتغير شيئاً فى أصلها .. فكانت الصحراء هى التى تمد الشعراء بالمادة والصور فى قصائدهم، وإذا كان شعراء أوربة الحديثة يفيئون إلى ما تلقوه فى دراستهم من أدب يونانى أو رومانى، فإن الشعراء العرب كانوا يرون مصادر وحيهم فى الحياة البدوية وما فيها من أبطال وشعراء، ومنها استعاروا اصطلاحاتهم وتعابيرهم. فإذا تصوروا "أركاديا" تمثلوا واديا مقفراً بين جبلين من الرمل تقوم فيه أطلال مية .. إلخ. ولعب الجمل والغزال فى قصائدهم دوراً هاماً مع أنهما غير موجودين بصقلية. ولعل صنعاء التى لم تكن خيرا من بلرم فى ازدهار عهدها كانت مثال الحضارة ومحط السعادة فى نظرهم، وأمراء غسان والحيرة يتبدون لخيالهم أعلى ما بلغه العالم من أبهة وجلال".

---

(1) العرب فى صقلية ص٣٠٦.

(2) Schack. Poesie und Kunst der Araber in Spanien und sicilien, vol. 2 P. 8 – 10.
نقلاً عن (العرب فى صقلية) ص٣٠٩ – ٣١٠.

وقد يكون فى هذه الآراء التى ذكرناها قسط من الحق فيما يتصل بقوة تأثير التيار المشرقى فى الشعر الصقلى، ولكننا لا نريد أن نتجنى على هذا الشعر ونزعم أن هذا التأثير قد أفقده شخصيته وألقى به فى أصفاد التقليد، وأزهق فيه روح التجديد، فذلك إسراف لا يرتضيه المنصفون، ومغالاة تتعارض مع واقع الشعر الصقلى نفسه، لأننا لو تعمقنا فى دراسة هذا الشعر لوجدنا أنه لم يخضع للمؤثرات المشرقية خضوعاً تاماً، ولوجدنا أيضاً أن هذا التأثير لم يكن إلا مظهراً من مظاهره، ولم يشكل إلا جانباً واحداً من جوانبه، فقد كان هناك جوانب أخرى ومؤثرات كونت هذا الشعر ووجهته وجهات أخرى ولعل أهم هذه الجوانب هو تأثير البيئة الصقلية ذاتها ومدى نجاح الشعر فى التأثر بها والتعبير عنها وهذا ما ينبغى أن يتفرغ له الباحث فى هذا الشعر، ويرصده بالعناية والدرس ولا يضن عليه بأى جهد علمى.

حقاً إن التأثير المشرقى كان قوياً ولكنه لم يكن من القوة بحيث تلغى فيه الشخصية الصقلية إلغاء أو بحيث يطغى على الجوانب الأخرى فى الشعر الصقلى. وسوف تتضح لنا هذه الحقيقة عندما نصل إلى الفصل الخاص بالطابع العام للشعر الصقلى ونرى بأنفسنا أثر البيئة الصقلية فى هذا الشعر.

وأغلب الظن أن آراء هؤلاء الباحثين قد بنيت قياساً على بعض نصوص الشعر التى يتضح فيها التأثير المشرقى بدليل أن أمبرتو ريزيتانو قد ربط حكمه بما جاء فى شعر المديح ليس غير ولو أنه نظر إلى الشعر الصقلى من زاوية أخرى غير تلك الزاوية لعدل عن رأيه هو ومن لف لفه.

المؤثرات المغربية

ولقد أخطأ بعض الباحثين في تصور حقيقة الصلات الثقافية بين صقلية والقيروان اللتين كانتا تعتبران قطبي الحركة الأدبية في المغرب فنرى الدكتور إحسان عباس — يزعم أن تأثر شعراء صقلية بإفريقية ربما كان يفوق تأثرهم بالمشرق[١]، ويشايعه في هذا الرأي (أمبرتو ريزيتانو) فيرى أن الشعر الصقلي خضع للقواعد عينها التي خضع لها الشعر القيرواني من الألغاز والاستعارات والتلاعب اللفظي[٢]. ويسرف باحث آخر في الرأي فيعتبر صقلية امتداداً ثقافياً لبلاد المغرب[٣].

ونحن لا ننكر أن الصلات كانت قوية بين هذين الإقليمين لامتزاج عناصر السكان، وكثرة الاتصال والانتقال والعلاقات المتشابكة المختلفة بينهما. ولكننا ننفي عن الشعر الصقلي صفة الخضوع للشعر القيرواني وذلك لأمر بسيط، وهو أن هذين الشعرين: الصقلي والقيرواني كانا ينبعان من منبع وهو الشعر المشرقي، فكانا يتشابهان في الخصائص والسمات العامة التي يتميز بها الشعر العربي في مختلف البيئات، وإذا كان ثمة اختلاف بينهما فهو في مدى تأثر كل منها ببيئته فحسب، ولذلك فمن المغالاة أن نزعم أن أحدهما قد تأثر بالآخر أو خضع له.

---

(١) العرب في صقلية ص١٩٠.
(٢) تاريخ الأدب العربي في صقلية ص٨٦.
(٣) عصر القيروان ص٣٤.

وإذا كـان الدكـتور إحسان عباس قد اهتدى إلى بعض الملامح التى تميز الـشعر المغربـى، أو مـا يـسميه "بالمدرسـة الإفـريقية" فمن الخطأ أن نطبق هذه الملامـح علـى الشعر الصقلى، فليس يجوز مثلاً أن نصف هذا الشعر بالمحافظة والتـشدد لأن البيـئة المغـربية كانت تتميز بذلك، ولا يجوز أيضاً أن نجعل هذا الشعر مغربياً لأن شاعراً صقلياً يقول إن الشمس تطلع من المغرب لا من المشرق[1] ثـم إن الـشعر القيروانـى لم يتميـز وحـده بالإسـراف فـى الاسـتعارات والألغاز والـتلاعب اللفظـى، حتـى يمكـن القـول بـأن الشعر الصقلى قد تأثر به، فتلك ظاهـرة عامـة انتشرت فى كثير من البيئات الأدبية فى القرن الخامس الهجرى وفيما تلاه من عصور.

---

(١) العرب فى صقلية ص٣٦١، ٣١٧.

المؤثرات الأندلسية

كانت أسباب التقارب والاتصال بين البيئتين الأندلسية والصقلية متاحة وميسرة، ولكنها لم تؤثر فى الشعر الصقلى ذلك التأثير الذى كان متوقعاً، فقد هاجر بعض شعراء صقلية أمثال ابن حمديس وأبى العرب وغيرهما إلى الأندلس بعد سقوط صقلية، وعاشوا فى أجواء البيئة الأندلسية بما فيها من ترف وبذخ، ولكنهم لم يتفاعلوا مع تلك البيئة الجديدة تفاعلا كاملا، ولم يتأثروا بها تأثراً واضحاً، فظل بعضهم مثل ابن حمديس يعيش فيها بجسده. أما روحه فقد كانت ماتزال تحلق هناك فى وطنه الأم وكأنما أبى عليه ولاؤه لوطنه وإخلاصه له ألا يذوب فى تلك البيئة أو يندمج معها. أما الشعراء الآخرون كأبى العرب الصقلى وغيره فقد اضطرتهم ظروف حياتهم أن يتكسبوا بشعرهم، وأن يشغلوا بالمديح، ولم تسمح لهم تلك الظروف بأن يتأثروا بتلك البيئة تأثراً ملموساً ولذلك فإن غاية ما يمكن أن نلاحظه من تأثر فى شعرهم لا يتعدى بعض المعانى السطحية التى تطفو على قصائدهم فى بعض الأحيان.

وقد لحظ فوق شاك أن الشعر الصقلى يشبه الشعر الأندلسى إلى حد بعيد ويشترك معه فى خصائصه الأساسية[1] وهذا ليس غريباً، فإن بيئتى الأندلس وصقلية كانتا تتشابهان فيما مر بها من أطوار، إذا امتزجتا جميعاً بالحضارتين اليونانية والرومانية ثم بالحضارة العربية فلا غرابة بعد ذلك إذا تشابهت فى شعرهما السمات والملامح، وتقاربت الخصائص والمقومات[2].

(1) Poesie und kunts der Arrbier in Spanien und Sicilien, Vol. 2 – P. 6 by Schack.

(٢) مقدمة كتاب رايات المبرزين ص ٣٤ .

والواقع أنه باستثناء استئثار الأندلس بالموشحات والأزجال، فإن الفارق بين الأدبين الأندلسي والصقلي كان ضئيلاً جداً، فهما يشتركان في الخضوع للمؤثرات المشرقية، كما يشتركان في التعبير عن بيئتيهما ولو نحينا جانبا ذلك الشعر البيئي أو الذى صدر فيه الشعراء عن بيئتهم فإنه يصعب علينا أن نميز بين ما هو صقلي وما هو أندلسي بل وبين ما هو مشرقي، فالتشابه واضح بين، ومهما تجولنا بأبصارنا في ذلك الشعر فلن تقرأ إلا الشيء عينه، ولن نرى إلا صورة واحدة تتكرر هنا وهناك بما فيها من رسوم وألوان وظلال بل وما فيها من إطار عام.

ومع هذا فهناك بعض سمات معينة يتميز بها هذان الأدبان. وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أنهما ينفردان بتلك السمات دون غيرهما، ولكن معناه أنها تظهر فيهما بدرجة ملحوظة، وتكاد تكون قاسما مشتركا بينهما، فمن تلك السمات تميزهما بالناحية الغنائية، وربما كانت تلك السمة أكثر ظهورا في الشعر الأندلسي عنها في الشعر الصقلي. وتبدو هذه السمة بصفة خاصة في قصائد الشعراء الصقليين الذين هاجروا إلى الأندلس وعاشوا فترة من حياتهم فيها.

وكان طبيعياً أن تؤثر تلك الغنائية في موسيقى الشعر وإذا كان الشعر الأندلسي يتسم في أكثره بخفة موسيقاه ورشاقتها. فإن الشعر الصقلي يجاريه أيضاً في هذه السمة التي نلمسها بوضوح في كثير من القصائد من مثل قول ابن الطوبي[1]:

---

(١) عنوان الأريب ١ - ٣٨.

أيـــــا لائمـــــــى مهــــــلا فمــــــا لــــــومك لى عـــــدلا
كمـــــا لا تقــــبل العــــــذر أنــــــا لا أقــــبل العــــدلا

وثمة ظاهرة أخرى يشترك فيها الشعران: الأندلسى والصقلى وهى ميل الشعراء إلى نظم المقطعات القصيرة التى تقتصر على عدد محدود من الأبيات، وتتناول فكرة واحدة أو غرضاً واحداً. وتشيع هذه الظاهرة فى الشعر الصقلى بصورة واضحة ومن أمثلتها هذه المقطوعة الغزلية للفقيه عيسى ابن عبدالمنعم الصقلى، وفيها يقول[1]:

يـــا أملـــح الـــناس وجهـــاً جـــاوزت فـــى الحـــسن حـــدك
للغـــصن مـــنك انعطـــاف يكـــاد يـــشبه قـــدك
قـــد كـــان قلبـــى عـــندى والآن أصـــبح عـــندك
وكـــنت مـــن قـــبل حـــراً فهـــا أنـــا صـــرت عـــبدك

وكما أولع ابن حمديس بمعارضة الشعراء المشارقة واحتذاء بعض قصائدهم نراه يميل أيضاً إلى احتذاء بعض شعراء الأندلس مع أنه لا يقل حظاً فى الشاعرية عنهم، فهو يحتذى ابن هانئ الأندلسى فى قصيدة يقول فى مطلعها[2]:

أ إن بكت ورقاء فى غصن بان تصدعت منك حصاة الجنان

وفى هذه القصيدة يصف ابن حمديس ليلة مظلمة وصفاً مطولاً مستخدماً أداة واحدة من أدوات التشبيه هى (كأنما) ويكررها إحدى عشر مرة تباعاً كما فعل ابن هانئ فى قصيدته. يقول ابن حمديس[3]:

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر ٣٠/١/٤.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٥٠٥.
(٣) نفسه ص٥٠٦.

يـا لـيلة غـنت لعينـي شـج	للدمـع مـا بيـنهما لجـتان
سـوداء تخفـي بـين أحـشائها	مـن فلـق الإصباح طفلا هجـان[1]
كأنمـا قـرط الثـريا لـه	فـي أذنهـا خفـق فـؤاد الجبان
كأنمـا فـوق قـذال الدجـى	لجـام طـرف مالـه مـن عـنان
كأنمـا الإظـلام بحـر طمـا	والشرق والغرب لـه ساحلان .. إلخ

وهكذا يمضى ابن حمديس فى قصيدته فيكرر (كأنما) كثيراً مصوراً الليل والنجوم صوراً متنوعة، فالنجوم تبدو فى المساء كزهرة الأقحوان التى تنير الروض، والشهب التى تغرب فى السماء تشبه شهب الخيول التى تسبق فى رهان إلى آخر هذه الصور والتشبيهات. وهو فى هذه القصيدة ينسج على منوال ابن هانئ ويحتذيه فى قصيدة له يمدح بها جعفر ابن على ويقول فى مطلعها[2] :

أليلتـنا إذ أرسـلت وارداً وحفـا	وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفا

وفيها يحشد ابن هانىء عدداً هائلاً من التشبيهات معتمداً فى ذلك على أداة تشبيه واحدة هى (كأن)، ويصف الليل والنجوم والسماء فيقول[3] :

كـأن رقيب النجم أجـدل مـرقب	يقلب تحت الليل فـى ريشه طرفا
كـأن سـهيلا فـى مطالـع أفقـه	مفـارق إلـف لم يجـد بعـده إلفـا
كـأن بنـى نعـش ونعـشاً مطافـل	بوجرة قد أضللن فى مهمه خشفا
كـأن سـهاها عاشـق بـين عـود	فآونـة يـبدو وآونـة يخفـى
كـأن ظـلام الليل إذ مـال مـيله	صريع مدام بات يشربها صرفا.. إلخ

---

(١) هجان : يغلب عليه البياض.

(٢) أنظر نفح الطيب للمقرى ٦٤/٢.

(٣) نفسه ٢٦٤/٢ وما بعدها.

ومن الواضح أن ابن حمديس قد تأثر بابن هانىء فى هذه القصيدة، ويغلب على الظن أنه أراد بمحاكاته هذه القصيدة أن يحظى بثناء نقاد عصره، كما أثنى النقاد على قصيدة ابن هانىء لما فيها من تشبيهات بارعة خرق فيها المعتاد على حد قول المقرى[1].

وثمة مسألة أخرى تأثر فيها الشعر الصقلى بالشعر الأندلسى، فمن المعروف أن فقهاء الأندلس كانوا يقفون من الفلسفة موقفا عدائياً، فكانوا يكفرون المشتغلين بها، ويحاربونهم، ولذلك كانت السمة الغالبة على الثقافة الأندلسية حينذاك هى الدراسات الدينية واللغوية والأدبية الواسعة، أما الدراسات العقلية فقد تجهموا لها وناوأوها وصرفتهم بيئتهم المنمقة بألوان الجمال عنها، فرأوها عبثاً لا خير فيه، وحاولوا الحجز بين أنصارها وبين التفكير الحر[2]. وقد انعكس هذا الموقف على الشعر الأندلسى فأضعف فيه تيار الشعر الفلسفى فجاء هذا اللون من الشعر باهتا ضعيفاً. وتسللت هذه النظرة إلى الشعر الصقلى فلم يحفل الشعراء بشعر الحكمة أو الفلسفة ولم يتعمقوا فيه بل إن ما نجده من هذا الشعر لا يعدو أن يكون مجرد خطرات متناثرة هنا وهناك يبثها الشعراء فى قصائدهم فى حياء وحذر شديدين.

---

(1) نفح الطيب ٣٤٦/٢.

(2) قصة الأدب فى الأندلس ص١٥٩.

الفصل الثانى

الطابع العام للشعر الصقلى

أولاً : أثر البيئة الصقلية في الشعر

- الجزيرة البحرية وطبيعة الثغر
- شعر الحرب والفروسية
- الطبيعة في الشعر الصقلي



أثر البيئة الصقلية فى الشعر

رأينا فى الفصل السابق مدى تغلغل التأثير المشرقى فى الشعر الصقلى، ولكن هذا التأثير لا ينبغى أن يصرف أذهاننا عن حقيقة الشعر الصقلى نفسه، أو يجعلنا نعتبر هذا الشعر فى جملته محاكاة للشعر المشرقى وتقليداً له على نحو ما يرى بعض الباحثين كالدكتور إحسان عباس، فهو يتهم الشعر الصقلى "بغلبة الصبغة التقليدية عليه فى أدنى صورها حتى إنا قلما نعثر بشعر قد اخترق أسوار التقليد وشق لنفسه طريقاً جديدة، أو طريقاً فيها شىء كثير من الجدة"[1].

ومع تقديرى للدكتور إحسان عباس إلا أننى أخالفه فى هذا الرأى وأحسب أنه أسرف فيما ذهب إليه ، فقد كان من الطبيعى أن يتطور الشعر الصقلى وأن يختلف فى كثير من صوره واتجاهاته عن الشعر القديم الذى كان يستوحى أفكاره ومعانيه وصوره من البادية أو من البيئة العربية القديمة، وذلك لأن الشعراء الصقليين كانوا يعيشون فى بيئة مغايرة للبيئة العربية، وكانوا خاضعين لبعض الظروف والمؤثرات الجديدة، وهذا لا يتناقض مع ما قلناه من قبل من أن عناصر اللغة والدين والثقافة كانت عوامل مشتركة بين الصقليين والمشارقة، ولكن بجانب هذه العوامل كانت هناك عوامل أخرى أحدثت أثراً بارزاً فى الشعر الصقلى، لعل أهمها هو عامل البيئة أو أثر البيئة الصقلية ذاتها. فقد تأثر هذا الشعر بحياة الجهاد التى عاشتها صقلية، كما تأثر بالطبيعة الصقلية الجميلة، واستطاع هذا الشعر من ناحية أخرى أن يمثل لنا مظاهر الحياة فى المجتمع الصقلى بما فيها من تحضر وترف، كما استطاع هذا الشعر أن يصور مأساة صقلية وسقوطها فى يد الأعداء وأثر ذلك فى نفوس

---

(١) العرب فى صقلية ص٣٠٦.

شعرائها أصدق تمثيل. ويمكن أن نحصر هذه الملامح التى تميز الشعر الصقلى فيما يأتى:

الجزيرة البحرية وطبيعة الثغر:

كان لوضع صقلية كجزيرة بحرية أثر بارز فى الشعر الصقلى، يتمثل فى حديث الشعراء عن البحر، كما يتمثل فى جانب هام وهو وصف المعارك البحرية التى دارت بين مسلمى صقلية و الروم، وكان البحر مسرحا لتلك المعارك الضارية. وقد برع ابن حمديس فى هذا اللون من الشعر براعة كبيرة. فمن ذلك قوله يصف معركة بحرية انتصر فيها المسلمون على الروم[1]:

بنو الأصفر اصفرت حذاراً وجوههم	فأيديهم من كل ما طلبوا صفر
تنادوا كأسراب القطا فى بلادهم	وكان لهم من كل قاصية نفر
ولما تناهى جمعهم ركبوا به	قرا زاخر الآذى آفاقه غبر
تولت جنود الله بالريح حربهم	وليس لمخلوق على حربها صبر
فكم من فريق منهم إذ تفرقوا	له غرق فى زخرة الموج أو أسر
وظلت سباع الماء وهى تنوشهم	فلا شلو منهم فى ضريح ولا قبر
فإن سلم الشطر الذى لا سلامة	له من ظبا الهيجا فقد عطب الشطر

وتصور تلك الأبيات قوة بأس المسلمين فى البحر فى ذلك الوقت، وسيادتهم البحرية على شواطىء البحر المتوسط.

وأفاض ابن حمديس فى وصف السفن المقاتلة وتصويرها صوراً مختلفة من مثل قوله[2]:

ومنسوبة للحرب منشأة لها	طوائر بالآساد فى الماء عوم
كأن قسياً فى مواخرها التى	يفوق منها فى القوادم أسهم
وترسل نفطا يركب الماء محرقا	كمهل به تشوى الوجوه جهنم
مدائن تغزو للعلوج مدائنا	فتفتح قسراً بالسيوف وتغنم

(١) ديوان ابن حمديس ص٢٥٣.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٤١٤ وما بعدها.

ويصف تلك السفن وهى تمخر عباب البحر كما لو كانت ثعبانا من ثعابين هذا البحر والريح تدفعها دفعاً قوياً فيقول[1]:

من كل ذى زبد علته سفنه ... يخرجن من جسد بغير فؤاد
ثعبان بحر عضه بنواجد ... خلعت عليه من الحديد، حداد
يبدى غراب منه سقط حمامة ... ببياضه فى البحر جرى سواد
وكأنما الريح التى تجرى به ... روح يحرك منه جسم جماد

واستمد كثير من الشعراء الصقليين بعض صورهم وتشبيهاتهم من البحر، فنرى أحدهم ويدعى أبا القاسم السرقوسى يمزج بين البحر والصحراء، فيشبه البيداء بالبحر، ويشبه الظعن الطافية فوق السراب بالسفن فيقول[2]:

وبيداء قفر ذات آل كأنما ... هو البحر إلا أنه غير آسن
ترى ظعنهم فيها غداة تحملوا ... طوافى فوق الآل مثل السفائن

ويبدو أثر البحر واضحا فى مثل قول ابن حمديس[3]:

وليل رسبنا فى عباب ظلامه ... إلى أن طفا للصبح فى أفقه نجم

ويشبه شاعر آخر يدعى محمد بن الحسين القرنى نفسه فى حالة سقوط العرق على جسمه بغزارة بالغريق الذى يصارع الأمواج خشية الغرق فيقول[4]:

ينضح جسمى على الفراش لما ... بالقلب من لوعة ومن حرق
بعارض يستهل واكفه ... على فراش بالوابل الغدق
كأننى فوقه على رمث ... أسبح فى لجة من العرق
أو كغريق نجا بمهجته ... يكابد الموج خشية الغرق

(١) نفسه ص١٤٦ – ١٤٧.
(٢) خريدة القصر ١٣٨/١/٤.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٦-٤٠.
(٤) المحمدون من الشعراء ص٢٥٨ وما بعدها.

شعر الحرب والفروسية:

والواقع أن صقلية الإسلامية قضت حياتها في جهاد متصل، وكانت أشبه ما تكون بقاعدة للنشاط الحربي، وكان المسلمون في شتى بقاع الأرض يعتبرونها دار جهاد. ونجحت هذه الجزيرة في أن تزود عن حياض الإسلام زمناً طويلاً، وأن تواجه هجمات الأعداء وهي أشد ما تكون منعة وصلابة، ولم يقدر لها أن تستريح من الجهاد يوما ما، فمنذ أن فتحها المسلمون وهم حريصون على التمسك بها، وكانوا يتخذونها قاعدة لمواصلة غزواتهم وتحقيق مزيد من الفتوحات. وكان الروم يدركون مدى ما تسببه لهم هذه لجزيرة من متاعب، فعملوا على ضربها، وشنوا عليها غارات كثيرة، وخاض المسلمون معارك ضارية ضد هؤلاء الأعداء الطامعين، ونظم في هذه الحروب شعر كثير صور حياة الجهاد في صقلية أصدق تمثيل، وبرع ابن حمديس، وغيره من شعراء صقلية في تصوير هذا الجانب الهام من الحياة في صقلية، فوصفوا المعارك الحربية التي خاضها المسلمون ضد الأعداء وأشادوا بشجاعة جند المسلمين وبسالتهم، وصوروا هزائم الروم تصويراً رائعاً، كما صوروا الجواري المسيحيات اللائي غنمهن العرب في هذه الحروب، وبرز لديهم الشعور الوطني في أصدق صوره. فمن ذلك قول ابن حمديس يصف غزوة خرجت من صقلية إلى بلاد الروم، وعادت ظافرة، وكان خروجها في عقب غيث من زمن الشتاء والقر والأرض مجلودة[1]:

ومسبلة دمعاً يسوغ عذوبة ... على أن دمع المقلتين أجاج

مرتها صباها حين درت فأرضعت ... بسائط من أخلاقها وفجاج[2]

تخرق فيها لمع برق كأنما ... يشب ويخبو من سناه سراج

علت خيلنا منها جليداً فلم يتح ... سنا للعدى من عدوهن عجاج

(١) ديوان ابن حمديس ص٧٥، ٧٦.

(٢) مرتها: مسحت عليها لتدر.

بأسد وغى كم قيل عوجوا، نصرتم على الموت من حرب العداة، فعاجوا

فــلا غـــنم إلا كـــل رأس كأنـــه على الرمح مـن ضرب المهندتاج

وخمــــصانة مــــنقادة بـــذوائب لــسائقها خلــف الجــواد لجــاج[1]

كــأن وراء الخـــيل مـــنها جـــآذرا تـــروع أخـــصار لهــــن دمـــاج

فكــان لـنا فــى الـروم قـتل معجـل وفيـنا لهـم بـين الوشـيج شـجاج[2]

وقد أفاض ابن حمديس فى وصف شجاعة الجنود المسلمين وثباتهم فى الجهـاد وكـثيراً مـا كان ما يقارن بينهم وبين أعدائهم، فهم يضحون بأرواحهم فـى سبيل أداء فريضة الجهاد ويبذلون أرواحهم رخيصة فى حومة الوغى حتى إذا ماتـوا ماتـوا أعـزاء بـل إنهـم ليحـشون وسائد من عجاجات الجهاد توضع تحـت مناكـبهم عـندما يدفـنون فى التراب. أما أعداؤهم فقد كانوا جبناء لا هم لهم إلا الانكباب على الملذات والارتماء فى أحضان النساء الكواعب[3]:

إذا ما غزوا فى الروم كان دخولهم بطـون الخلايـا فى متون السلاهب

يموتـون مـوت العز فى حومة الوغى إذا مـات أهـل الجبن بين الكواعب

حشوا مـن عجاجات الجهاد وسائدا تعد لهم فـى الدفن تحت المناكب

ويصف ابن الخياط الربعى جيش المسلمين فيقول[4]:

وجـــيش حلــبة الفرســـان فـــيه ســـراة الــناس والخـــيل العـــراب

أســـود خفـــية فـــى حـــسن خلـــق علـــيها مـــن رمـــاح الخـــط غـــاب

ويصف هزيمة الأعداء وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت واستبد بهم الخوف والذعر والفزع فيقول[5]:

فـى مـثل يـوم الحساب تحسبهم سـكرى وكالـسكر بعـض مـا شـربا

كأنمـــــا أرضــــهم قلــــوبهم فكلـــها قـــد أحـــيل فاضـــطربا

(١) خمصانة: ضامرة الحشا، ويعنى بها السبية من الروم أو الأسيرة.

(٢) الوشيج: الرماح، شجاج: جراح.

(٣) ديوان ابن حمديس ص٣٢.

(٤) شرح المختار من شعر بشار ص٥.

(٥) العرب فى صقلية ص٢١٢.

وكان الشعراء الصقليون يواكبون جيش المسلمين فى فتوحاته وغزواته، وكانوا يسجلون هذه الانتصارات ويشيدون بشجاعة الأمراء والقواد والجنود. وفى مدحهم للأمراء كانوا يثنون على انتصاراتهم وحسن بلائهم فى إعداد الجنود، ونجاحهم فى تحطيم المعاقل والحصون ويصورون هزائم الروم وارتدادهم خاسرين أمام جنود الله. فمن ذلك قول أبى عبدالله الحسين بن أبى على يمدح الأمير ثقة الدولة ويصف غزوة من غزواته[1]:

على العادات فاجر مع الأعادى	وناد يجبك منهم كل ناد
فما لحصونهم منك امتناع	ولو أن البناء بناء عاد
فكم من معقل للعين سام	سلكت إليه منهاج الرشاد
وقد حارت نفوس القوم فيه	إلى أن قام فيهم منك هاد
فأصعدت الخيول إلى الروابى	وأنزلت الوعول إلى الوهاد
وكم أخرجت منها من كمين	ومن عضب ومن طرف جواد
يغل يديه خوفك عن شباه	فيضحى كالموثق فى صفاد

ويصف الشاعر هزيمة الروم فيقول[2]:

لقد أوردتهم بالسيف ماء	به ارتوت الطلى وهم صوادى
كأن رءوسهم كانت نباتا	أبادته سيوفك بالحصاد
وكم أهدى إليك من الدرارى	حسامك حين مر على الهوادى

ويعبر الشاعر عن تطلع المسلمين إلى غزو الروم فى عقر دارهم، وأمانيهم بفتح عاصمتهم ودخول بلادهم فيقول:

وأما رومة فإلى قريب	يصبّحها بداهمة الحداد

ومن يتتبع تلك الأشعار التى نظمت فى حروب أهل صقلية مع الروم يلاحظ أن الشعور الدينى قد امتزج مع الشعور الوطنى فى نفوس الصقليين، فقد كانوا يحسون أنهم يؤدون فريضة الجهاد التى فرضها الله على المسلمين فكانوا

---

(١) عنوان الأريب ١/ ١٣٠.

(٢) المصدر نفسه ١/١٣٠ وما بعدها.

يحاربون من أجل العقيدة ولكنهم كانوا يشعرون أيضاً أنهم يدافعون عن وطنهم الذى يدينون بالولاء له ويحسون بالانتماء إليه. ولذلك فكثيراً ما نلحظ أنهم يصفون أنفسهم ببنى الثغر ويتردد هذا الوصف فى شعر ابن حمديس كثيراً تعبيراً عن الشعور الوطنى، فمن ذلك قوله[1]:

ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم ... إذا عبست حرب لهم تتبسم

ومن حلب الأوداج يغذى فطيمنا ... بحجر من الهيجاء ساعة يفطم

لنا عجز الجيش اللهام وصدره ... بحيث صدور السمر فينا تحطم

يضاعف إن عد الفوارس عدنا ... كأن الشجاع الفرد فينا عرمرم

ويردد تعبير "بنى الثغر" فى قصيدة أخرى فيقول[2]:

ونحن بنى الثغر الذين نفوسهم ... ذكور بأبكار المنايا تعرس

فمن عزمنا هندية الضرب تنتضى ... ومن زندنا نارية البأس تقبس

وكان من أثر استمرار الحرب والجهاد فى صقلية أن ظهر فى الثغر لون يعبر عن روح الفروسية فكان الفرد الصقلى يحرص على تجهيز نفسه بآلات الفروسية والحرب كما كان يحرص دائماً على أن يأخذ للأمر أهبته، فنجد ابن الطوبى يقول مثلاً[3]:

أعددت للدهر إن رابت حوادثه ... عزما يحل عليه كل ماعقدا

وصارما تتخطى العين هزته ... كأنما خاف من حديه فارتعدا

وذابلا توضح العليا ذبالته ... كأنها نجم سعد لاح منفردا[4]

ونثرة ليس للريح المضىء بها ... إلا كما عرضت للنهى فاطردا[5]

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٤١٢ – ٤١٤.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٢٧٩.

(٣) جريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى ٧٦/١/٤ – ٧٧.

(٤) الذابل : الرمح الدقيق.

(٥) النثرة : الدرع السابغة .. المفىء: الراجع – النهى: بفتح النون وكسرها: الغدير والمعنى أن الدرع تشبه الريح التى تمر على سطح الغدير.

وسابحا لا تروغ الأرض أربعة　　كأنه ناقد مالا قد انتقدا[1]

وقد انتقلت روح الفروسية هذه إلى كثير من أغراض الشعر ولاسيما الغزل فكثيرا ما نرى المحب قوياً يزور حبيبته آخر الليل كما يتمثل فى مثل قول ابن حمديس[2]:

قالت وقد عانقتها سحراً　　لم زرتنا فى آخر الليل
فأجبتها وغمرتها قبلاً　　هذا أوان إغارة الخيل

وقد أثرت حياة الحرب والجهاد هذه فى كثير من صور الشعر وتشبيهاته فأخذ الشعراء يرددون ألفاظ القتال والطعن والضرب فى موضوعات الشعر كالغزل والخمر وغيرها على هذا النحو الذى نراه عند ابن حمديس عندما يتحدث عن الخمر فيمزج بينها وبين التعبيرات الحربية مزجاً لطيفاً فيقول[3]:

مالى أكافح قرن كأس جال فى　　ميدان نشوته وجال كفاحا
ومجدل شاكى السلاح من الصبا　　من لم يبق له المشيب سلاحا

ونلتقى بمثل هذه التعبيرات الحربية عند البلنوبى فنجده مثلاً يشبه عينى محبوبته بسيفين ويقول إنها تقتل عاشقيها وتسفك دماءهم[4]:

أمجرد السيفين أغمد واحداً　　والق الكماة بواحد مسلول
أسرفت فى قتل النفوس وأسرها　　فكفاك من دم هالك مطلول

ويصف شاعر آخر الخمر، فيتخيل أن ثمة حربا طاحنة تدور بين جحافلها وجحافل الظلام ويتحدث عن مبارزة لطيفة تدور بين نصل البروق ونصل الراح فيقول[5]:

---

(١) تروغ : تطلب، انتقد الدراهم: قبضها - والمعنى أن له جوادا يكاد يطير فوق الأرض فلا تطلب أرجله الأرض كأنه صير فى قبض ما يريد فلا يطالب به.

(٢) ديوانه ص٣٦٣.

(٣) المصدر السابق ص٨٠.

(٤) ديوان البلنوبى ٤ ظ-٦ و.

(٥) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١١٠.

وليل أتى فى جحفل من ظلامه		فقدت له من أسره اللهو جحفلا
وسل علينا منصلا من بروقه		فسلت له كفى من الراح منصلا

وتتردد مثل هذه التعبيرات الحربية فى غزل ابن حمديس كثيراً، كأن يتصور مثلاً أن ثمة حربا لا تتوقف بين شباب محبوبته ومشيبه ويقابل بين الحرب والسلم مقابله لطيفة فيقول[1]:

من أين أرجو أن أفوز بسلمها		والحرب بين شبابها ومشيبى

ويمزج بين معانى الحب ومعانى الحرب مزجاً طريفاً فيقول[2]:

يا بنى الحرب ما بنو الحب إلا		مثلكم فى لقاء صرف المنون
أنتم بالكفاح صرعى العوالى		وهم بالملاح صرعى العيون
فسيوف القيون، أقطع منها		بين أهل الهوى، سيوف الجفون

وتطرد هذه الظاهرة فى الشعر الصقلى اطراداً قوياً حتى ليتبين لنا عند استقصائها أنها ليست مجرد صور تقليدية يأخذها الشاعر من غيره، فقد تكون كذلك ولكن لا ريب فى أن للحقيقة المستمدة من البيئة أثرها فى تصور الشاعر وتصوره[3].

• • • • •

(١) ديوان ابن حمديس ص٥٨.
(٢) نفسه ص ٤٨٦.
(٣) العرب فى صقلية ص ٣١٣.

الطبيعة فى الشعر الصقلى

اشتهرت صقلية منذ القدم بطبيعتها الساحرة. وقد أفاض المؤرخون والرحالة القدماء من أمثال ابن جبير والإدريسى فى وصف بساتينها الوارفة، وأنهارها الجارية وكثرة ينابيعها، وروعة قصورها وفتنة مبانيها، وسحر مناظرها وقد حبت الطبيعة عاصمتها "بلرم" سحراً خاصاً بهر كل من رآها حتى ليقول عنها ابن جبير[1]: "وهى بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسنيين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يانع أخضر، عتيقة أنيقة، مشرقة مونقة، تتطلع بمرأى فتان، وتتخايل بين ساحات وبسائط كأنها بستان، فسيحة السكك والشوارع، تروق الأبصار بحسن منظرها البارع، عجيبة الشأن، قرطبية البنيان".

وقد جذبت هذه الطبيعة الساحرة أنظار الشعراء الصقليين، فهاموا بها، وأقبلوا عليها فى شغف، يتغزلون بها، ويفتنون فى أوصافها، ويصورون محاسنها ومفاتنها، فوصفوا الرياض والبساتين والأزهار والفواكه والجداول والأنهار والمتنزهات والقصور والفوارات وغيرها من مظاهر طبيعتهم الجميلة.

الرياض والبساتين :

كانت الرياض مسرح حياة الشعراء اللاهية، فكانو يستسلمون فى أحضانها للهوهم وحبهم، ويتخذونها مجالس أنس وسمر ويفيئون إليها ليستريحوا من صخب الحياة وضجيجها، فيمتعون أنظارهم بجمال ورودها وأزاهيرها، ويتنسمون عبيرها الفواح.

وقد رسم الشعراء الصقليون لوحات فنية كثيرة تصف هذه الرياض، وتنطق بما فيها من سحر وجمال، منها تلك اللوحة لأبى الحسن الطوبى[2]:

---

(1) رحلة ابن جبير - المكتبة الصقلية ص٩١.

(2) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٤.

روض يحار الطرف في زهراته ويهيج المشتاق من زهراته
يبدى بأصفره بوادى عاشق ويرى بأحمره لظى زفراته
إنى إذا ذقت المدامة خلتها ريق الحبيب ومجتنى رشفاته
وأرى العروضى البديع إذا شدا يهدى إلى الإنسان روح حياته

ويرسم ابن حمديس لوحة أخرى لروضة غناء تتغنى الطيور على أشجارها، وتتثنى أغصانها فتشبه قدود الغيد الملاح، وتعبق أرجاؤها بعبير فواح يسرى شذاه إلى الرياح فيضمخها طيباً ورائحة، يقول[1]:

يا حبذا ما تبصر العين من أنجم راح فوق أفلاك راح
فى روضة غناء غنت بها فى قضب الأوراق ورق فصاح
لا يعرف الناظر أغصانها إذا تثنت من قدود الملاح
كأن مفتوت عبير بها مطيب منه هبوب الرياح

ويطوف بنا ابن حمديس أيضاً على روضة أخرى تعبق برائحة المسك، ويغدق عليها الحيا من خيراته فتتمايل سكراً كما لو كان ذلك الحيا ينادمها، وتنتشر فى أنحائها مختلف الأشجار التى تعكس ثمارها أشعة الشمس، وتتساقط عليها قطرات الندى التى تشبه حبات اللؤلؤ المنثورة التى لا يجمعها عقد أو حلى، يقول ابن حمديس[2]:

فى روضة نفحتها مسكة تهدى إلينا فى جيوب الرياح
تميس سكرا فكأن الحيا بات يحييها بكاسات راح
كأنما أشجارها مندل إن لدعته جمرة الشمس فاح
كأنما القطر به لؤلؤ لم يجر منه ثقب فى نصاح

ويرسم البلنوبى لوحة فنية جميلة لروضة من تلك الرياض التى كان يتردد عليها مع رفاقه. إنها روضة ناضرة تكتسى بباقات الورود على اختلاف ألوانها، فمن نرجس تتساقط عليه قطرات الندى كما تتساقط دموع العشاق،

---
(1) ديوانه ص٩٠.
(2) ديوانه ص١٠٠.

ومن أقحوان ناصع البياض، تفتّر له المباسم، ومن ورود حمراء تخر أمامها الخدود حياء وخجلا.. إلى آخر هذه الألوان والصور التى تضمها تلك اللوحة. يقول البلنوبى[1]:

وروض حديق كالشباب طرقته ... وللنجم فى أفق السماء ركود
ترقرق فى أحداق نرجسه الندى ... كما استعبر العشاق وهو جليد
وتفتر فيه للأقاحى مباسم ... فتخجل فيه للشقيق خدود
وترتج من فوق الغصون ثمارها ... كما ارتج من باب القدود نهود
يسيل عليها المشرفيات جدول ... له ثغب عذب الرضاب برود
وقامت عوارى النخل من كل جانب ... حواسر فى لباتهن عقود

الأزهار والفواكه :

وكان طبيعياً وسط هذا الجو الساحر أن يلتفت الشعراء إلى الأزهار والورود فيتغنون بأريجها وألوانها الزاهية، وعبقها الفواح، وعطرها الشذى، ويخلعون عليها صفات الحسن والبهاء والجمال.

وقد التفت الشعراء إلى الأزهار على اختلاف ألوانها، فوصفوا النيلوفر، والبنفسج، وشقائق النعمان، والورد، والياسمين وغيرها.

وقد أكثر ابن حمديس من وصف النيلوفر، ووقف أمامه غير مرة، وأحس بأن ثمة ما يربط بينه وبينه، فكان يتصوره من نبت بيئته، وعندما كان يراه فى وطن آخر غير وطنه كان يحس أنه يعانى آلام الغربة ولوعة الفراق مثله سواء بسواء يقول ابن حمديس[2]:

ونيلوفر أوراقه مستديرة ... تفتح فيما بينهن له زهر
كما اعترضت خضر التراس وبينها ... عوامل أرماح أسنتها حمر
هو ابن بلادى كاغترابى اغترابه ... كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر

---

(1) اختيار الصيرفى من الدرة الخطيرة ص ٢٠، ٢١.
(٢) ديوانه ص١٨٥.

ويقف أمام النيلوفر مرة أخرى فيقول[١]:

إشـــرب علـــى بـــركة نيلوفـــر | محمـــرة الـــنوار خـــضراء
كأنمـــا أزهارهـــا أخـــرجت | ألـــسنة الـــنار مـــن المـــاء

وتستوقفه زهرة الشقائق فيشبهها في حالة سقوط المطر عليها بالقيان اللائى يمشطن شعورهن ثم يرقصن في غلائل حمراء، يقول[٢]:

نظرت إلى حسن الرياض، وغيمها | جرى دمعه منهن فى أعين الزهر
فلـــم ترعينـــى بيـــنها كـــشقائق | تبللها الأرواح فـى القضب الخضر
كما مشطت غيد القيان شعورها | وقامت لرقص فى غلائلها الحمر

ويصف الكاتب أبو الفضل دابق النرجس، فيقول[٣]:

كـــف مـــن الفـــضة مبـــسوطة | فـــى وســـطها نثـــر مـــن العـــسجد

ويصف أبو عبدالله بن الطوبى الخشخاش، فيقول[٤]:

حـــق مـــن العـــاج وفـــى وســـطه | رق[٥] مـــن اللؤلـــؤ منـــثور

وعلى نحو ما التفت الشعراء الصقليون إلى الورود والأزهار، التفتوا أيضاً إلى الفواكه والثمار فوصفوا النارنج والرمان والليمون والكمثرى وغيرها من أنواع الفواكه. فالبلنوبى مثلاً يستهويه النارنج فيصفه غير مرة كما فى قوله[٦]:

تـــنعم بـــنارنجك المجتنـــى | فقـــد حـــضر الـــسعد لمـــا حـــضر
فـــيا مـــرحبا بقـــدود الغـــصون | ويـــا مـــرحبا بخـــدود الـــشجر
كـــأن الـــسماء همـــت بالنـــضار | فـــصاغت لهـــا الأرض مـــنه أكـــر

وينظر إلى نارنجة بين الرياض تتمايلها الرياح فتبدو فى اصفرار لونها واخضرار عيدانها مثل ذهب فى صولجان زمرد[٧]:

---

(١) نفسه ص٥.
(٢) ديوان ابن حمديس ص١٩٢.
(٣) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (مخطوط) ٣٤٦/٤.
(٤) خريدة القصر للعماد الأصفهانى ٦٢/١/٤.
(٥) الرق : الرقيق ولعلها مصحفة عن كلمة (عقد).
(٦) اختيار ابن منجب الصيرفى ص٢٠.
(٧) حلبة الكميت ص٢٣١.

ونارنجة بين الرياض نظرتها	على غصن رطب كقامة أغيد
إذا ميلتها الريح مالت بأكرة	بدت ذهبا في صولجان زمرد

أما ابن القطاع فيستهويه الرمان بزهاء ألوانه وجمال شكله فيصفه بقوله[1]:

رمانة مثل هذا العانق الريم[2]	يزهى بلون وشكل غير مسنوم
كأنها حقة من عسجد ملئت	من اليواقيت نثرا غير منظوم

وللقاضي أبي حفص ابن أبي الطيب قصيدة كاملة يصف فيها ليمونة لم يوردها صاحب مختصر الدرة الخطيرة بتمامها ولكنه اكتفى بإيراد هذه الأبيات[3]:

وقلت لها لما رأيت اصفرارها	أبيني لنا من شأنك المتعلل
فقالت ولم تنطق ولكن سقمها	أتى بجواب يكشف الأمر فيصل
عراني فراق من غصون منيفة	فقربني من فيئها المتظلل
فأصبحت في حزن وساورني الضنا	كما أنت في حزن من البين مثكل
فأعجبت منها بالجواب بديهة	وإيضاحها عن غربتي وترحلي
وقلت لها إني بك اليوم باعث	إلى من له محضا ثناي ومقولي

وتوضح هذه الأبيات مدى المشاركة الفعالة بين الشاعر وموضوعه الذى هو جزء من الطبيعة ، فهو لا يهتم بوصف الليمونة وصفا تقريرياً ميتاً كما يفعل كثير من الشعراء ولا يعنى باستجلاب تشبيهات مجردة لا طائل من ورائها غير جمع أجزاء باردة لا حياة فيها، ولكنه يقف من موضوعه موقفا آخر تبدو فيه مقدرته على الإيحاء والتصوير والتشخيص، فهو يتخيل تلك الليمونة إنساناً مريضاً أصابه الهزال، وبدت عليه علامات الاصفرار والشحوب وما ذلك إلا لأنها تقاسي لوعة الفراق بعد انفصالها عن غصونها، وبعد أن حرمت من تفيؤ

(١) خريدة القصر ٥٣/١/٤.

(٢) العانق: الحسن. ونلاحظ أن وجه الشبه هنا ضعيف، ولعل الصواب: (رمانه مثل هذا العانق الرومي) وهو بهذا يشبه الرمانة بوجه فتى رومي أحمر الوجه، أصفر الشعر.

(٣) مختصر الكتاب المتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٦.

ظلها الظليل. ولكننا نرى أن المعنى لا يتوقف عند هذا الحد، ولا يجمد عند هذا التفسير، فما هذه الليمونة الصفراء الحزينة سوى مرآة يرى الشاعر فيها نفسه، وما هذه الأغصان المنيفة سوى أهله الذين فارقهم وأصبح بعيداً عنهم وبمثل هذه الصورة الموحية يعبر الشاعر عن إحساسه بالغربة وحنينه إلى وطنه أصدق تعبير، وبمثل هذه الصورة أيضاً وغيرها من الصور يخرج الشعر الصقلى من ربقة التقرير والجمود إلى آفاق أوسع وأرحب فيها كثير من التخييل والإيحاء.

المتنزهات والفوارات والقصور:

وتغنى الشعراء الصقليون أيضاً بالمتنزهات التى كانوا يترددون عليها للاستمتاع بسحر مناظرها وهدوئها. وتتردد فى أشعارهم بعض أسماء لتلك المتنزهات والأماكن الجميلة مثل (المعسكر) فى بلرم، وهو موضع اشتهر بكثرة عيونه. وتدل الأوصاف التى أسبغها عليه الشعراء أنه كان حافلاً بالأشجار والأزهار. وفيه يقول الحسن بن أحمد الكاتب[1]:

أنظر إلى ورد المعسكر قد كسا	أشجاره نوراً يخيل نارا
جاد الربيع لنا به فكأنما	سلب الخدود وألبس الأشجارا

ويصفه أبو على الحسن بن محمد الأضبطى الكاتب فيقول[2]:

أنا فى المعسكر مفرد فى جحفل	من نوح قمرى ورنة بلبل
فكأنما يلقى على بصوته	نغمات معبد فى الثقيل الأول
وإذا تكاملت المسرة للربى	فأليفه متخلف لم يكمل[3]

ويقول فيه أبو عبدالله الحسن بن أبى على القار[4]:

أرى المعسكر قد صفت مواكبه	فجمعت كل أمحال تحاربه
قضبانها الملد أرماح أسنتها	ثمارها وسواقيها قواضبه

(١) مختصر الكتاب المتخل ورقة ١٠٤.
(٢) المصدر نفسه ورقة ١٠٠.
(٣) فى المخطوط (وأليفه متخلف لم يكمل) ولعل الصواب ما أثبتناه.
(٤) مختصر الكتاب المتخل ورقة ١٠٥.

ومن الأماكن الأخرى التى تتردد فى الشعر الصقلى مكان يسمى (البروج) وفيه يقول أحد الشعراء[1]:

ألا رب يوم لنا بالبروج / بخيل الضياء جواد القطار
كأن الشقيق بها وجنة / بآخرها لمعة من عذار
كأن البنفسج فى لونه اخـ / ـتلاط الظلام بضوء النهار
وسوسنها مثل بيض القباب / بأوساطها عمد من نضار
ترى النرجس الغض فوق الغصون / كمثل المصابيح فوق[2] المنار
وأترجها كحقاق النضار / تصفف أو كثدى الجوارى

ووقف الشعراء أيضاً أمام الفوارات التى كانت تنتشر فى المتنزهات وفى خارجها فافتنوا فى وصفها، وتصوير جمالها فى لوحات جميلة مثل هذه اللوحة لأبى بكر محمد بن سهل، فقد استهوته فوارة ترفع مياهها إلى أعلى فتخيل أن لها ثأرا فى السماء تحاول أن تأخذه كما تخيلها ترد على المزن تلك المياه التى أغدقتها على الأرض مدرار، يقول[3]:

وفوارة ثأرها فى السماء / فليست تقصر عن ثأرها
ترد على المزن ما أسبلت / إلى الأرض من صوب مدرارها

ويرسم مجبر بن عبدالعزيز الصقلى لوحة أخرى لفوارة يستمد السحاب منها، ويتخيل أنها تسقى السماء خوفاً على الجو أن يلتهب بسبب القيظ الشديد الذى يكاد يشعل الجو بنيرانه، يقول[4]:

وفوارة يستمد السحاب / من فضل أخلاقها المحتلب
رأت حمرة القيظ محمرة / لها شرر كرجوم الشهب
فظلت بها الأرض تسقى السماء / خوفاً على الجو أن يلتهب

(١) المصدر السابق ورقة ١٠٦.
(٢) فى المخطوط (مثل المصابيح) والوزن يقتضى ما أثبته.
(٣) خريدة القصر وجريدة العصر ١٠٠/١/٤.
(٤) نفسه – قسم شعراء مصر ٨٩/٢.

ويقف الشاعر عبدالرحمن الأطرابنشى أمام متنزه المعتزية المعروف بقصر الفوارة الذى بناه الأمير جعفر قرب بلرم. وكان هذا القصر يطل على فناء ذى أروقة جليلة وعلى بحيرة تجتمع فيها مياه فوارتين: الكبرى والصغرى، وتنعكس فيها النخيل المغروس على ضفافها، وكان يقال لهذه البحيرة "البحر الحلو" Mare dloca وكانت تبارى بجمالها بحر خليج بالرمو الأزرق[1]. وقد قام روجار — فيما بعد — بتوسيع هذا القصر واتخذه منزهة يتمتع فيها بالحياة الناعمة الرغدة، يستظل تارة بأشجاره، ويتجول طورا على متن فلك مع حريمه فى بحيرته وبحره، وأشجار النخيل تتراءى فى المياه كأنها تنوى مداومة إظلاله برا وبحرا، وأشجار النارنج الخضراء ترسل إليه أشعة حمراء من ثمارها. يقول الأطرابنشى فى وصف هذا المتنزه[2]:

فوارة البحرين جمعت المنى ... عيش يطيب ومنظر يستعظم

قسمت مياهك فى جداول تسعة ... ياحبذا جريانها المتقسم

فى ملتقى بحريك معترك الهوى ... وعلى خليجك للغرام مخيم

لله بحر النخلتين وما حوى ... البحر المشيد به المقام الأعظم

ويحاول الشاعر أن يستكمل رسم لوحته ولكن مناظره تأتى متفرقة، وألوانه تبدو باهتة فنراه يقف أمام صورة أغصان الرياض المائلة إلى البحيرة فيتخيلها ترنو مبتسمة إلى ما بها من أسماك ويقابل مقابلة مفككة بين صورة الحوت الذى يسبح فى مياهها، وبين الطيور التى تترنم بين رياضها ويشبه أشجار النارنج الخضراء التى تنبعث من ثمارها أشعة حمراء بنيران تضرم على قضيب الزبرجد ويشبه صفرة الليمون بصفرة العاشق الذى أضر به النوى فبات متألماً يقول[3]:

---

(١) المسلمون فى صقلية ص٥٢ – ٥٣.

(٢) خريدة القصر ٣٦/١/٤.

(٣) خريدة القصر ٣٦/١/٤.

وكـأن مـاء المفـرغين وصـفوه — در مـذاب والبـسيطة عـندم
وكـأن أغـصان الـرياض تطاولـت — تـرنو إلى سمـك المـياه وتبـسم
والحـوت يـسبح فـي صفاء مـياهها — والطـير بـين رياضـها تـترنم
وكـأن نـارنج الجزيـرة إذزهـا — نـار علـى قـضب الزبـرجد تـضرم
وكأنمـا اللـيمون صـفرة عاشـق — قـد بـات مـن ألم الـنوى يـتألم

ثـم يطـيل الأطرابنـشى الوقـوف أمـام نخلتـى بحرى بلرم لأنهما كانتا مـسرح لهـوه وغـرامه، فـيدعو لهمـا بالـسقيا ودوام الوصال — وهو دعاء غريب حقـا، ولعلـه يعنـى بـذلك نفسه وصـاحبته، وإلا فمـا معنـى أن يدعـو لهاتين النخلـتين بـأن تـنالا كـل الأمانـى؟ وأى أمـان تلـك يمكـن أن تـنالاها نخلـتان جامـدتان لا تحـسان ولا تـشعران بما حولهما إلا أن يكون المقصود بذلك الدعاء الـشاعر نفسه، وحتـى إن كان هذا هو ما يقصده الشاعر حقاً فإنه معنى باهت مهلـهل وكأنى بالشاعر قد فقد القدرة على التخييل والتصوير فاضطربت الريشة فـى يـده واهتـزت فاخـتلت ألـوانه ورسومه ولم يجد ما يستر به ضعفه غير أن يكـيل الدعوات لهاتين النخلتين البائستين وكأنه لا يملك من ألوان الخيال غير هذا الدعاء السقيم.

يقول الشاعر[1]:

يـا نخلتـى بحـرى (بلـرم) سـقيتما — صـوب الحـيا بتواصـل لا يـصرم
هنئـتما أمـد الـزمان، ونلـتما — كـل الأمانـى، والحـوادث نـوم
بـالله فيـنا واسـترا أهـل الهـوى — فـبأمن ظلكمـا الهـوى يتحـرم

ومـن العـبث أن نجهـد أنفسنا فى البحث عن القيمة الفنية أو الصدق العاطفى أو جمال الأسلوب فى هذه الأبيات. وكل ما يسترعى انتباهنا فيها هو تلك الثنائـية التى يلاحظها د. إحسان عباس، والتى تأسر الشاعر أسراً قوياً: فالفـوارة هـى فوارة البحرين أو الخليجين، والبحر بحر النخلتين، والماء يجرى فـى مفرغين والماء يذكر مع البسيطة كالدر على العندم. والحوت فى الماء يقابل

(1) خريدة القصر ٤/١/٣٦ وما بعدها.

الطير فى أعلى الشجر، والنخلتان؟ هذه الثنائية تفسر ذلك الهوى المكبوت، فالشاعر يرى الازدواج فى الطبيعة ويفقده فى حياته[1].

وعلى نحو ما أعجب الشعراء بالمتنزهات والفوارات، أعجبوا أيضاً بالقصور، فوقفوا أمامها، وحاولوا أن يبدوا إعجابهم بعظمتها وجلالها ولكن مقدرتهم على رسم الصورة كانت ضعيفة فى الغالب فاكتفوا بأن يعبروا عن إعجابهم وانبهارهم بتلك القصور دون تخييل عميق أو تصوير رئع. من ذلك قول البثيرى يصف قصراً بناه روجار[2]:

وقصور منصورية ... حط السرور بها المطية
أعجب بمنزلها الذى ... قد أكمل الرحمن زيه
والملعب الزاهى على ... كل المبانى العندسية
ورياضه الأنف التى ... عادت بها الدنيا زهية
وأسود شاذروانه[3] ... تهمى مياها كوثرية
وكسا الربيع ربوعها ... من حسنه حللا بهية
وغدا وكل وجهها ... بمصبغات جوهرية
عطرن أنفاس الصبا ... عند الصبيحة والعشية

فالشاعر كما هو واضح من الأبيات يبدو عاجزاً عن التصوير أو الوصف. وليس أدل على عجزه من أنه لا يستعين بأى لون من ألوان البيان أو البديع لتقريب الصورة وتجميلها، فلا تشبيه ولا استعارة ولاشىء من العاطفة أو الخيال. وغاية ما يقف المرء عنده أن شاعرنا معجب بالقصر ليس غير. إنه يريد أن يصف وأن يصور ولكنه يفقد القدرة على الوصف والتصوير فارتعشت الريشة فى يده وجمدت الألوان عنده ونضب معين الشعر لديه.

(١) العرب فى صقلية ص٢٧٣.

(٢) خريدة ٢٤/١/٤ وما بعدها.

(٣) الشاذروان : ما ترك خارجا عن مستوى جدار البيت ويسمى تأزيراً لأنه مثل الإزار للبيت.

ونستطيع أن نستخرج من هذه الأبيات ما شئنا من مظاهر الضعف والقصور، فما معنى قوله: "حط السرور بها المطية"؟ ثم انظر إلى سذاجة التعبير فى قوله: "إن رياضه عادت بها الدنيا زهية، وأن وجهها مكلل بمصبغات جوهرية"؟

إن هذه القصيدة لم تكتب لتغذية العواطف أو المشاعر، ولا لكى يجد القارىء فيها متعة أدبية، فهى أبعد ما تكون عن ذلك. وإذا كان لها من قيمة فلن تكون قيمة فنية على أية حال ولكن قد يكون لها بعض الأهمية التاريخية، لأنها تعطينا بعض التفاصيل المعمارية لقصر من قصور روجار[1]. قد أفادتنا هذه القصيدة بأن هذا البناء كان يوجد فيه شادروان ذو أسد منحوتة مثل شادروان قصر الحمراء فى أسبانية، وتدلنا أيضاً على أن هذا القصر والأبنية التى تليه كانت تشبه قصور أمراء الأندلس وإفريقيا الشمالية فى خطوطها الهندسية وزخارفها الفسيفسية ونقوشها العربية arabesques وبركها وشادرواناتها وأسدها المرمرية وتم التشابه تلك الرياض الكثيفة الأشجار والبساتين المتلونة الأزهار التى كانت فيها الطبيعة تمد يدها إلى البنائين والنحاتين للتعاون على خلق الجمال[2].

وقد اتصل بهذا الجانب من شعر الطبيعة وصف البرك الصناعية وغير الصناعية التى تحيط بنافورات القصور وما يحيط بها من تماثيل على هيئة سباع أو فيلة تمج الماء على أفواهها. يقول أبو الحسن على بن محمد الصقلى فى تصوير بركة ماء ينعكس فيها ضوء القمر فيبدو فى ارتعاشه مثل قلب عاشق يرتعد[3]:

بـــركة المـــاء تطـــرد	للـــصبا فـــى متـــنها زرد
بـــات فـــى أحـــنائها قمـــر	مـــثل قلـــب الـــصب يـــرتعد

(1) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص١٣٥.

(2) المسلمون فى صقلية تأليف مارتينو ماريو ص٥٤.

(3) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١٠٤.

ويصور ابن حمديس بركة شقها نهر فيقول[1]:

وزرقاء في لون السماء تنبهت	لتحبيكها ريح تهب مع الفجر
يشق حشاها جدول متكفل	بسقي رياض ألبست حلل الزهر
كما طعن المقدام في الحرب دارعا	بعضب فشق الخصر منه إلى الخصر

وقال ابن الخياط الربعي يصف عين ماء جلبت إلى بركة بدار الإمارة، وفيها يشبه الماء حين اجتماعه في الجدول بالسيف، وفي استقراره في البركة — إذ ضربته الريح — بالدرع وأوجز فيه وأحسن كل الإحسان علي حد تعبير التجيبي البرقي صاحب شرح المختار من شعر بشار[2]:

حتى استقرت لديه في قرارتها	ثم استمرت به في مرمر سرب
لها على الجمع والتفريق أمثلة	في الدرع مسرودة والسيف في الشطب

الجداول والأنهار :

وأنعمت الطبيعة على صقلية بالأنهار والجداول الكثيرة، وتغنى الشعراء بهذا الجانب الجميل من الطبيعة، فقال ابن حمديس يصف نهراً جارياً على حصى[3]:

ومطرد الأجزاء يصقل متنه	صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى	عليها شكا أوجاعه بخريره
كأن حبابا ريع تحت حبابه	فأقبل يلقي نفسه في غديره

وعلى هذا النحو فتن الشعراء الصقليون بالطبيعة، وهاموا بها، وامتزجوا معها، ورسموها في لوحات كثيرة، وصور بارعة.

• • • • •

(1) ديوان ابن حمديس ص١٨٧.
(2) شرح المختار من شعر بشار ص٢١٩.
(3) ديوان ابن حمديس ص١٨٦.

ثانياً : المجتمع الصقلى كما يصوره الشعر

- الغناء والموسيقى
- الرقـص
- الخمريـات
- الشعر الاجتماعى
- شعر الزهـد

المجتمع الصقلي كما يصوره الشعر

على الرغم من حياة الجهاد والحروب التى عاشتها صقلية، فإن بعض الصقليين قد أقبلوا على الحياة، فاستمتعوا بالرقص والغناء، وشغفوا بالخمر، وكلفوا بالجوارى والقيان، وترك ذلك كله أثره فى الشعر، فواكب تلك الحياة العابثة وصور هذا الجانب اللاهى من المجتمع أصدق تصوير.

الغناء والموسيقى :

كان للغناء شأن كبير فى صقلية حتى إن أحد ملوك الأندلس استقدم من الجزيرة مغنياً صقلياً افتتن به وهذا على تقدم ذلك الفن فى الأندلس مما يشهد بكبير تقدمه فى صقلية[1].

وقد خصص ابن مكى فى كتابه تثقيف اللسان بابا فى غلط أهل السماع[2]، وهذا فى حد ذاته يدل على ازدهار الغناء هناك. وقد أورد أمثلة كثيرة مما كان يتغنى به الصقليون وإن كان أكثرها لشعراء مشارقة. ومن أمثلتها قول قيس بن الخطيم[3]:

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب ... لعمرة وحشا غير موقف راكب

وقول آخر[4]:

لو عرفت الهوى عذرت ولكن ... هان لما خفى عليك عليك

---

(1) الأستاذ أمين الخولى. من مقال بمجلة المقتطف بعنوان "المدنية العربية فى صقلية" ص١٤٧ - عدد نوفمبر ١٩٢٣.

(2) أنظر : تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكى الصقلى ص٢٧٤.

(3) المصدر نفسه - ص٢٧٤.

(4) تثقيف اللسان ص٢٧٥.

وقول جميل[1]:

راحت بثينة في الخليط الرايح ... فانهل دمعك مثل غرب الماتح

وأمثلة أخرى كثيرة لذى الرمة والبحترى وقيس بن الملوح وابن الرومى وغيرهم.

ولكن هذا لا ينفى أن كثيراً من الشعر الصقلى كان ينظم للغناء بدليل قول ابن حمديس وهو يصف مغنية ويشير إلى أنها كانت تتغنى بشعره[2]:

وتناول نشوة من روضة ... طلعت كالشمس بالنجم عليك

تتغنى بنسيب قلته ... فهواها راجع منك إليك

ويشير البلنوبى إلى بعض ما كان يتغنى به الصقليون فيقول[3]:

فغن لمحزون جفا النوم جفنه ... فليس له حتى الوصال غموض

"شجانى مغانى الحى وانشقت العصا ... وصاح غراب البين: أنت مريض"

ويحتفظ البلنوبى فى قصيدة أخرى باسم مغن صقلى يدعى "القفاص" ويبدو أنه نال حظاً من الشهرة فى صقلية، بدليل إعجاب البلنوبى به، فصوته يشبه السحر، وعزفه يتجاوب مع نغماته فتسكر السامعين بغير خمر. إلى آخر هذه الصفات التى يرددها، يقول[4]:

نبئكم من حالنا كل ما كانا ... فما كان سراً دونكم عاد إعلانا

ظللنا بحكم الراح نغنم لذة ... من العيش صرف الدهر فيها تناسانا

وعارضنا (القفاص)[5] يعرض سحره ... وناهيك بالقفاص خدنا وإحسانا

إذا قارنت أوتاره نغماته ... ظللت-إن لم تشرب الراح-سكرانا

وكان المغنون يستعملون أنواعاً كثيرة من آلات الغناء والطرب، ولعل أكثرها ترددا فى الشعر الصقلى العود والمزمار والطار أو الدف. وكانت هذه

---

(١) المصدر نفسه ص٢٧٨.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٤٣.

(٣) خريدة القصر ١/٤/ص١٠.

(٤) ديوانه، رواية الفقيه الخريمى – نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ورقة ٨.

(٥) اسم المغنى، ولم تجد شيئاً عنه فى المصادر التى اطلعنا عليها.

الآلات تصاحب المغنين والراقصات فى أغانيهم ورقصاتهن. يقول ابن حمديس يصف عوادا يضرب على العود[1]:

وذى دلال كـــأن وجنـــته	مـــن خجـــل بالـــشقيق منتقـــبة
فـــى حجـــره أجـــوف لـــه عـــنق	نـــيطت بظهـــر تخالـــه حدبـــه
يمـــد كفـــا إلـــيه ضـــاربة	أعـــناق أحـــزاننا إذا ضـــربه
تحـــسب لفظـــاً بأخـــتها نغمـــا	ويـــودع المـــسمعين مـــا حـــسبه
قلـــت ألا فانظـــروا إلى عجـــب	جـــاء بـــسحر فأنطـــق الخـــشبة

ويصف نايا أو مزماراً ذا ثقوب يعزف عليه أحد الزامرين فيقول[2]:

وذى حـــنين تحـــن أنفـــسنا	إلـــيه مـــنقادة ومـــنجذبة
يفـــشيه ذو حكمـــة أناملـــه	مـــنغمات بزمـــرة ثقـــبة
يرســل عـــن منخـــريه مـــن فمـــه	ريحـــا لهـــا نغمـــة مـــن القـــصبة
كـــأن ألحانـــه الفـــصيحة مـــن	صـــرير بـــاب الجـــنان مكتـــسبة

ويبدو أن هؤلاء المغنين كانوا كثيرين كثرة مفرطة، حتى أنهم كانوا يتنافسون فيما بينهم. وفى الشعر الصقلى ما يدل على أنهم لم يكونوا يمارسون الغناء فى الحانات ومجالس الأنس فحسب، بل كانوا يدعون إلى الأفراح أيضاً.

ومن الطريف أن بعضهم كان يبدو فى صورة تشبه إلى حد بعيد تلك الصورة التى نحتفظ بها فى أذهاننا لبعض المغنين القدماء فى عصرنا الحاضر الذين كانوا يغشون الأفراح والحفلات ويغنون بصوت أجش فيقابلون بالاستهزاء والتهكم. هذه الصورة الكاريكاتورية الساخرة للمغنين تتردد كثيراً فى الشعر الصقلى ولاسيما فى شعر ابن الطوبى من مثل قوله[3]:

يغنـــى فـــنهوى انـــسداد الـــصماخ	ونبـــصره فـــنحب العمـــى
دعـــاه رجـــال إلى عرســـهم	فـــصير عرســـهم مأتـــما

(١) ديوان ابن حمديس ص٢٠.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٢١.
(٣) خريدة القصر ١/٤/ص٦٩.

ويقول فى ذم مغن آخر[1]:

ومغن لو تغنى   لك صوتين لمتا
سمج الخلقة غث   ينحت الآذان نحتا
ويغنى ما اشتهاه   لا يغنى ما أردتا
كلما قال أقترح   قلت اقتراحى لو سكتا

ويقول فى مغن آخر[2]:

ومغن نحن منه   بين أسقام وكربه
يضرب العد ولكن   ضربه يوجب ضربه

ويقول فى مثله[3]:

لنا مغن غناه   يعود شرا عليه
لم يأت منزل قوم   فعاد قط إليه

وتتردد هذه الصورة الساخرة أيضاً عند غير ابن الطوبى من شعراء صقلية ، فيقول البلنوبى[4]:

ولنا مغن لا يزال   يغيظنا ما يفعل
صلف وتيه زائد   وتبظرم وتمحل[5]
غنى ثقيلاً أولاً   وهو الثقيل الأول

ويقول أبو الفضل بن راشد فى مغن آخر على تلك الشاكلة[6]:

غنى فكد وعنى   منى فؤادا معنى
فقلت ماذا غناه   فنح بالله عنا

على أن هذه الصور بما فيها من سخرية لاذعة تشير إلى كثرة هؤلاء المغنين كما سبق أن أشرنا. ولكننا لا نلتقى بمثل هذه الصورة الساخرة فى

---

(١) خريدة القصر ص٦٨ – ٦٩.
(٢) نفسه المصدر ١/٤/ص٦٩.
(٣) نفسه ١/٤ ص٦٩ وما بعدها.
(٤) المصدر نفسه ١٢/١/٤ وما بعدها.
(٥) التبظرم : العجب والتيه فى حمق. ويصح أن تكون تبرطم وهو الغضب فى الكلام. والتمحل: التكلف.
(٦) خريدة القصر ١/٤/ص١٠٣.

وصف المغنيات بل على العكس من ذلك، فالمغنية في الشعر الصقلي هيفاء، ممشوقة القد، معشوقة، تعذب أنفس عشاقها، وتسكر الندماء بغنائها وجمالها، وسحر ألحانها، وإذا ما تغنت تمايل القوم طربا، وركع المعجبون تحت أقدامها.

وقد أفاض الشعراء في ترديد هذه الأوصاف فقال أحدهم[1]:

هيفاء يكفينا المدام غناؤها	وجمالها التفاح والريحانا
فإذا بصرت بوجهها لم أنتقل	وإذا تغنت لم أزل سكرانا

ويتغزل ابن حمديس في مغنية أخرى فيقول[2]:

أذابل النرجس في مقلتيك	أم ناضر الورد على وجنتيك
لا تنكري أنك حورية	فنفحة الجنة نمت عليك

ثم يقول:

لو شئت حييت نشاوى الهوى	من لون خديك بتفاحتيك
وإن تغنيت لنا لم نزل	نخلع أفواها على أخمصيك
لا صبر لي عنك وإن كان لي	على جناياتك، صبر عليك

ويقول أيضاً في مغنية[3]:

وممشوقة القد معشوقة	تعذب أنفس عشاقها
بعين إذا سحرت بالفتور	بدا للمها بعض أحداقها
وشدو يقوم لفرط السرور	بنفس الحزين على ساقها
تهيم به الهيم عن شربها	زلالا لإحياء أرماقها
وتخلع إن سمعته الحمام	عليها قلائد أطواقها
فمن لشج سهل أخلاقه	يعذبه وعر أخلاقها

(1) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١١٠.
(2) ديوان ابن حمديس ص٣٤٥.
(3) المصدر نفسه ص٣٢٢.

الرقص في الشعر الصقلي :

وعلى نحو ما برع الصقليون في الغناء، برعوا في الرقص أيضاً، وتفننوا فيه تفنناً عجيباً. ويحتفظ الشعر الصقلي بصورة حية لهذه الظاهرة الطريفة.

وفي هذا الشعر ما يدل بوضوح على أن البيئة الصقلية مهدت لظهور مذهب جديد في الرقص يكاد يشبه ما نسميه في عصرنا الحاضر "الرقص التعبيري" أو "الحركي" وذلك أن الراقصة فيهم كانت تعبر بالحركة عما تريد، وكانت توافق النغمات بقدميها وتومىء إلى كل عضو بما يحل فيه من أثر الحب، فإن ذكرت دمعاً أشارت إلى العين، وإن وصفت وجداً أشارت إلى القلب، وهي مع ذلك تعبر عن تدلل المحبوب، وتذلل المحب بما يليق بهما من الإشارات الحسنة والحركات المنبهة على ما أرادت[1]. وقد أشار غير شاعر صقلي إلى هذه الظاهرة. فقال ابن حمديس[2]:

وراقصة بالسحر في حركاتها	تقيم به وزن الغناء على حد
منغمة ألفاظها بترنم	كسا معبداً من عزه ذلة العبد
تدوس قلوب السامعين برخصة	بها لقطت ما للحون من العد
بقد يموت الغصن من حركاته	سكوناً، وأين الغصن من برة القد[3]
وتحسبها عما تشير بأنمل	إلى ما يلاقي كل عضو من الوجد
بنا لا بها ما تشتكي من جوى الهوى	وأدمع أشواق مخددة الخد

ويشير ابن حمديس إلى تلك الظاهرة في قصيدة أخرى يصف فيها الراقصات فيقول[4]:

(١) أنظر مقدمة القصيدة رقم ٨٤ من ديوان ابن حمديس ص١٣٣.
(٢) ديوان ابن حمديس ص١٣٣.
(٣) البرة : البضاضة والامتلاء.
(٤) ديوان ابن حمديس ص١٣.

وســود الــذوائب يــسحبنها	كـسعى الأســاود فـوق الكثـيب
توافـــق بالـــرقص أقـــدامهن	يطـــأن بهـــا نغمـــات الذنـــوب
يـــشرن إلى كـــل عـــضو بمـــا	يحـل بـه فـى الهـوى مـن كـروب
بـسطنا لهـا – وهـى مـثل الغـصون	تمـيس بهـب الـصبا والجـنوب
علـى الأرض مـنا خدودالوجـوه	وبـين الـضلوع خـدود القلـوب

ويقف الدكتور إحسان عباس حائر إزاء هذه الظاهرة، فلا يدرى ما إذا كان هذا اللون من الرقص نشأ فى صقلية أم فى الأندلس، وإن كان يميل إلى أنه ربما يكون مشتركا بين البلدين ولكنه على أية حال لا يقطع بشىء فى هذه المسألة[1].

ولكننى أعتقد أن هذا اللون من الرقص نشأ فى صقلية وانتقل منها إلى الأندلس لأن الخبر فى ديوان ابن حمديس يؤكد هذا، فهو يروى أن أديبا أندلسياً سأله أن يصف له راقصة على مذهبهم — أى الصقليين — فى رقص قيناتهم، فأجابه ابن حمديس على سؤاله بالمقطوعة الدالية التى ذكرناها آنفاً[2]، ويفهم من صيغة السؤال أنه يقصد الصقليين لا الأندلسيين، ومما يعضد رأيى أن هذه الظاهرة تشيع فى الشعر الصقلى بصورة كبيرة، ويرددها الشعراء كثيرا فى وصفهم للراقصين والراقصات. ومن ناحية أخرى فقد نشر الأستاذ أحمد زكى أبو شادى مقالا فى مجلة أبوللو بعنوان "الرقص الفرنجى فى شعر ابن حمديس" ذهب فيه إلى أن هذا اللون من الرقص إنما هو أثر من آثار اختلاط العرب بالمسيحيين وأنه قد تسرب إلى شعراء صقلية عن طريق اتصالهم بالبيئة الأعجمية[3].

---

(١) العرب فى صقلية ص٢٠٢.
(٢) ديوان ابن حمديس ص١٣٣.
(٣) انظر مجلة أبوللو – المجلد الأول – ص١٠٣، ١٠٥ مقال بعنوان (الرقص الفرنجى فى شعر ابن حمديس) للأستاذ أحمد زكى أبو شادى .

مهما يكن من أمر، فقد انتشر الرقص في المجتمع الصقلي انتشاراً كبيراً، ووجد الراقصون أيضاً بجانب الراقصات، وغالباً ما كان رقصهم مصحوباً بالأنغام، فالراقص يمزج الغناء بالرقص، والرقص بالغناء، ويحرك رجليه ويعتمد عليهما في أداء رقصه كأنهما مزمار وعود مثلما يرددون في أشعارهم، فمن ذلك قول ابن الجهار الكموني يصف رقصاً[1]:

مـــا أن رأيـــت كـــراقص	مـــستظرف فـــي كـــل فـــن
يحكـــي الغـــناء برقـــصه	كمـــراقص يحكـــي المغنـــي
رجـــلاه مـــزمار وعـــو	د فـــي نهايـــة كـــل حـــسن
فهـــو الـــسرور لكـــل عـــيـ	ـــن والنعـــيم لكـــل أذن

ويمكن أن نرسم صورة واضحة للراقصة كما تبدو في الشعر الصقلي، فهي خفيفة الوطء هيفاء، رشيقة، لو جالت بخطوتها في جفن ذي رمد لم يشتك الوصبا، تأسر قلوب من حولها ولاسيما إذا كانت تجمع بين الرقص والغناء. يقول البلنوبي[2]:

هيفاء إن رقصت في مجلس رقصت	قلوب من حولها من حذقها طربا
خفيفة الوطء لو جالت بخطوتها	في جفن ذي رمد لم يشتك الوصبا

ويقول ابن الطوبي في راقصة أخرى[3]:

راقـــصة كالغـــصن مـــن فـــوقه	بـــدر يـــنير تحـــت ظلمـــاء
تلـــهب مـــثل الـــنار فـــي رقـــصها	وهـــي مـــن الـــنعمة كالمـــاء
كأنمـــا فـــي رجلـــها عـــودها	وزامـــر يقـــبع بالـــناء[4]
ســـاحرة الـــرقص غلامـــية	مـــنها دوالـــي، وبهـــا دائـــي
إذا بـــدت تـــرقص مـــا بينـــنا	يـــرقص قلبـــي بـــين أحـــشائي

---

(١) خريدة القصر ١٢٢/١/٤.

(٢) نفسه ١/٤ ص٦.

(٣) خريدة القصر ٦٦/١/٤.

(٤) الناي والناء هو المزمار، والكلمة أعجمية الأصل معربة.

وعرفت صقلية لوناً آخر من الرقص هو "الرقص الجماعي" وكان مصحوباً بالغناء في الغالب أيضاً. ويصف ابن حمديس جماعة من الراقصات يؤدين رقصة جماعية فيشبههن — وهن ساحبات ذيولهن، شاديات بأعذب الأنغام — بحمائم الأيك في هديلها، وبالطواويس في جمال هيئتها وصورها يقول[1]:

ومن راقصات ساحبات ذيولها	شواد، بمسك في العبير تضمخ
كما جررت أذيالها في هديلها	حمائم أيك أو طواويس تبذخ

ويصف ابن حمديس أيضاً لوناً آخر من ألوان الرقص، وفيه كانت الراقصة تحمل طاراً تنقر عليه، ومن حولها المغنيات الملحنات يحملن الآلات الموسيقية، فواحدة تحتضن العود، وأخرى تقبل المزمار، وثالثة توقع بقدميها على الأرض، وتوائم بين ذلك وبين النقر على طارها، فتتجاوب النغمتان أو الأنغام، والراقصات الأخريات حولها أشبه بجوقة غنائية، وقد صففت الشموع حولهن في منظر بديع. وفي ذلك يقول ابن حمديس[2]:

وقد سكنت حركات الأسى	قيان تحرك أوتارها
فهذي تعانق لي عودها	وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها	حساب يد نقرت طارها
وقضب من الشمع مصفرة	تريك من النار نوارها

(١) ديوان ابن حمديس ص١١٢.
(٢) ديوان ابن حمديس ص١٨٣.

الخمر في الشعر الصقلي

كان للبيئة المسيحية أثر كبير في شيوع شرب الخمر في صقلية شيوعاً كبيراً، وقد تخصصت بعض المدن الصقلية في إنتاج الخمور مثل سرقوسة ومسيني، وفيها يقول أحد الشعراء[1]:

يا سيدي قد جاء مسيني ... أرق من حالي ومن ديني
جاء به (مرتين) في دنه ... لا عطبت أجفان (مرتين)

ولقد لعب الذميون أو أهل البلاد الأصليون دوراً كبيراً في انتشار الخمر، فهم الذين كانوا يمتلكون الدساكر والحانات، ويملأون أديرتهم بالخمر المعتقة والجواري والغلمان، ويفتنون في تهيئة ضروب الفتن والملذات افتناناً عظيماً، وانعكس هذا الواقع الصقلي على الشعر، فأقبل الشعراء على الخمر، وشغفوا بها حباً، وافتنوا في وصفها والتغني بذكرها.

ومن يمعن النظر في أشعارهم التي نظموها في الخمر، يكاد يظن أن كثيراً منهم كانوا "يقدسون الخمر" ويعتبرونها جزءاً من حياتهم المتحضرة يألفونه ويلذونه، حتى لنجد أحدهم – وهو ابن الخياط الربعي ليتمنى أن يمتلك الأرض بما حوت، لا ليعمرها أو يصلح ما فسد منها، ولكن ليزرعها كرماً حتى تصبح خمراً يؤثرها الظامئون على الماء الزلال يقول[2]:

ولو أن ملك الأرض تحت يدي ... لجعلت كل نباتها كرما
حتى تكون الأرض منهلة ... تغني الصوادي عن زلال الما

أما ابن حمديس فهو على استعداد لأن يضحي بشبابه في سبيل اللذة، ويرى أنه لا يشفي الروح إلا كأس من كئوس الراح، يقول[3]:

---

(١) الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ص١٢٠.
(٢) المختار من شعر بشار – ص٣٥.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٨٣.

علل النفس بريحان وراح وأطع ساقيها واعص اللواح

خلني أفن شبابي مرحاً لا يرد المهر عن طبع المراح

إنما ينعم في الدنيا فتى يدفع الجد إليها في المزاح

فاسقني عن إذن سلطان الهوى ليس يشفي الروح إلا كأس راح

ويحذو أبو العرب الصقلي حذو زميليه في الهيام بالخمر، والحرص على تعاطيها واعتناق فكرة تقديسها، حتى إنه يدعو إلى هجر العقل والرشاد في وصل ابنة العنب، ويرى أن الهموم شياطين لا تزول إلا بقذفها بأشهب الصهباء يقول[1]:

أهجر رشادك في وصل ابنة العنب ولا تعقن أمر اللهو واللعب

متع شبابك واستمتع بجدته فهو الحبيب إذا ما بان لم يؤب

من ضيع اللهو في بدء الشباب طوى كشحا على أسف لم يغن في العقب

والحلم قيد فدعه واخط في مرح والجد داء فداو النفس باللعب

والهم للنفس شيطان يوسوسها فاقذفه من أنجم الصهباء بالشهب

أما ابن القطاع فيدعو إلى الخمر لأنها — في نظره — تجدد الحياة، وتعيد للشيخ شبابه، وللكهل صباه. وما دام المرء رهينة في تلك الحياة، وما دامت تلك الرهينة مؤداة لا محالة، فلا شيء أجدى من اغتنام غفلة الزمان، والعكوف على كئوس الخمر، ويعبر عن هذه المعاني فيقول[2]:

قهوة إن تبسمت لمزاج خلت ثغراً في كأسها لؤلؤيا

فاصطحبها سلافة تترك الشـ ـيخ إذا ما أصاب منها صبيا

واغتنم غفلة الزمان فإن الـ ـمرء رهن ما دام يوجد حيا

وتتردد في الشعر الصقلي أوصاف كثيرة للخمر، منها ما هو تقليدي يحذو فيه الشعراء حذو المشارقة، ومنها ما يقترن بجو صقلية وطبيعتها البحرية والحربية.

(١) خريدة القصر ٢٢٠/٢ (ط. تونس)

(٢) خريدة القصر ٥٢/١/٤ (ط. مصر).

فمن الأوصاف التقليدية وصف الخمر بالقدم والعتاقة، وقد أكثر الشعراء من ترديد هذه الصفة، وبالغوا فيها، فمن ذلك قول ابن حمديس[1]:

ومدام قدمت فهي إذا ... سئلت تخبر عن عاد إرم
سكنت أجوف في جوف الثرى ... نسج الدهر عليها ورقم
خالفت أفعالها أعمارها ... فأتت قوتها بعد الهرم

ويعبر شاعر آخر عن فكرة القدم هذه فيقول[2]:

ووردية من بنات الكروم ... كساها النحول مرور الحقب
رأت أيدي الشرب من فضة ... فصاغت أناملهم من ذهب

وتحدث الشعراء أيضاً عن فكرة سورة الخمر في الدن وما لها من هدير قوى يشبه هدير الفحل بين اللقاح، وكيف أن السنين قد صفتها ورققتها وحبستها حتى فكت عقالها الليالي، فخرجت من حبسها صافية صرفة. وفي ذلك يقول أحد الشعراء[3]:

ثوت في دنها ولها هدير ... هدير الفحل ما بين اللقاح
وصفتها السنون ورققتها ... كما رق النسيم مع الرواح
إلى أن كشفت عنها الليالي ... ونالتها يد القدر المتاح
فأبرزها نزال الدن صرفا ... كما انبعث النجيع من الجراح

ومن الأوصاف التقليدية للخمر أيضاً التي نلتقي بها في الشعر الصقلي فكرة الثأر التي طالما رددها الشعراء القدماء، فالخمر تصرع شاربها كما لو كانت تأخذ بثأرها منه لقتله إياها حين مزجها بالماء. ويعبر ابن القطاع عن هذه الفكرة بقوله[4]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٤٣٩.
(٢) المغرب ٢٥٣/٤ (مخطوط). والشاعر هو سليمان بن محمد الطرابنشي.
(٣) مختصر الدرة ورقة ٩٩.
(٤) الخريدة ٥٤/١/٤.

شربت درياقة للهموم إذ لبستني
دبت بجسمي فأردت همومه، وشفتني
قتلتها بمزاج وبعد ذا قتلتني
كأنها طلبتني بالثأر إذ قتلتني

أثر البيئة الصقلية فى شعر الخمر:

وكان للبيئة الصقلية أثرها فى شعر الخمر، فقد استرفد الشعراء كثيراً من أوصافهم ومعانيهم من تلك البيئة، فمن الأوصاف التى اقترنت بالبيئة البحرية تصوير الحباب فوق كأس الخمر بالشبكة التى تمنعه من الطيران، وتتردد هذه الصورة كثيراً فى أوصافهم فمن ذلك قول أبى العرب الصقلى(1):

بكر حصان إذا ما الماء واقعها أبدت لنا زبداً فى سورة الغضب
كانت تطير نفارا حين نافسها لولا الشباك التى صيغت من الحبب

ونجد تشبيه الحباب بالشبك عند ابن الطوبى أيضاً إذ يقول(2):

والماء يحذر منها أن تطير، فقد صاغ الحباب عليها صبغة الشبك

ويقول شاعر آخر فى المعنى نفسه(3):

كأن حبابها شبك مقيم لصيد الألسن المتطايرات

وتتردد هذه الصورة فى شعر ابن حمديس بكثرة، فمن ذلك قوله(4):

كأن لها من نسيج الحباب شباكا تعقل أطيارها

ولكنه يزيد على هذه الصورة فيشبه الماء الذى يصب على الخمر بالغائص فى البحر ليستخرج الدر الذى يرتفع على السطح. وفى ذلك يقول(5):

إذ صب ماء على صرفها رأيت له غوصة فى اللهيب
فتخرج من قعرها لؤلؤاً ينظم للكأس فوق التريب

---

(1) خريدة القصر ٢/٢٢٠ (ط. تونس).
(2) نفسه ٨٢/١/٤ (ط. مصر).
(3) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ٩٨.
(4) ديوان ابن حمديس ص١٨١.
(5) المصدر نفسه ص١٣. وانظر العرب فى صقلية ص١٩٧.

واستمد الشعراء بعض أوصافهم من البيئة الحربية، فمزجوا بين الخمر والحرب، على نحو ما يتمثل فى قول ابن حمديس[1]:

كأن الكئوس بأيدى السقاة ... خيول على الهم منا مغيرة

ويصف ابن الخياط الخمر بأنها تطرد الهموم وتحيى السرور فى النفوس، وذلك فى قوله[2]:

ذخيرة قوم يسبكون عقارهم ... عقارا إذا ارتاحوا وإن كان تالدا
ترى همهم فيها طريد سرورهم ... وأحبب بشىء كان للهم طاردا

كما أدار الشعراء أوصافهم حول فكرة أخرى هى مزج الخمر بالماء، واجتماع العنصرين: الماء والنار فى مكان واحد. ويكثرون من ترديد هذه الصفة بصورة كبيرة. فمن ذلك قول الكاتب أبى على الحسين بن أحمد[3]:

وكأس من الماء مخروطة ... تنير لنا مثل نور النهار
تبدت وفى وسطها جمرة ... تكاد تصدعها بالشرار
فحسبك من عجب ما تراه ... بتأليف ما بين ماء ونار

ويقول ابن القطاع فى المعنى نفسه[4]:

أنظر إلى الماء حاملاً لهبا ... واعجب لنار تضىء فى ماء

ويعبر شاعر آخر يدعى أبا الحسن بن محمد عن فكرة المزج هذه ويصف تناثر الخمر لحظة المزج وهى تتجمع فى أسفل القدح ثم تتكاثف وتتماسك لتصبح أشبه بالدر المنظوم فى أعلاه فيقول[5]:

وقهوة كشعاع النار فى قدح ... قد شجها بمزاج الماء ساقيها
يريك دراً نثيرا فى أسافلها ... يعود درا نظيماً فى أعاليها

ويردد ابن حمديس أيضاً هذه الفكرة فيقول فى إحدى خمرياته[6]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص١٨٤.
(٢) المختار من شعر بشار ص١٦٦.
(٣) عنوان الأريب ١٢٩/١.
(٤) الخريدة ٥٤/١/٤.
(٥)الخريدة الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١٠٤.
(٦) ديوان ابن حمديس ص٨٣.

علـــل الـــنفس بـــريحان وراح	وأطـــع ســاقيها واعـــص اللـــواح
وأدر حمـــراء يـــسرى لطفـــا	سكرها مـن شمهـا فـى كـل صـاح
واعلـــها بالمـــاء تعلـــم مـــنهما	أن بـــين المـــاء والـــنار اصـــطلاح

وصف أدواتها وسقاتها :

ولم يقتصر الشعراء على وصف الخمر أو الدعوة إلى معاقرتها، وإنما التفتوا أيضاً إلى أدواتها كالكئوس والدنان فوصفوها، وأفاضوا فى الحديث عن السقاة ومجالس الشراب. فابن حمديس يصف الكأس فيتحدث عن شفافيته واحتوائه للخمر، ويشبهه بالجسم وروحه الخمر، وأنه يخف وهو ملآن بالخمر، ويثقل وهو خال منها. يقول[1]:

ومـــضمن راحـــاً يـــشف زجاجـــه	عـــن مـــاء ياقـــوت بـــدر يـــزبد
جـــام يجمـــع شـــربه لذاتـــنا	وعقولـــنا بالـــسكر مـــنه تـــبدد
ويخـــف ملآنـــا ويـــثقل فارغـــا	كالجـــسم تعـــدم روحـــه أو تـــوجد

ويصف زجاجة خمر رسمت عليها صور فرسان يمتطون ظهور الجياد، ويتلاعب بهذه الصفة تلاعباً جميلاً، فيتخيل حرباً تدور بينها وبين كف الساقى، ويندمج ابن حمديس فى تصوره فيمزج الخمر بالحرب مزجا نكاد نحس معه أننا بإزاء معركة حربية حقيقية بما فيها من سيوف تضرب، ودماء تسيل، وأعناق تخر صريعة. يقول[2]:

بـــزجاجة صـــور الفـــوارس نقـــشها	فـــترى لهـــا حـــربا بكـــف الـــساقى
وكأنمـــا ســـفكت صـــوارمها دمـــا	لبـــست بـــه غـــرقا إلى الأعـــناق
وكـــأن للكاســـات حمـــر غلائـــل	أزرارهـــا درر علـــى الأطـــواق

وتغنى الشعراء بمفاتن السقاة من الغلمان والجوارى وأفاضوا فى وصف محاسنهم وصوروهم بأرق الصور وألطفها. يقول أبو العرب الصقلى واصفاً أحد هؤلاء السقاة[3]:

---

(١) نفسه ص١٢٦.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٢٦.

(٣) الخريدة – قسم شعراء المغرب والأندلس ٢٢١/٢ (ط. تونس).

أبهـا المناظـر فـى عينـى وأحـسنها ... كـأس بكـف رخـيم الـدل سـحار
كأنــه إذ يــسقى ســادة زهــرا ... نجــم يــوزع نجمـا بـين أقمـار

ويـصف أبـو الحـسن ابـن الطوبـى سـاقيا يوزع الصهباء على الشاربين فيقول[1] :

وسـاقياً تـسكب الـصهباء نظـرته ... إلى صـريع مـن الفتـيان منبـتك[2]
غـدا يـصرفها فيـنا ويخـرجها ... فنحن وهـى مـن الأيام فـى ضحك

ويـصف أبـو العـباس محمـد بن القاف ساقياً آخر ويقابل مقابلة حسنة بين لون الخمر ولون خديه فيقول[3] :

وسـقانا الـراح سـاق ... مالــه فــى الحـسن نـد
فهــى فــى الكـأس أقـاح ... وهــى فــى خديــه ورد

أما الساقى عند ابن حمديس فهو مليح الدل، جميل المحيا، يعله بالخمر مرة فى إثر مرة، وينادمه فى الشراب[4] :

ومليح الـدل إن عـل بهـا ... قلت نجـم فـى فـم البدر غـرب
شعشع القهـوة فـى صـوب الحيا ... وسـقانى فـضلة ممـا شـرب
فتلاقـى فـى فمـى مـن كأسـه ... مـاء كـرم وغمـام وشـنب

أما البلنوبى فيحتفى بساقيه احتفاء عظيما حتى إنه ليؤثره على الراح، فهو ليس كلفا بالراح بقدر ما هو كلف بساقيها سواء أكان ذلك الساقى غلاماً أم جارية، وهو يصرح بأن الخمر ذاتها لا تسكره، ولكن خمر مقلتيه هو الذى يسكره ويذهب بعقله. يقول[5] :

لـست بالـراح مـستهاما ولكـن ... بغــزال ســعى إلى بــراح
بغـلام مـثل الفـتاة غريـر ... أو فـتاة مـثل الغـلام رداح
أنـا صـاح مـن خمـرة غـير أنـى ... لـست مـن خمـر مقلتـيه بـصاح

---

(١) الخريدة ٨٢/١/٤ (ط. مصر).
(٢) منبتك : سكران.
(٣) الخريدة ٩٥/١/٤.
(٤) ديوان ابن حمديس - ص٤٦.
(٥) ديوان البلنوبى - نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية - ورقة ١ - ٢.

والساقى عند البلنوبى لا يقتصر عمله على تقديم الخمر فحسب، ولكنه مدرب تدريباً جيداً على اصطياد الزبائن وإيقاعهم فى حبائله، ولا يجد حرجاً فى أن يبيع جسده لمن يريد. يقول البلنوبى[1]:

وساق كمثل الغزال الربيب	بصير اللحاظ بصيد القلوب
جسرت عليه فقبلته	مجاهرة فى جفون الرقيب
فلما توسد كف الكرى	وأهداه لى سكره من قريب
تعجلت ذنباً بفتكى به	ولكنه من مليح الذنوب

كما التفت الشعراء الصقليون إلى الساقية أيضاً فوصفوا محاسنها، وخفتها ورشاقتها وعذوبة حديثها، وما تبديه من تدلل أحياناً، وتبذل أحياناً أخرى. فمن ذلك قول ابن حمديس[2]:

أقبلت تسعى بها خمصانة	عم منها حسنها خلقا عميم
كلما قامت تثنى جعلت	ميل التيه على خوط قويم
سحر هاروت وما روت بها	فى فتور اللحظ واللفظ الرخيم
تودع الكف شهابا محرقا	كل شيطان من الهم رجيم

ويزعم الدكتور إحسان عباس أن الشعراء الصقليين اقتصروا على وصف الساقى فحسب ولم يتطرقوا إلى وصف الساقية باستثناء ابن حمديس. وفى ذلك يقول "إن الساقى فى الشعر الصقلى غلام، إلا عند ابن حمديس فهو ساقية جميلة رخيمة اللفظ ساحرة المقلتين"[3].

وهذا غير صحيح، فهناك شعراء آخرون غير ابن حمديس وصفوا الساقية وأكثروا فى ذلك على شاكلة أبى الحسن ابن الطوبى الذى يصف ساقية فيقول[4]:

(١) الخريدة ٤/١/ ص٦.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٤٤٩.
(٣) العرب فى صقلية ص١٩٦.
(٤) الخريدة ٤/١/٨٥.

يا حبذا كأس يكون بها	ريق كأن ختامه مسك
باتت تعللني بها، وبه	حسناء ما في حسنها شك
هاتيك كالدنيا، فلا أحد	إلا لها بفؤاده فتك

ويتغزل ابن الخياط فى ساقية هيفاء مجدولة فيقول[1]:

جئنا بها صفراء درية	كأنها في البيت قنديل
تسعى بها هيفاء مجدولة	كأنها أهيف مجدول

وكما وصف الشعراء السقاة، وصفوا أيضاً بائع الخمر، وتحدثوا أحياناً عن رحلتهم إليه فمن ذلك قول ابن الخياط يصف خماراً باللطف واللين والتفنن فى إغراء زائريه على الشرب[2]:

هدا وأشمط رب دسكرة	رحب الفناء لكل من أما
مستنزل جلباب زائره	ببشاشة تستنزل العصما
ضقنا به ذرعا فهب لنا	بزجاجة خلنا بها نجما

ولم يكن ابن الخياط وحده هو الذى وصف بائع الخمر كما يزعم الدكتور إحسان عباس حين يقول: "إن كل هم الشاعر فى الوصف هو الخمر نفسها. فلا يلتفت كثيراً إلى بائع الخمر نفسه، ولا يصف رحلته، إلا فى مثال واحد نجده عند ابن الخياط"[3].

وهذا غير صحيح أيضاً لأن هناك أشعاراً أخرى تتحدث عن بائع الخمر، وتصف الرحلة إليه من مثل هذه الأبيات لابن حمديس، وفيها يصف رحلته ليلاً إلى أحد الخمارين، ويصف هذا الخمار بالفراسة فى تمييز الخمر ومعرفة جيدها من رديئها، ويصف قلبه بالقسوة، وأن الخمر استمدت قسوتها منه. يقول[4]:

(١) المختار من شعر بشار ص٢٥٩.
(٢) المختار من شعر بشار ص٣٥.
(٣) العرب فى صقلية ص١٩٦.
(٤) ديوانه ص٢١٤ – ٢١٥.

وأشمط خضنا نحوه الليل بالسرى | وقد خاط منه النوم شفرا على شفر
له بيعة مازال فيها محللا | حرام الربا فى بيعه التبر بالتبر
بسطنا له الآمال عند انقباضه | لأخذ عجوز من بنياته بكر
إذا شمها أعطاك جملة وصفها | ففى أنفه علم الفراسة بالخمر
لها قسوة من قلبه مستملة | لعنف نداماها كذا قسوة الكفر

وصف مجالس الشراب :

وكان من الطبيعى فى تلك البيئة المعبقة برائحة الخمر، المحتفية بها أى احتفاء، أن تكثر مجالس اللهو والشراب، وأن تنتشر انتشارا واسعا، ويحتفظ الشعر الصقلى بصور كثيرة لهذه المجالس التى شاع فيها القصف واللهو ومعاقرة الخمر، والتفنن فى نيل الملذات، وكان الشعراء يشاركون فى هذه المجالس ويخوضون فيما يخوض فيه القوم من لهو ومتعة. ويرسم ابن الطوبى صورة مجلس من هذه المجالس فى رسالة يدعو فيها صديقاً له لمشاركته فى لهوه ومجونه. فيقول[1]:

قد شربنا المدام من كف خود | أقبلت كالهلال والليل داج
ونعمنا لولا مغيبك عنا | بسماع الأرمال والأهزاج
وعجبنا للماء يحمل ناراً | فى قنان كأنها خرط عاج
وفتاة تكشفت للندامى | وعجوز تسترت بالزجاج
فاغتنم لذة الزمان وبادر | كل ضيق تخافه لانفراج

ويصف شاعر آخر مجلساً من تلك المجالس التى كان يرتادها ليستمتع فيها بشدو القيان، ويجنى نهود العذارى كما تجنى الثمار، ويعب من كئوس الخمر كيف يشاء، فيقول[2]:

أقمنا نسابق صرف الزمان | مداراً إلى عيشنا المستعار
نجيب بصوت القيانى القيان | إذا ما أجابت غناء القمارى
وتصبح عيداننا فى اصطخاب | تلد وأطيارنا فى اشتجار

---

(١) الخريدة ٦٣/١/٤ (ط. مصر).

(٢) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ٩٦.

نشم الخدود شميم الرياض ... ونجني النهود اجتناء الثمار
ونسقى على النور مثل النجوم ... ومثل البدور اعتلت للمدار
عقار هي النار في نورها ... فلولا المزاج رمت بالشرار
نعمنا بها وكأن النجوم ... دراهم من فضة في نثار
إذا ما لقيت الليالي بها ... فأنت على صرفها بالخيار

ولم تكن تلك المجالس ترتبط بوقت معلوم، فقد تنصب قبل انبلاج ضوء الفجر أو تقام في الليل تحت ضوء النجوم أو على لمعان البرق في السماء. وفي ذلك يقول ابن حمديس[1]:

يا شقيق النفس، أنفاس الصبا ... بردت والصبح لاشك اقترب
قم أمتعك بعيش لم تقع ... في صفاء منه أقذاء النوب
فلقد حان لضوء الفجر أن ... يضرب السرحان فيه بذنب
فأدرها تحت ليل سقفه ... ظلمة فيها من الليل ثقب
أو على برق سماء ضاحك ... غيمه بالدمع منه منسكب
سكر الروض وغنى طيره ... أفلا ترقص قامات القضب

وقد يحلو للشاعر أن يقطع الليل كله في شرب الخمر حتى يميط الصبح لثامه وفي هذا الظلام الحالك تقوم الخمر مقام النيران التي تشب للقصاد، ويستمتع السمار بالقصف واللهو غاية الاستمتاع، وفي ذلك يقول أبو عبدالله ابن الصباغ[2]:

وليل قطعناه بأخت نهاره ... إلى أن أماط الصبح عنه لثامه
إذا ما أردنا أن نشب لقاصد ... ضراما، سكبناها فقامت مقامه
ليالي نوفي اللهو منا نصيبه ... ونعطي الصبا مما أراد احتكامه

ويرسم أبو الحسن ابن الطوبي صورة طريفة لليلة قضاها وأصحابه في معاقرة الخمر وقد ظلوا يشربون حتى لعبت بعقولهم، فأخذوا يترنحون والنوم يداعب جفونهم، ويصف ابن الطوبي مشيته إلى بيته بعد أن انفض ذلك

---

(١) ديوانه ص٤٥.
(٢) الخريدة ٤/١/٩٠.

المجلس وقد دارت الخمر برأسه فسار يتخبط فى طريقه لا يدرى له مسلكاً كما لو كان يمشى على الأشواك مع أنه يجيد السير فى تلك المسالك. يقول[1]:

ولـــيلة بـــتها والأرض عامـــرة — حـولى بالجوهـرين: المـاس والبـنك[2]

ثم يقول واصفاً أثر الخمر فى أصحابه[3].

والكأس تخدعهم عنى وقد نـدروا — بأننـى غـير مأمـون علـى الـتكك[4]
حتـى إذا قـبلوا مـنها ومـال بهـم — أخـذ الكرى وتداعى كـل ممتسك
دببت أكـتم فـى أنقاضـهم قدمـى — كأننـى بيـنهم مـاش علـى الحسك
وقد تخلص غيى من يدى رشدى — فيهم، وأطلق فتكى من عرى نسكى
فـبت أنفـد ممـا حولـوا سـككاً — وكـنت قـدما أجـيد الـنفد للـسكك
وقـد وثقـت بعفـو الله عـن زللـى — فمـا أبـالى بمـا خطـت يـد الملـك

ويـصف ابـن حمـديس مجلساً آخـر مـن مجـالس الشراب اجتمع فيه وأصحابه فى رياض خضر وظلوا يشربون من الخمور المعتقة حتى سكروا وفيها يصف السقاة والقيان والكئوس فيقول[5]:

لله در عـــــصابة نـــــزلوا — بـــين الـــرياض مجالـــسا خـــضرا
شـــربوا بكاســـات معـــتقة — شـــربت عقـــولهم بهـــا ســـكرا
وكأنمـــا الأقمـــار تلـــثم مـــن — أيـــدى الـــسقاة كواكـــبا زهـــرا
وكأنمـــا صـــور القـــنان وقـــد — ملـــئت إلى لهـــواتها خمـــرا
بـيض الحـسان وقفـن فـى عـرس — لمـــا لبـــسن غلائـــلا حمـــرا

---

(١) خريدة القصر ٨٢/١/٤ ص وما بعدها.
(٢) البنك . طيب مشهور.
(٣) الخريدة ١/٤/ ص٨٢ وما بعدها.
(٤) التكك : أربطة السراويل.
(٥) ديوان ابن حمديس ص١٨٠.

الشعر الاجتماعى

كان هذا اللون من الشعر وليد الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى عاشتها صقلية فى القرن الخامس الهجرى. وقد نبالغ إذا زعمنا أن الشعراء الصقليين نجحوا فى تصوير كل ما كان يدور فى مجتمعهم أو أنهم برعوا فى التعبير عن تلك الظروف براعة كبيرة، فذلك إسراف فى القول ومبالغة لا تستقيم مع واقع الشعر الصقلى الموجود لدينا. وغاية ما يمكن أن نقوله فى هذا الصدد ونحن بمأمن من الغلو والإسراف أنه قد تسللت إلى هذا الشعر بعض الأفكار والتقاليد الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع الصقلى فى ذلك الوقت كما استطاع هذا الشعر أن يعبر إلى حد ما عن بعض الظروف النفسية الصعبة التى عاشها الصقليون آنذاك.

ولعل أول ما يلفت انتباهنا فى هذا المجال أن الظروف السياسية التى مرت بها صقلية كانت لها آثاربعيدة فى نفوس الناس، فلقد قدر لتلك الجزيرة أن تعيش فى حروب وفتن متصلة لا يخمد أوارها مما جعل أهلها يعيشون فى قلق دائم وخوف مستمر، فالحياة أصبحت فى نظرهم حلماً خاطفاً. والمستقبل أصبح يخفى فى طياته المفاجآت المزعجة، وأصبح الناس يتمنون أن يعيشوا كغيرهم معيشة آمنة، ويتطلعوا إلى السكينة والاستقرار فى هذا المجتمع الذى لا يعرف غير الفتن والحروب. ولذلك فليس غريبا أن نسمع شاعرا مثل ابن حمديس يقول[1]:

إنى لأرجو السلم من زمن ... قامت على ساق له حرب

ولم يكن هذا الشعور بالخوف والقلق إلا أثراً من آثار تلك الظروف السياسية التى عاشتها صقلية، وكان من الطبيعى فى ظل هذه الظروف أن

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٨.

تتفكك العلاقات الاجتماعية وتنهار الصلات والوشائج، ويصبح الغدر من شيم الزمان وأهله، وهذا ما يفسر ظاهرة الإكثار من شكوى الزمان، وفساد الأحوال في الشعر الصقلي، ويعبر أبو القاسم السرقوسي عن هذه المعاني فيقول[1]:

لا تبغ من أهل الزمان تناصفا ... والغدر من شيم الزمان وأهله
فإذا أردت دوام ود مصاحب ... فاغضض جفونك جاهدا عن فعله

وإزاء هذه الظروف القاسية التى أدت إلى تفكك الصلات بين الناس، لم يجد بعض ذوى النفوس الطيبة بداً من اعتزال الناس حتى يكونوا بمنجاة من شرورهم وآثامهم. وفى ذلك يقول أبو عبدالله الطوبى[2]:

يا لائمى فى انتزاعى ... عن الورى وانقطاعى
لا أستطيع على أن ... أكون بين الأفاعى

ويقول الكاتب أبو على بن القاف[3]:

ولما رأيت الناس لا خير عندهم ... صددت وبيت الله عن صحبة الناس
وصرت جليس الفكر مادمت فيهم ... وأعملت حسن الصبر فيه مع الياس

ولم يكتف الشعراء بالدعوة إلى التنفير من الناس، بل نجد منهم من يدعو إلى إعلان الحرب عليهم، ويحذر من الاغترار بتبسمهم وتملقهم، وفى ذلك يقول أحدهم[4]:

إخوان دهرك فالقهم ... مثل العدا بسلاحكا
لا تغتـرر بتبسم ... فالسيف يقتل ضاحكا

وفى هذا المجتمع الذى تنهار فيه القيم، وتختلط فيه المبادىء والمثل، يصبح من السهل اليسير أن ينقلب ميزان الأمور، فيرتفع أهل الجهل على أهل

(١) الخريدة ١٣٨/١/٤.
(٢) الخريدة ٦١/١/٤.
(٣) المصدر نفسه ص٩٤.
(٤) الخريدة ١/٤/ص٢١ والبيتان لشاعر يدعى عبدالرحمن بن رمضان.

العلم، ويصبح العالم جاهلا، والجاهل عالماً، والخامل مرفعا. وفى ذلك يقول البلنوبى[1]:

زمانـنا منقلب فاسـد ... يرفع أهـل الجهـل والعجب
كالنقش فى الخاتم لا يستوى ... ختم بـه إلا مـع القلب

ويعبر شاعر آخر عن هذه المعانى فيقول[2]:

وكم خامل فى الناس أمسى مرفعا ... ترقـى إلى العليـاء كـل سـنام
فتعسا لدهـر حـط علـو مراتبـى ... وقلّـل إخوانـى، وأكثـر ذامـى
إذا اخضر يوما منه للمرء جانب ... غـدا فجـلا للعـين كـف لـئام

وكان لتدهور الأحوال الاقتصادية أثر كبير فى نفوس الناس، فانتشر الفقر بين أغلب طبقات المجتمع، وتفاوت حظ الناس فى النظر إلى المال، فمنهم من شغل نفسه بجمعه وحفظه خشية ألا يجد ذات يوم ما يقيم به أوده، وحتى يكفى نفسه مؤونة سؤال البخلاء. وفى ذلك يقول أبو عبدالله بن الطوبى[3]:

يـا لائمـى باشـتغالى ... بحفـظ مـال قليـل
البخل أجمـل بالحـر ... مـن سـؤال البخيـل

ومنهم من كان ينظر إلى المال نظرة أخرى، فيرى أنه لا طائل من وراء جمع الأموال ما دمنا نموت ولا نأخذها معنا، وهنا يصبح التوسط هو خير الأمور. ويعبر عن هذا المعنى الكاتب أبو على الحسن بن محمد فيقول[4]:

ذرونى وأموالى التى قد جمعتها ... أقدم لى نصفا وأرتع فى النصف
إذا كان أموالى علـى حسابها ... فمالى إذا وليت أتركها خلفى

---

(١) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ص١٠٧.
(٢) الخريدة ٢٨/١/٤.
(٣) الخريدة ٦٤/١/٤.
(٤) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (مخطوط) ٤/ ورقة ٣٤٥.

وقد نسمع شاعراً يصف عجزه وضيق يده عن مساعدة صديقه فيما يقيم به أوده، فيعتذر إليه بأنه لا يملك إلا مالا قليلاً يغنيه عن سؤال الناس، ولكنه لا يسعفه بقضاء حاجته. وفي ذلك يقول محمد بن قاسم اللخمي[1]:

ولي مال من يغني به فيكفه | ويعجز عن بر الصديق الملاطف
فلا البخل أرضاه، ولا الجود أنتهى | إليه. لقد أوقفت شر المواقف
وما حيلة الحر المساعف إن سعى | ولم يعظ حظا من زمان مساعف

وقد نسمع في الشعر الصقلي أصواتا تدعو إلى الهجرة في سبيل الرزق، فالفقر منقصة بالمرء، وإذا ضاقت البلاد بامرىء فما عليه إلا أن يحمل عصا التسيار ويرحل إلى مكان آخر يضمن فيه رزقه. وفي ذلك يقول أبو محمد السرقوسي[2]:

اطلب الرزق حيث كان من الـ | أرض فإن الفقير كالمفقود
وإذا ضاقت البلاد بحر | سار منها إلى مكان جديد

ومن الغريب أن نسمع في تلك البيئة المتحضرة أصواتاً تردد بعض القيم القديمة التي يمجها الذوق الحضري، ولا يستسيغها المجتمع المتمدين، كأن يحكم بالسقوط على من يشك في نسبه أو من يشتهر في الناس بأمه حتى وإن لم يكن به ما يعيبه في ذاته، أو يزري به في نفسه. وفي ذلك يقول عبدالوهاب بن مبارك[3]:

إذا المرء لم يعرف بجد ولا أب | ولم يشتهر في الناس إلا بأمه
فلا تسألن عن حاله فهو ساقط | وإن لم يشع في الناس أسباب ذمه

ولا شك أن هذه النظرة القاسية قد جاءت وليدة تلك الرواسب التي توارثها الصقليون عن أجدادهم.

(١) الخريدة ٤/١/٦٤.
(٢) المغرب في حلى المغرب (مخطوط) ٤/ ص٣٤٩.
(٣) الخريدة ٤/١/١٤١.

وعلى نحو ما عبر الشعر الصقلى عن بعض الظروف الاجتماعية والاقتصادية فى عصره، فقد عبر أيضاً — ولكن إلى حد ما — عن بعض مظاهر الاتجاهات السياسية التى كانت تصطرع فى صقلية، فنحن نلمس فى هذا الشعر بعض آثار التشيع التى تسربت إليه حين خضعت صقلية للفاطميين، فنسمع شعراء يدعون إلى الامتثال بآل على والاقتداء بسيرتهم وأخلاقهم، وقد نسمعهم يتحدثون عن مقتل الحسين ويعبرون عن أسفهم وأحزانهم إزاء تلك المأساة المفجعة. يقول أحد الشعراء[1]:

كن بديعا كما خلقت بديعا	حسن الوجه يا قبيح الفعال
وامتثل من عزيز آل على	شيمة كى تكون فرد الكمال

وتشير بعض الأشعار إلى أن بعض المتشيعة كانوا يعبرون عن تشيعهم باستعمال بعض الأحراز والفصوص، وقد تلاعب ابن الطوبى بألوان هذه الفصوص تلاعباً لطيفاً فقال فى فص أسود غرورى[2]:

أنا غرورى شديد السواد	وقد كنت أبيض مثل اللجين
وما كنت أسود لكننى	صبغت سواداً لقتل الحسين

ويقول على لسان فص أحمر[3]

حمرت من دم قلبى	أين من يندب؟ أينا؟
أنا من أحجار أرض	قتلوا فيها الحسينا

ويقول على لسان فص أخضر[4]

لا تعجبوا من خضرتى	فإنها مزارتى
تقطرت لما رأت	ما صنعوا بسادتى

---

(١) عنوان الأريب ١٢٨/١.
(٢) الخريدة ١٤١/١/٤.
(٣) الخريدة ٦٠/١/٤ وما بعدها.
(٤) المصدر نفسه ص٦١.

الزهد والموضوعات الدينية

كان من الطبيعي أن يحدث رد فعل قوى إزاء تلك الموجة العاتية من التحرر التى شاعت فى البيئة الصقلية، وكادت أن تطغى على حياة الصقليين وتغرقهم فى بحور اللذة، فكان التيار المقابل لتلك الموجة هو تيار الزهد. ولا شك أن وجود هذا التيار يستقيم مع المنطق الطبيعى لتطور الأشياء، فحيثما وجد اللهو والمجون، وجد الزهد والورع، وتلك سنة الحياة وطبيعتها فى كل زمان ومكان. وإذا كان الناس يدركون أن الحياة قصيرة، والعمر فان، فإن نظراتهم تختلف فيما يجب عليهم أن يفعلوه إزاء هذه الحقيقة، فمنهم من يمضى حياته فى الانغماس فى الملذات، والعكوف على إشباع حاجات النفس من زخارف الحياة ومباهجها، ومنهم من ينطوى على نفسه ويطهرها من أدران الحياة المادية ويتطلع إلى الأمل فى الحياة الأخرى.

ومما لا شك فيه أن الصراع السياسى والفتن الداخلية، والتطاحن المرير بين الحكام كان من الأسباب التى دفعت فريقاً من الناس إلى العزلة وإيثار الدين والانقطاع إلى الله بعيداً عن هذا الصراع الزائف.

وربما اتجه فريق آخر من الناس إلى الزهد لشعورهم بالنقمة لما أصابوا من حظ ضعيف فى الحياة، فثاروا على من حولهم، وأحسوا بطغيان الخير على الشر، وأن الناس آفات وأصبحوا يتمنون الخلاص من هذه الحياة الآثمة. ويعبر ابن الطوبى عن هذه المعانى فيقول[1]:

لو قلت لى أى شىء   تهوى لقلت : خلاصى
الناس طراً أفاع   فلات حين مناص
نسوا الشريعة حتى   تفاخروا بالمعاصى
فشرهم فى ازدياد   وخيرهم فى انتقاص

---

(١) الخريدة ٤/١/ ص٧٣ وما بعدها.

ونلتقى فى الشعر الصقلى بلون من شعر الزهد يصدر عن علماء أتقياء ويراد به التذكير والتخويف من ولوج المعاصى، والتحذير من الانغماس فى حمأة الملذات، والترغيب فى الزهد والانقطاع إلى الله. ويرى الدكتور إحسان عباس أن غنى صقلية بهذا الشعرنوع من الفقر الفنى لأنه ليس إلا صورة لروح الوعظ والتذكير، وإلا تعبيراً عن تلك المدارس الفقهية التى كانت توجه حياة صقلية الثقافية. ذلك لأن هذا النوع من الشعر لا يلمح إلا الجوانب السلبية من الحياة[1].

ومهما يكن من أمر، فإن أصحاب هذا اللون من الشعر يكثرون من تناول المعانى الدينية، كما يكثرون من النصائح والمواعظ. ومن أمثلته قول أبى حفص عمر بن حسن[2]:

سيلقى العبد ما كسبت يداه	ويقرأ فى الصحيفة ما جناه
ويسأل عن ذنوب سالفات	فيبقى حائراً فيما دهاه
فماذا الجهل مالك والتمادى	ونار الله تحرق من عصاه
فعول فى الأمور على كريم	توحد فى الجلالة فى علاه
وأمل عفوه وافزع إليه	فليس يخيب مخلوق رجاه

ويحذر الفقيه السمنطاوى أولئك الغافلين الذين يدنسهم الإثم ولا يتناهون عن ارتكاب المحرمات، ويبيعون دار الخلود بثمن بخس لا يلبث أن يتبدد، فيقول[3]:

فتن أقبلت وقوم غفول	وزمان على الأنام يصول
ركدت فيه لا تريد زوالا	عم فيها الفساد والتضليل
أيها الخائن الذى شأنه الإثم	وكسب الحرام ماذا تقول؟
بعت دار الخلود بالثمن البخس	بدنيا عما قريب تزول

(١) العرب فى صقلية ص١٩٥.
(٢) الخريدة ١/٤/ ص١٢٥.
(٣) المكتبة الصقلية ص٢/ ٣٦.

ويقول مجبر بن عبدالعزيز الصقلى محذرا أولئك العصاة الذين يطمعون في عفو الله ورحمته دون أن يكفوا عن الانغماس فى المعاصى[1]:

يا من عصى الله مغرورا برحمته   أعمل لربك ما يرضى بإخلاص
إن الذى جعل الفردوس منزلة   لمن أطاع أعد النار للعاصى

ويكثر ابن حمديس من ترديد المعانى الدينية فى هذه الأبيات التى يوجهها إلى أولئك العصاة الذين لم يقدموا لأخراهم بل يستكثرون من ارتكاب المعاصى والذنوب غافلين عما ينتظرهم من حساب عسير. يقول[2]:

ما الذى أعددت للموت إذا   قدر الموت بلا شك عليك
أذنوبا كاثرت عد الحصى   بئس ما استكثرت من ´سب يديك
بئس ما يسمع من تعظيمها   ملكا القبر به من ملكيك
أى خطب فادح فى رقدة   يوقظ الحشر إليها مقلتيك
وصراط لست بالناجى إذا   وطئته زلة من قدميك
فلك الويل من النار إذا   مقلة الرحمن لم تنظر إليك

ولا يمل أولئك الزهاد من الدعوة إلى احتقارالدنيا، والتحذير من الاغترار بمظاهرها الكاذبة، فما هى إلا رحلة قصرة سرعان ما نتأهب بعدها للفراق والانتقال إلى الحياة الأخرى، ولذلك فعلينا أن نكون مستعدين للرحيل فى أية لحظة. ويعبر أبو القاسم بن عبدالغنى عن هذه المعانى فيقول[3]:

أيا من نال فى الدنيا مناه   تأهب للفراق وللرحيل
ولا تفرح بشيء قد تناهى   فما بعد الطلوع سوى النزول

ويقول الكاتب محمد بن يحيى فى المعنى نفسه[4]:

أيها المغتر بالدهر اتئد   هل نعيم فيه أو بؤس يدوم؟

---

(١) معجم السلفى (نسخة مصورة) ورقة ٣٩٠.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٤٦.
(٣) الخريدة /١/٤/ص١٣٠.
(٤) معجم السفر ص١٥٧، والمحمدون من الشعراء ص٦٩.

وقد نجد من بين أولئك الزهاد من يتصدى لمن ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى فيجادلهم جدلاً عقلياً مما يتمثل فى قول عبدالله بن مبارك وقد وصف بأنه من أهل الديانات[1] :

تأمل لعل الله يعقبك الهدى	فشاهد ذاك العقل إن لم يكن نسك
أليس الذى قد نظم العقد بدأة	ينظمه عودا إذا انتثر السلك؟

وإذا تركنا أصحاب هذا اللون من شعر الزهد الذى يحمل طابع النصائح والمواعظ، ويصدر عن الفقهاء والعلماء، فإننا نلتقى بلون آخر من الزهد يصدر فيه الشعراء عن تجارب ذاتية عمقتها فى نفوسهم أحداث الحياة، فاستحصدت تجاربهم بعد أن شغلوا أنفسهم بملذات الحياة ردحاً من الزمن واكتشفوا فى نهاية المطاف أن ما ظنوه نعيما وفردوسا لم يكن إلا وهما وسرابا، فأفاقوا من غفلتهم، وندموا على ما فعلوا، وزهدوا فى الدنيا، وأخذوا يتباكون على ما فات، ويتقربون إلى الله عسى أن يصلح أفئدتهم ويغفر زلاتهم وخطيئاتهم، ويتقبل توبتهم، وكان ابن حمديس الصقلى من أصدق الشعراء تعبيراً عن هذا الموقف فقد أكثر من البكاء بين يدى الله، والتضرع إليه بأن يصلح قلبه، ويغفر ذنوبه، ويقبل توبته . يقول[2] :

سألتك يا مولى الموالى ضراعة	وقد يضرع العبد الذليل إلى المولى
لتصلح لى قلبا، وتغفر زلة	وتقبل لى توبا، وتسمع لى فعلا
ولا عجب فيما قد تمنيت إننى	طويل الأمانى عند من يحسن الطولا

وفى هذا اللون من الشعر الذاتى يكثر الشعراء من الشكوى والبكاء، والإحساس بالندم على ما ارتكبوه من آثام، ويحاولون أن يكفروا عن ذنوبهم بالتقرب إلى الله، وطلب الصفح والغفران. يقول أبو عبدالله ابن قاسم اللخمى[3] :

(١) المغرب فى حلى المغرب (مخطوط) ٤/ص٣٥٠.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٤٠٠٢.
(٣) الخريدة ١/٤/ص١٤٠.

يـــا رب صـــفحا وغفـــرانا ومعـــذرة ... لمـــذنب كثـــرت مـــنه المعاذيـــر
يبكـــيه إجـــرامه طـــورا ويـــضحكه ... رجـــاؤه فهـــو محـــزون ومـــسرور

ويكثـر هـؤلاء الـشعراء من الدعوة إلى تحقير الدنيا، وأخذ الحذر منها، فكـل مـا فـيها سـراب، وأن يخـرج مـنها المرء في آخر الأمر إلا برداء بال من تراب. وفي ذلك يقول أبو العرب الصقلي[1]:

أرى الدنـــيا الدنـــية لا تواتـــي ... بعـــالج فـــي التـــصرف والطـــلاب[2]
ولا يغـــررك مـــنها حـــسن بـــر ... لـــه بـــردان مـــن ذهـــب الـــذهاب
بأولـــه رجـــاء مـــن ســـراب ... وآخـــره رداء مـــن تـــراب

وقـد يعـبر الـشعراء عن قلقهم لما يرونه أمامهم من فساد وفتن تزيد كل يـوم، ويخـوض فـي غمـراتها ذوو الجهـل، فتـزداد الشرور والآثـام، ويجد المرء نفسه مذنبا، ويكتشف أن اللجوء إلى الله والاعتصام به هو خير زاد. ويعبر أحد الشعراء عن هذه المعاني فيقول[3]:

أرى فـــتن الدنـــيا تـــزيد وأهلـــها ... يخوضـون بالأهـوال في غمرة الجهل
فما إن ترى من مخلص ذي بصيرة ... وما إن ترى من صادق القول والفعل
إلى الله أشـــكو مـــا أرى مـــن تغـير ... وإيـاه أدعـو فـي إيابـي علـى مهـل
فيا سوء حالي حين أصبحت فارغا ... ولم أدخـر زادا ومازلـت فـي شـغل

وكـان نـداء المشيب نذيـرا للـشعراء يـشعرهم بدنـو أجلهم، وأن ساعة الرحيل تقترب، فكانوا يستيقظون من غفلتهم، ويرون الدنيا على حقيقتها، ولا يجـدون أمـامهم من سبيل غير الزهد والتقرب إلى الله وإعلان التوبة. ويعبر ابن القطاع عن هذه المعاني فيقول[4]:

---

(١) الذخيرة ١١١/٢/٤ (مخطوط).
(٢) كذ بالمخطوط ولعلها (بعاجل).
(٣) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ص١٠٦.
(٤) الخريدة ٥٤/١/٤ وما بعدها.

تنــبه أيهــا الــرجل النــنوم فقــد نجمــت بعارضــك الــنجوم
وقــد أبــدى ضــياء الــصبح عمــا أجــن ظلامــه اللــيل البهــيم
فــلا تغــررك يــا مغــرور دنــيا غــرور لا يــدوم لهــا نعــيم
ولا تخــبط بمعــوج غمــوض فقــد وضــح الطــريق المــستقيم

وقد تطور مفهوم الزهد عند بعض الشعراء فاقترب من الرهبنة، ولذلك لم يكن غريبا أن نسمع أحدهم يدعو إلى العزوبة وينفر من الزواج وما يجره من متاعب ومشكلات مما يتمثل في قول ابن مكي[1]:

من كان منفردا في ذا الزمان فقد نجا من الذل والأحزان والقلق
تزويجنا كركوب البحر ثم إذا صرنا إلى ولد صرنا إلى غرق

وقد اقترن بتلك الموجة من الزهد موجة أخرى من التصوف، ويبدو أن بعض الشعراء كانوا ينقطعون للتصوف والزهد على شاكلة موسى بن أصبغ المرادي فقد وصف بأنه كان زاهداً أديباً شاعراً منقطعاً إلى الله في بعض زوايا صقلية، وله قصائد طوال في الزهد، منها قصيدة على حروف المعجم لكل حرف عشرون بيتاً وله من قصيدة طويلة[2]:

متى يعتلي عزمي ويذكي سنا لبي وأسقى بكأس الصدق من مائه العذب
فتحيا بها نفس أضر بها المنى ويحسن لي عيشي ويعذب لي شربي
وتنعش أفكاري بروح نسيمه ويرضى الرضى روحي ويهوى التقى قلبي

ويبدو أن بعض الناس كانوا ينظرون إلى التصوف نظرة سطحية، ويفهمونه على أنه يعني التستر بلبس الصوف، وإقامة حلقات الرقص والطرب، وأداء بعض الحركات الغريبة. وفي ذلك يقول أبو الحسن ابن الطوبي[3]:

---

(1) الخريدة ١٢٧/١/٤ وما بعدها.
(2) بغية الملتمس ص٤٤٠.
(3) الخريدة ٧٣/١/٤.

ليس التصوف لبس الصوف ترقعه	ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب	ولا تغاش كأن قد صرت مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر	وتتبع الحق والقرآن والدينا
وأن ترى خائفاً لله ذا ندم	على ذنوبك طول الدهر محزونا

واتصل بهذا الجانب من الشعر اتجاه بعض الشعراء إلى نظم المدائح النبوية ولكننا لا نستطيع أن نحكم عليها حكماً صحيحاً لندرتها بين أيدينا. وأغلب الظن أنها كانت تمثل اتجاهاً صوفياً. ومن أمثلتها هذه الأبيات لأبي الفضل جعفر بن الطيب الصقلي وفيها يقول[1]:

يا سيد الرسل الكرام	ومن أتى بالمعجزات
لو لم يكن غير ما	أوتيت من حسن الصفات
لقهرت كل معاند	وعلوت فوق النيرات
لك هيبة وجلالة	سارت إلى كل الجهات
ومودة تلقاك من	كل العيون الناظرات
صلى الإله عليك ما	قطرت دموع الجاريات

• • • • •

(١) معجم السلفي ورقة ١٦٣.

ثالثاً : سقوط صقلية وأثره فى الشعر

- الصقليــات
- الحنـين إلى الوطـن

الصقليات

ونعنى بها القصائد التى تمثل صقلية وسقوطها فى أيدى الأعداء وكيف كان وقع هذه المأساة فى نفوس الشعراء.

ومما يلفت الانتباه هنا أن مواقف الصقليين قد تباينت إزاء ذلك الحدث الجلل الذى أصاب وطنهم، وكان لهذا التباين أثره فى الشعر، فمنهم من استسلم للمأساة، وأقنع نفسه بأن تلك هى إرادة الله، وأنه لاراد لقضائه، فازدرد أحزانه، وانطوى على نفسه، واستسلم لواقعه الأليم. ومنهم من نظر إلى هذه المأساة نظرة دينية، فاعتقد أن ماحل بوطنه كان عقاباً من الله أنزله بالناس نظير ما اقترفوه من ذنوب، فقد أنعم الله عليهم بالفتح، وغلبهم على أعدائهم، ولكنهم لم يشكروا نعمة ما خولوا، وأشعلوا نيران الفتنة بينهم وأصيبوا بذلك الداء العضال الذى أصيبت به أمم من قبلهم، فأذن الله بانقراضهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾[1]. وقد عبر أحد الشعراء الصقليين عن هذه المعانى فقال[2]:

(مديـــنة) كانـــت وكـــنا بهـــا	فـــى ظـــل عـــيش نـــاعم رطـــب
مـــد علـــيها الأمـــن أســـتاره	فـــسار ذكـــراها مـــع الـــركب
لم يـــشكروا نعمـــة مـــا خولـــوا	فـــبدلوا الملـــح مـــن العـــذب

ولسنا بصدد مناقشة قرب هذا الرأى أو بعده عن الحقيقة، ولكن يعنينا أن نقول إن الجماعة إذا انتهت إلى هذا التلاوم فى تحديد المسئولية فقدت

(١) سورة الإسراء، آية ١٦.

(٢) العرب فى صقلية ص١٨٤.

القدرة على أن تلتمس طبيعة المأساة نفسها فى فقد الوطن[1]. ولذلك فمن الصعب أن نظفر بشعر يعبر فيه أصحاب هذا الرأى عن مأساة وطنهم.

أما من كانوا يؤمنون بوطنهم إيماناً قوياً، فقد أحدثت المأساة فى نفوسهم آثاراً هائلة، فأحسوا بأنهم نكبوا فى أعز ما يملكون، وأخذوا يجوبون بلاد الأرض طولاً وعرضاً يعانون من التشرد والتمزق والضياع، ولا يجدون ما يخلدون به مأساة هذا الوطن السليب غير دموعهم وأحزانهم، وما يحملونه فى قلوبهم من ذكريات طيبة، ومشاعر حزينة.

والواقع أن الشعر الصقلى لم يعش بمعزل عن تلك الأحداث التى عاشتها صقلية، ولاسيما هذه الفتنة الأخيرة التى انتهت بزوال السيادة الإسلامية من الجزيرة وأدت إلى أفول شمس الخلافة العربية من هذه البقعة العزيزة، فقد حركت تلك الفتنة أحاسيس الشعراء، وأهاجت مشاعرهم، فصوروا هذه المأساة الأليمة فى قصائد تبكى الوطن تارة، وتنحى باللائمة على من تسببوا فى ضياعه تارة أخرى. وقد بخلت علينا مصادر الأدب — لسوء الحظ — بكثير من هذه القصائد ولم تبق لنا غير القليل منها وإن كان لا يخلو من تلك الظلال الباكية الحزينة.

فمما أبقته لنا المصادر قصيدة تعد من طوال الصقليات، سجل فيها أبو محمد القاسم بن عبدالله التميمى وقائع الأحداث الأليمة التى عاشتها صقلية أبان الفتنة، ولام فيها الصقليين على تماديهم فى الفتنة، واقتتالهم فيما بينهم، وصور تلك النهاية الحزينة التى دخل الإفرنج فيها الجزيرة، وقاتلوا أهلها، وغلبوا عليها. وقد بدأها بمقدمة غزلية قال فيها[2]:

---

(١) العرب فى صقلية ص١٨٣.

(٢) عنوان الأريب ١/ ١٣٥.

أبيت وجفني من جفانك نائم ... وقلت بما قالته فيك اللوائم
وعهدي بذاك الدر غير مثقب ... فكيف أجادته بفيك النواظم
وعندي حديث لو أمنت أذعته ... ألا حبذا غيث تعيه المناسم

ويمضى فيصور تلك الأحوال التى آلت إليها صقلية إبان الفتنة، وما آلت إليه الأمور من فساد أدى إلى اشتعال نيران العداوة بين الناس ففسدت أخلاقهم، واتخذوا البغى شريعة لهم، وحادوا عن جادة الصواب. يقول[1]:

سقى الله هيم الغرب لا بعض هامه ... كما يمنع الغمض السليم المنادم
وما كنت أسقى الغرب لو كان لم تكن ... صقلية منه وإن لام لائم
رزينا بذات البين حتى كأننا ... نرى أن من يبغي سوى البغي آثم
يغير الفتى منا على مال نفسه ... ويقتله عدوا أخوه الملائم
يجور دليل القوم عن سبل رشده ... ويمضي على المكروه من هو نادم

ويمضى الشاعر فى تصوير هذا الواقع الأليم، فيقول إن أمور الناس قد اضطربت اضطرابا عظيماً، وغدوا يتنازعون على أشياء تافهة، واشتعل القتال فيما بينهم زمناً طويلاً، يقول[2]:

نروح ونغدو في أمور لو انه ... رأى بعضها ما عاود النوم حالم
كأن بحارا بالوغى وكأنما ... معاركنا طول الزمان مواسم
فطورا نذود الموت عنا وتارة ... نموت كما مات الحماة الأكارم
فلو كان سلما ذلك الحرب بيننا ... ثلاثين عاما ضامنا منه ضائم

ويعود الشاعر بذاكرته إلى تلك الأيام الخوالى حين كانت روح الوحدة والتآلف ترفرف على بنى قومه حتى استطاعوا بوحدتهم أن يحققوا انتصارات باهرة، وأن يصبحوا قاب قوسين أو أدنى من بلاد الروم. وفى ذلك يقول[3]:

وكانت بلاد الروم طوع سيوفنا ... إذا رامها منا على البعد رائم
فإن نال منا الناس أو قل كثرنا ... فقد تقتل الحمى وتردى السمائم

---

(١) نفسه ١/ ١٣٦.
(٢) عنوان الأريب ١/ ١٣٦.
(٣) عنوان الأريب ١/١٣٦.

ولكن شتان بين حال صقلية عندما كانت هى الغازية، وبين حالها الآن حين أصبحت هى المغزوة، فها هى النهاية تقترب، وها هى قوات الروم تترى لتهاجم الصقليين فى عقر دارهم بعد أن مزقت الفتنة الجزيرة وتركتها أشلاء وحطاما.

ويصور الشاعر تلك النهاية الحزينة فيقول[1]:

سلينى عن الإفرنج إن شئت واسمعى ... حديثا كنشر الروض والروض ناعم
أتونا ولكن بالدروع أساودا ... ولكن أتينا والسيوف عزائم
على كل مشكول الطريد كأنما ... قوائمه عند الطراد قوادم
إذا ما علا منا على الظهر فارس ... فليس بعيداً أن تطير القوائم
سماء وأرض من جناح وحافر ... وليل وصبح جحفل وصوارم
فلا دجن إلا أن تثور عجاجة ... ولا مزن إلا أن تخر جماجم
كأنهم قد أحجموا حين أقدموا ... وغير عجيب غابة وضراغم
هو النصر حتى كل أعزل رامح ... وحتى قرون الغانيات عمائم
وقد تسعد الأقوام شقوة غيرهم ... ألا رب أعراس دعتها مآتم

ويختم الشاعر قصيدته بكثير من الحكم على عادة الشعراء القدماء أو تقليداً للمتنبى الذى يحتذيه فى قصيدته "على قدر أهل العزم تأتى العزائم". وهى حكم تتمشى مع الجو النفسى العام الشائع فى القصيدة، وتتواءم مع ذلك الإحساس الواحد الذى ينتشر فيها، ويهيمن على أبياتها، ويترك فى نفس من يقرؤها أثراً حزيناً، ويتصاعد هذا الإحساس فى نفوسنا بعد الانتهاء من قراءة تلك الحكم، ففيها إعلان بنهاية تلك المأساة الحزينة، وفيها ذلك النغم الخافت الحزين وتلك الروح اليائسة العاجزة عن أن تفعل شيئاً، وفيها ذلك الإحساس الصادق بمتناقضات الحياة، فما دام الإنسان لن يحقق لنفسه النجاة بالهرب، فليس أمامه إلا الصمود، فقد يقتل ذلك الذى يحرص على حياته، وقد توهب الحياة لمن يحرص على الموت، وقد يكون فى الموت عزة، وفى الحياة مذلة،

(١) نفسه ١/١٣٦ وما بعدها.

وعلى هذا النحو يمضي الشاعر في جمعه بين الأضداد والمتناقضات، فيقول إن كل شيء نسبي في هذه الحياة، فإن ما يتخيله المرء حلما قد يكون جهلا، وقد لا يرفع الظلم إلا ظلم مثله، وقد يصبح غمد السيف رثا أو كلا ولكن غرارة حليه تخدع الناظرين فيأخذون بالظاهر ويتركون الباطن، ومهما يكن من أمر فما على المرء إلا أن يرضى بمصيره، ويقنع بواقعه أيا كان هذا الواقع يقول[1]:

إذا كان لا ينجيك أنك هارب	فلم يبق حزم غير أنك هاجم
فقد يقتل المرء ابتغاء حياته	وأكثر من يبغي المنية سالم
وطيب حياة المرء في عز موته	وما الموت إلا أن تهون الكرائم
وقد يجهل الإنسان في بعض حلمه	ويحمل عنك الظلم أنك ظالم
وما السيف إلا ما غرارة حلية	وإن رث منه غمده المتقادم
كأنك في دنياك مازلت جاهلا	إذا كنت لم ينفعك أنك عالم
فلا تتزود غير ما أنت واجد	إذا رحت يقظانا كأنك نائم

ولم يكن هذا الشاعر وحده هو الذى صور تلك الأحداث الأليمة التى عاشتها صقلية فقد شاركه في ذلك شعراء آخرون من مثل ابن حمديس وغيره فمن ذلك هذه الأبيات لابن حمديس يصف فيها تلك الفتنة الحزينة التى جعلت الصقليين شيعا وأحزابا، وصيرت أهواءهم بددا. يقول[2]:

أحين تفانى أهلها طوع فتنة	يضرم فيها ناره كل حاطب
وأضحت بها أهواؤهم وكأنما	مذاهبهم فيها اختلاف المذاهب
ولم يرحم الأرحام منهم أقارب	تروى سيوفا من نجيع أقارب
وكان لهم جذب الأصابع لم يكن	رواجب منها حانيات الرواجب

(١) عنوان الأريب ١/ ١٣٧.
(٢) ديوانه ص٣١.

ولقد حاول المعز بن باديس أن يخمد نيران تلك الفتنة، وأن ينقذ ما يمكن إنقاذه، ونجح في ذلك أول الأمر، وآزره بعض الشعراء بقصائدهم من مثل محمد بن الفقيه الكلاعي الصقلي، وقد مدحه بقصيدة قال في مطلعها[1]:

الله أكبر أودى الجور وانقشعت سحب النفاق، وزال الحادث النكر

وقد أشاد فيها بعظمة جيوشه، ونجاحه في كشف الضر عن الصقليين، وقضائه على من تسببوا في إشعال نار الفتنة. وفي ذلك يقول[2]:

يا أيها الملك الميمون طائره	وكاشف الضر عن قوم به انتصروا
غادرت كل عزيز كان ممتنعا	ووجهه بين أيدي الخيل منعفر
رميتهم بخميس لو رميت به	دعائم الدهر كادت منه تنفطر
ما طال بغي أناس قط من بطر	إلا وأصبح في أعمارهم قصر
إن غرهم منك حلم قد عرفت به	فالمرج يضرم نارا عوده النضر

ولكن المعز لم يمض في جهوده حتى النهاية، وسرعان ما أخفقت محاولاته وباءت مساعيه بالفشل، وعادت الفتنة تطل برؤوسها من جديد ولم تنته إلا بسقوط صقلية في أيدي الأعداء، وزوال السيادة الإسلامية عنها إلى الأبد.

ولكن، كيف كان وقع ذلك المصاب الكبير في نفوس شعرائها الكبار أمثال ابن حمديس وابن الخياط، وأبي العرب الصقلي؟.

لقد شردت النكبة كثيراً من الشعراء فهاجروا من وطنهم وأصبحوا يعيشون في بلاد أخرى غريبة. أما أبو العرب الصقلي فقد خدعه بريق المال وظن أنه سيحقق بشعره في الأندلس مالم يحققه في صقلية من ثراء وشهرة، فتعلق بالأحلام الواهية، وذهب يفلسف تشرده على طريقة التصبر الكاذب،

(١) المحمدون من الشعراء ص٧٠.
(٢) نفسه ص٧٠ – ٧١.

وأوهم نفسه بأن كل البلاد بلاده مادام أصل الناس واحداً، وإذا كان قد فقد وطنه، فسوف يجد في غيره ما يؤمله. وفي ذلك يقول[1]:

علــى لآمــالى اضــطراب مــؤمل	ولكن على الأقدار نجح المطالب
إذا كـان أصـلى مـن تـراب فكلـها	بــلادى وكــل العــالمين أقاربــى
ويـا وطنــى إن بـنت عنــى فإننــى	سـأوطن أوكـار العـتاق الـنجائب

وتدل هذه الأبيات على أن إحساس أبي العرب بضياع وطنه لم يأخذ في نفسه شكل المأساة. حتى تلك المعادلة التي يحاول أن يوهم نفسه بصحتها، كل تراب بلد، وكل العاملين أقارب — لا تعبر إلا عن صلة ميتة، لم ينفخ فيها التجاوب الشعوري شيئاً من روحه فيجعل منها وطناً[2].

أما ابن الخياط فقد أحدثت الفتنة أثراً عكسياً في نفسه، فبدلاً من أن يبدي مشاعر الحزن والألم إزاء تلك النكبة التي ألمت بوطنه، إذا به ينساق مع الحزبية، ومع حبه لأسرة الكلبيين التي أسقطتها الفتنة، ويتشفى بحال الجزيرة التي أصبحت أشلاء ممزقة، ويشبع في نفسه ونفس أسياده شعورهم بأن صقلية تجني لقاء ما قدمت، لا من إساءة اقترفتها في حق نفسها، ولكن من خطأ اقترفته في حق الكلبيين. وهو إخلاص شاعر عاطفي في ساعة عاطفية[3].

لقد نسي ابن الخياط أو تناسى ما ألم بوطنه، ولم يجد في حاله البائسة ما يستحق البكاء، ونظر إلى المأساة على أنها تكفير لما حل بالكلبيين، وتضاءل هذا الإحساس في نفسه إلى حد أنه رأى في مأساة وطنه شيئاً يتسلى به، وذلك حين يخاطب بني أبي الحسين، بقوله[4]:

---

(1) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (مخطوط) ٤/٢٥٣.

(2) العرب في صقلية ص١٨٤.

(3) نفسه ص٢١٤.

(4) المختار من شعر بشار ص٢٣٣.

ليسلكم أن الجزيرة بعدكم كما قيل في الأمثال لحم على وضم
تركتم بقايا حسنكم في خرابها كما ذبل النوار في خلل الحمم

وكان ابن الخياط قد وقف إبان الفتنة يرتدى ثياب الحكماء ويحذر بنى قومه من عواقب الأمور، وعندما حققت الأيام ظنه، وقف يذكرهم بما كان، يقول[1] :

وقلت تلافوا شجة الدهر إنها إذا نغلت أعيت مطبة آس

وكان كل همه أن يستخلص الحكمة مما جرى وكان، ويحذر من الاستهانة بأى أمر مهما كان صغيرا، فرب شأن حقير تتمخض عنه شئون خطيرة[2] :

لا يهن بعدها عليك حقير رب شأن يكون منه شؤون

أما ابن حمديس، فقد عاش مأساة وطنه بكل أبعادها، ولعلنا لانجد شاعرا بكى وطنه كما بكاه هذا الشاعر الصادق. "ولم يكن ابن حمديس يحمل بنى وطنه مسئولية ضياعه كما فعل بعض الشعراء الصقليين، لأنه كان يقدر دور الجهاد الذى قامت به سرقوسة ونوطس وقصريانه، ولذلك فإنه إذا تحدث عن الفتن بين قومه مر بها مرورا سريعا لأنه موضوع يكرهه ويراه مناقضاً لما يحس به من حقيقة"[3].

لقد عاصر ابن حمديس أحداث تلك الفتنة البغيضة التى نزلت بوطنه فمزقته شر ممزق، كما عاصر وقائع هجوم الأعداء عليه. وفى تلك الفترة أخذ يشجع بنى قومه على الصمود ويحرضهم على الجهاد، ويحذرهم من الاستسلام للأعداء. ويمكن أن نسمى قصائده التى قيلت آنذاك بقصائد الصمود أو "عهد الرجاء". من هذه القصائد قصيدته التى يقول فى مطلعها[4] :

(١) المختار من شعر بشار ص٧٣.
(٢) نفسه ص١٧٢.
(٣) العرب فى صقلية ص٢٤٩.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٤١٦.

بني الثغر لستم في الوغى من بني أمي | إذا لم أصل بالعرب منكم على العجم
وفيها نسمع صوت ابن حمديس الحكيم يحذر قومه من خطر العدو، ويحرضهم على إعداد العدة لملاقاته، ويشجعهم على الثبات في الحرب فيقول[1]:

دعوا النوم إني خائف أن تدوسكم | دواه، وأنتم في الأماني مع الحلم
وكأس بأم الموت يسعى مديرها | إلى أهل كأس حثها بابنة الكرم
فردوا وجوه الخيل نحو كريهة | مصرحة في الروم بالثكل واليتم
وصولوا ببيض في العجاج كأنها | بروق بضرب الهام محمرة السجم
فقرع الحسام الرأس من كل كافر | أحب إلى سمعي من النقر في البم

ويمضي ابن حمديس في حث بني وطنه على الصمود والذود عن بلدهم، ويحذرهم من التفريط فيه، أو التخاذل في الدفاع عنه، لأنهم إن فقدوه فسوف يقاسون التشرد والضياع، ويصبحون أذلاء في البلاد الأخرى، ولن يجدوا في وطن آخر عوضا عن وطنهم وهل يمكن للخالة الجداء أن تغني عن الأم الرءوم؟ يقول ابن حمديس[2]:

ولله أرض إن عدمتم هواءها | فأهواؤكم في الأرض منثورة النظم
وعزكم يفضي إلى الذل والنوى | من البين ترمي الشمل منكم بما ترمي
فإن بلاد الناس ليست بلادكم | ولا جارها والحلم كالجار والحلم
أعن أرضكم يغنيكم أرض غيركم | وكم خالة جداء لم تغن عن أم

وينتقل ابن حمديس من التعميم إلى التخصيص، فيخاطب أخاه في الوطن، ويهيب به أن يتمسك بأرضه، وأن يموت مدافعا عنها، ويحذره من مغبة تركها، أو الهجرة عنها إلى أرض أخرى، فتلك تجربة قاسية ظل ابن

(1) المصدر نفسه ص416.
(2) المصدر نفسه ص417.

حمديس يعانى منها طوال حياته، ولذلك فهو لا يريد لأخيه أن يكابد ما كابده أو يعانى ما عاناه. يقول[1]:

أخلــى الــذى ودى بــود وصــلته	لدى كما نيط الولى إلى الوسمى
تقـيد مــن القطــر العزيــز بمــوطن	ومت عند ربع من ربوعك أو رسم
وإيــاك يــوما أن تجــرب غــربة	فلــن يــستجيز العقــل تجــربة الــسم

ومـن المـؤكد أن هذه القصيدة وأمثالها كانت تحدث أثراً قوياً فى نفوس الـصقليين ولكـن ظروف الفتنة كانت أقوى أثرا منها، فلم تلبث سرقوسة أن أن استـسلمت، وبعدها سقطت قصريانة، وغلب الروم على صقلية، فضاعت وضاع معهـا الأمـل الـذى عـاش من أجله ابن حمديس، ولم يجد شاعرنا ما يخلد به مأسـاة وطـنه غـير دمـوعه الغزيـرة التـى ظـل يـذرفها حتـى الموت، وغير تلك القصائد الطوال التى تبكى وطنا أضاعه أهله نتيجة جهلهم وسوء تصرفهم. ومن تلك القصائد قصيدة يقول فى مطلعها[2]:

لأمـر طـويل الهـم نزجـى العرامـسا	وتطــوى بــنا أخفــافهن البسابــسا

وفـى هـذه القـصيدة يطلـق ابـن حمـديس العنان لدموعه التى حاول أن يحبـسها مـن قـبل، ويستـسلم لأحزانه التى استبدت به وتمكنت من قلبه. لقد كان شاعرنا يعيش على أمل أن تعود أرضه لأصحابها، وكان يظن أن تلك الغمة سـوف تنقـشع، ولكـن الأيـام خيبت رجاءه، فساءت ظنونه، وتسلل اليأس إلى قلـبه، بعـد أن كان يحمل نفسه على الصبر والتأسى وهو يرى وطنه يكابد ذلك الـداء القاتـل، ولكـن لم يعـد للـصبر مجال بعد أن سيمت بلاده الهوان والذل، وبعـد أن فـتحت أبـوابها للنصارى يصيرون مساجدها كنائس، ويطمسون معالم الإسلام فيها. يقول ابن حمديس[3]:

(١) نفسه ص ٤١٨.
(٢) المصدر نفسه ص٢٧٤.
(٣) ديوان ابن حمديس ٢٧٤.

أعاذل دعني أطلق العبرة التي عدمت لها من أجمل الصبر حابسا
فإني امرؤ آوى إلى الشجن الذي وجدت له في حبة القلب ناخسا
لقدرت أرضي أن تعود لقومها فساءت ظنوني ثم أصبحت يائسا
وعزيت فيها النفس لما رأيتها تكابد داء قاتل السم ناحسا
وكيف وقد سيمت هوانا وصيرت مساجدها أيدي النصارى كنائسا
إذا شاءت الرهبان بالضرب أنطقت مع الصبح والإمساء فيها النواقسا

ونمضي مع أبيات القصيدة فنحس بنبضات قلب شاعرنا تزداد خفقاناً، وأحزانه تنمو وتتكاثر، وتتجسد أمام أعيننا صورة تلك المأساة الأليمة، وما نجم عنها من آثار حزينة في نفوس الصقليين، فقد أصبح الخوف يستبد بهم، وامتلأت قلوبهم رعباً وفزعاً، وأصبحوا أذلاء بعد أن كانوا أعزة. وفي ذلك يقول ابن حمديس[1]:

صقلية كاد الزمان بلادها وكانت على أهل الزمان محارسا
فكم أعين بالخوف أمست سواهراً وكانت بطيب الأمن منم نواعسا
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه فأضحى لذاك الخوف منهن لابسا

ويعود ابن حمديس بذاكرته إلى الوراء قليلاً، ويتمنى لو أن عقارب الزمن تتوقف لكي يرى الناس صقلية الظافرة أيام عزها وسلطانها، حين كان الأعداء يصبحون أقزاماً ضئيلة أمام أبنائها الأسود الجبابرة الذين فتحوا القلاع والحصون وغزوا (قلورية) وهددوا الروم في عقر دارهم. وفي ذلك يقول ابن حمديس[2]:

عدمت أسوداً منهم عربية ترى بين أيديها العلوج فرائسا
فلم ترى عيني مثلهم في كتيبة مضارب أبطال الحروب مداعسا
أما ملئت غزوا (قلورية)[3] بهم وأردوا بطاريقاً بها وأشاوسا[4]

(١) المصدر نفسه ص٢٧٥.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٧٥.
(٣) قلورية calabria إحدى ولايات جنوبي إيطاليا.
(٤) البطريق – القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل.

هــمْ فــتحوا أغلاقهــا بــسيوفهم	وهــم تــركوا الأنــوار فــيها حنادســا
وســاقوا بأيـدى الـسبى بيضا حواسرا	تخــال علــيهن الــشعور برانــسا

ولكـن الـزمن لا يعـود إلى الـوراء، ودوام الحـال مـن المحـال، فها هى الظـروف تتـبدل والـزمن يقلـب للـصقليين ظهـر المجـن. وهـا هـى مدن صقلية تـتهاوى، مدينة فى إثْر مدينة وها هم الأعداء يحتلون قصريانة ويغيرون معالمها الإسلامية، وها هى بلدته سرقوسة تستباح بعد أن غاب أهلها تحت ثراها، ولو أنهم كانوا على قيد الحياة لما تركوهم يطأون بأقدامهم فيها ولكن هكذا الحياة! فحين يغيب الأسد عن الغيل يتبختر الذئب فى أرجائه كيف شاء[1]:

أفــى قــصرينى[2] رقعــة يعمــرونها	ورســم مــن الإســلام أصبح دارســا
ومــن عجــب أن الــشياطين صيرت	بــروج الــنجوم المحــرقات مجالــسا
وأضــحت لهــم سرقوســة دار مــتعة	يــزورون بالديــرين فــيها النواوســا
مــشوا فــى بلاد أهلها تحت أرضها	ومــا مارســوا مــنها أبــيا ممارســا
ولــو شــققت تلـك القـبور لأنهـضت	إلــيهم مــن الأجـداث أسـداً عوابـسا
ولكــن رأيــت الفــيل إن غــاب ليـثه	تــبختر فــى أرجائــه الــذئب مائــسا

وهـذه القـصيدة كمـا نرى بناء شاهق، وقد لاحظ الدكتور إحسان عباس أن قـصائده التـى نظمهـا بعد ضياع صقلية مباشرة تمتاز بوشيجة تنظم أجزاءها وتـضمن لهـا الاتـساق والانـسجام، فهـى بـناء ضـخم مـن حيث النغم وتراكب الأجـزاء وتسلـسلها، ومـا يلفت الانتـباه أيـضاً أن أكثر قصائده فى هذه الفترة بخلاف المقطوعات التى نظمها وهو فى صقلية جاءت على البحر الطويل[3].

(١) ديوان ابن حمديس ص٢٧٦.
(٢) قصرينى أو قصريانة : مدينة كبيرة بصقلية من إقليمها الشرقى.
(٣) العرب فى صقلية ص٢٥٠.

الحنين إلى الوطن

هاجر كثير من الشعراء الصقليين بعد ضياع وطنهم، وفارقوا أهلهم وأحبابهم وعشائرهم، وعانوا من التشتت والتشرد في شتى البلدان، وكانت تجربة الغربة عميقة في نفوسهم، فلم ينسوا ذلك الوطن السليب، أو الفردوس المفقود، وظلت صورته ماثلة في أذهانهم لا تفارقهم لحظة واحدة.

وقد انعكس ذلك الإحساس على الشعراء فصوروا فيه هذه النزعة، وبثوا فيه زفراتهم وأحزانهم، فجاءت قصائدهم محملة بظلال الحزن والكآبة، وكانت هذه النزعة من الحنين تزداد توهجاً في نفس الشاعر حين تصله رسالة من أهله أو أصدقائه، أو حين يلم به خطب من الخطوب، أو حين يتعرض لظروف قاسية في ذلك البلد الغريب. ومن أمثلة هذا اللون من الشعر هذه الأبيات للشاعر الصقلي عمر بن رحيق الذي عاش أغلب أيام حياته في صقلية وهجرها عند غلبة الروم عليها، ولكنه كان دائم الحنين والشوق إليها، ويعبر عن هذا الحنين فيقول[1]:

نفسي تحن إلى أهلي وأوطاني	وهل رأيتم محبا غير حنان
كانوا بقلبي أحياء وفي كبدي	نار تأجج من شجوى وأحزاني
ماضر حين نأوا لو ودعوا دنفا	رهن الحوادث في كف الهوى عان
عز اصطباري لرزء قد دهيت به	وبان عني لوشك البين سلواني

ويشتكي أبو الفضل جعفر بن الطيب الصقلي من لوعة الفراق، وما يقاسيه من البعد والشتات، فيقول[2]:

---

(١) المسلمون في صقلية لأحمد توفيق المدني ص٢١٠.

(٢) معجم السلفي ورقة ١٧٧.

عظـــم اشـــتياقى والـــنوى أبـــت التدانـــى والوصـــول
والله يعلـــم صـــدق مـــا تحـــت الـــضلوع ومـــا أقـــول
عـــشرون عامـــا فـــرقة هـــيهات مـــا يغنـــى الرســـول

ويعبر أبو الفضل الفكهرى عن ذلك الإحساس بعد أن حرم من أهله وأحبائه زمناً طويلاً ولم يكن له صبر على فراقهم ولو ساعة واحدة، ويتضاعف فى نفسه الشعور بالحنين فيدعو الله بأن يقرب المزار ويجمعه بأهله وأحبائه. يقول[1]:

خليلى مالى قد حرمت التدانيا وأصبحت عن وصل الأحبة نائيا
وما كان لى صبر على البين ساعة فها أنا فى بين سنين ثمانيا
رعى الله أحبابا وقرب دارهم وبلغ مشتاقا وأطلق عانيا

ولكن نزعة الحنين هذه لم تبلغ من نفس شاعر مثلما بلغته عند ابن حمديس فقد كان هذا الشعور عارما فى وجدانه، خافقاً فى أحشائه، لم تزده السنون إلا قوة، ولم يزده فراق الوطن إلا حباً له، وتمسكاً به، وتلهفاً عليه، وقد جرى على لسانه شعر كثير صور فيه تلك النزعة تصويراً صادقاً. فمن ذلك قوله من قصيدة[2]:

بحكم زمان يا له كيف يحكم يحرم أوطاناً علينا فتحرم
لقد أركبتنى غربة البين غربة إلى اليوم عن رسم الحمى بى ترسم

ويقول متشوقاً إلى بلده مصوراً حنينه وذكرى صباه[3]:

أحن إلى أرضى التى فى ترابها مفاصل من أهلى بلين وأعظم
كما حن فى قيد الدجى بمضلة إلى وطن عود من الشوق يرزم
وقد صفرت كفاى من ريق الصبا ومنى ملآن بذكر الصبا فم

(١) الخريدة ٤/١/ص١١٤.
(٢) ديوانه – ص٤٠٨ – ق٢٦٧.
(٣) ديوانه ص٤١٦.

لقد كتبت الأقدار على ابن حمديس أن يطوف في الآفاق، وأن ينتقل من صقلية إلى الأندلس ثم إلى إفريقية، وقد عاش في إشبيلية وبجاية والمهدية وهي مدن قد لا تقل روعة عن سرقوسة ونوطس، ولكنها لم تستطع أن تنسيه صقلية التي عشق كل شيء فيها. عشق ديارها وهي آهلة بقطانها، وعشقها وهي رسوم وأطلال بالية، وشاقه الأحياء فيها كما شاقه الراحلون عنها[1]:

ألا حبذا تلك الديار أواهلا	ويا حبذا منها رسوم وأطلال
ويا حبذا منها تنسم نفحة	تؤديه أسحار إلينا وآصال
ويا حبذا الأحياء منهم وحبذا	مفاصل منهم في القبور وأوصال

وتبلغ نزعة الحنين في نفس ابن حمديس أقصاها عندما يتذكر داره التي قضى فيها أيام طفولته، فكان يتمثلها في خاطره كل لحظة، ويذرف من أجلها دموعه الغزيرة، ويحيا على أمل أن يراها ويعود إليها. وفي ذلك يقول[2]:

ألا في ضمان الله دار بنوطس	ودرت عليها معصرات الهواضب
أمثلها في خاطري كل ساعة	وأمري لها قطر الدموع السواكب
أحن حنين النيب للموطن الذي	مغاني أغانيه إليه جواذبي
ومن سار عن أرض ثوى قلبه بها	تمنى له بالجسم أوبة آيب

وهكذا كانت نزعة الحنين تتأجج في نفس ابن حمديس وغيره من الشعراء الصقليين المهاجرين، ولم يكن هؤلاء الشعراء الصادقون في حبهم لوطنهم يجدون ما يخفف عنهم لوعة الفراق، وآلام الغربة إلا بقايا من شعاع خافت، وأمل بالعودة ظل يراودهم زمناً طويلاً ولكن الأقدار كانت ضنينة عليهم، فلم تحقق لهم أملهم، وعاشوا غرباء عن وطنهم وذويهم، وقلوبهم مليئة بالأسى واللوعة.

(1) ديوان ابن حمديس ص٣٥٩.
(2) المصدر نفسه – ص٣٣.



الفصل الثالث

موضوعات الشعر الصقلى

أولاً : الغـــزل

أ – الغزل بالمؤنث

ب- الغزل بالمذكر

ثانياً : المــدح

ثالثاً : الرثاء

رابعاً : أغراض أخرى

موضوعات الشعر الصقلي

طرق الشعراء الصقليون في شعرهم فنون الشعر كافة، ونظموا في كل غرض من الأغراض التي سار عليها الشعراء في المشرق، وظلت الموضوعات القديمة تسيطر على الشعر والشعراء وتلك ظاهرة عامة تميز بها الشعر العربي في مختلف عصوره، وقد أشار إلى ذلك الدكتور شوقي ضيف وهو بصدد دراسته للشعر العباسي فقال[1]: "وكأنما كان هناك إصرار قوي على أن تظل للشعر العربي شخصيته وموضوعاته وأن يظل حيا على الألسنة مع حياة الأمة، فلا يضعف ولا يذوي عوده، بل يقوى ويزدهر، غير متحول عن أصوله فهو موصول دائماً بقديمه، شأنه في ذلك شأن الآداب الحية التي لا تنقطع صلتها بماضيها، مهما وقع عليها وعلى أهلها من تأثيرات حضارية وثقافية، إذ تظل متصلة بها اتصالاً يمكن لها في التاريخ وفي الخلود".

ولكن هذا لا يمنع من القول بأن البيئة الصقلية تحكمت في توجيه موضوعات الشعر، فاختلفت هذه الموضوعات سعة وضيقا، وقوة وضعفا، باختلاف طبيعة البيئة وظروفها، فقد ساعدت هذه البيئة على اتساع دائرة بعض أغراض الشعر كالغزل والمدح والرثاء وشعر الطبيعة والخمر، ولكنها من ناحية أخرى ساعدت على تقلص بعض الأغراض الشعرية الأخرى مثل شعر الحكمة والفخر والهجاء، وكان لذلك كله ظروفه وأسبابه التي سنراها ونقف عليها أثناء حديثنا عن موضوعات الشعر. ولنبدأ الآن بأهم الأغراض التقليدية وهو الغزل.

(1) العصر العباسي الثاني ص٣٠٣.

الغزل فى الشعر الصقلى

يعد الغزل أكثر فنون الشعر التى طرقها الشعراء الصقليون. فما من شاعر صقلى إلا وقد أدلى بدلوه فيه، ولعلنا لا نبالغ إذا زعمنا أن معظم ما لدينا من شعر صقلى يكاد يقتصر على الغزل.

وقد ساعدت البيئة الصقلية على ازدهار تيار الغزل حيث امتزج العرب بالفرنجة أو سكان الجزيرة الأصليين، وعاشوا حياة حضرية ناعمة أغرقتهم بشتى وسائل اللهو والمجون، وحررتهم من كثير من الأغلال والتقاليد الموروثة.

ولقد كنا نتوقع أن تؤثر تلك البيئة الإفرنجية فى معانى الغزل وأفكاره تأثيراً أقوى من هذا التأثير الذى سنلاحظه بحيث نرى غزلاً جديداً يعكس آثار تلك البيئة المسيحية، ونتعرف فيه على علاقات وعادات وصور جديدة لم نتعرف عليها فى البيئات العربية ولكن للأسف فقد جاء غزلهم فى معظمه غزلاً تقليدياً، تتردد فيه تلك المعانى والأفكار التى طالما ترددت فى جنبات المشرق وأرجائه، فوقفوا على الأطلال، وبكوا الديار وأكثر من ذكر الأسماء المعروفة للنساء والأمكنة، كما أكثروا من الحديث عن العذال والوشاة والرقباء، ووصفوا المرأة وصفا تقليديا، فتحدثوا عن سهام الألحاظ، وخمر الرضاب، وجمال المحيا، وامتلاء الأرداف، وما إلى ذلك من الأوصاف المألوفة.

ومن تلك المعانى التقليدية التى يرددونها كثيراً فى غزلهم، فكرة الطيف الذى يزور الشاعر أو العاشق ليلا، فيؤنس وحدته، ويخفف من غلواء الشوق فى نفسه. ويعبر أبو القاسم بن يونس الصقلى عن هذا المعنى فيقول[1]:

---

(١) خريدة القصر ٤/١/ص١١٠.

ولما بدا طيف البخيلة، سامحت	بوصل، ولا وصل لمن هو طالبه
عجبت لدان وصله، وهو نازح	كأني على بعد الديار أقاربه
بعيد قريب في الفؤاد محله	فدارتنا تنأى ونحن نصاقبه
وبتنا ونار الحب تضرم بيننا	ودمع الهوى يهمي على الخد ساكبه
أقبله طورا، وطورا أضمه	وأعرضت عن دهري فلست أعاتبه
وفارقني عند الصباح برغمه	وكل عطاء النوم، فالصبح سالبه

ويتناول ابن حمديس الفكرة ذاتها فيقول[1]:

هجر الخيال فزرته بالخاطر	ولقد يكون، زمان هجرك، زائري
أسددت مسراه فلم يطلق السرى	أم بات عندك نائما عن ساهر
طمعت مصافحتي له إذ زرته	فقبضت من ظل الخيال النافر
إني قنعت بزورة زوريـة	ألفيت باطنها خلاف الظاهر

وردد الشعراء في غزلهم أيضاً فكرة النحول التي عبر بها الشعراء عن أشواقهم وما حل بأجسامهم من الأسقام والضنى. وتتردد هذه الفكرة بكثرة في غزل ابن الطوبي فيقول[2]:

سهام اللحظ ترشقه	فتدميه وتؤلمه
ودقّ فما تكاد ترى	له شخصا يكلمه
كمثل الروح ينبيء عن	حقيقته توهمه

ويقول مرددا الفكرة نفسها[3]:

يا من لجسم تقضى	حراكه والسكون
فعاد شكلا بسيطا	تزل عنه العيون
يخفى على الموت لفظا	فما يكاد يبين
فلو تجسم يوما	تناولته المنون

ويعبر ابن حمديس عن هذه الفكرة فيقول[4]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٢٠٩.
(٢) الخريدة ١/٤/ص٥٩.
(٣) خريدة القصر ١/٤/ص٥٩.
(٤) ديوانه ص٤٩٢.

ألبستني سقما أرا	ك لبسته في الناظرين
جسمي هو الطيف الذي	يدنيه منك طلاب ديني
ولقد خفيت من الضنا	وأمنت لحظ الكاشحين
ولئن سلمت من الردي	فلأنه لم يدرأيني

كما أكثر الشعراء من الحديث عن العواذل، والوشاة، والرقباء، ووصفوا كيف كانوا يحاولون أن يفرقوا بين المحبين، وما كانوا يضمرون في قلوبهم من مشاعر الحسد والكره والشنآن. فمن ذلك ما يقوله سليمان بن محمد المهدى الصقلي في عذول قبيح[1]:

رأى وجه من أهوى عدو لي فقال لي	أجلك عن وجه أراه كريها
فقلت له بل وجه حبي مرآة	وأنت ترى تمثال وجهك فيها

ويقول أبو حفص عمر بن الحسن في المعنى نفسه[2]:

أيها العاذل الذي	طال في الحب عذله
أتراني مللته	لست ممن يمله
لا ولا اعتضت غيره	بل له الود كله

ويدير ابن حمديس حواراً لطيفاً بينه وبين أحد العواذل الذين لا هم لهم إلا الوقيعة بين المحبين فيقول[3]:

قال العذول: لقد خضعت لحبه	فأجبته : عز المحب خضوعه
أقصر فما يجتث أصل علاقة	جذبت بأطراف الملام فروعه
وكأن لومك رافضي ميت	وكأن سمعي إذ نعاه بقيعه

وحذا الشعراء الصقليون حذو الشعراء القدماء في الحديث عن مغامراتهم العاطفية، وما كانوا يتجشمون من مخاطر وأهوال في سبيل الوصول

---

(1) جذوة المقتبس ص٢٨.
(2) الخريدة ١٢٠/١/٤.
(3) ديوان ابن حمديس ص٣١٤.

إلى ديار الأحبة والتمتع بلقائهم. ويصور ابن الطوبى إحدى هذه المغامرات فيقول[1]:

رأى نـــورها أو رأى نارهــا	فلمـا تجلـى اجتلـى دارهـا
وقـد ضـرب الليـل أرواقـه	وأرخـت دياجيـه أسـتارها
فقـل فـى جمـال يـضـىء الدجـى	ويغـشى الـنجوم وأنـوارها
وشـاطرة ردفهـا شـطرها	ومـا يـبلغ الخـصر معـشارها

ويمضى ابن الطوبى فيصف مغامرته مع هذه المرأة إلى أن يقول[2]:

فـيالك عـصرا قطفـنا بـه	لـيالى تـشبه أسـحارها
ولـذات عـيش مـضى عيـنها	فهـا أنـا أطلـب آثارهـا
وهـا هـى لم يـبق مـنها سـوى	أحاديـث أعـشق تكـرارها

ويشير ابن الخياط الصقلى إشارة عابرة إلى مغامراته فيقول[3]:

ولـرب مأربـة لبـست لهـا الدجـى	وقـضت بهـا وطـرا لطافـة مدخلـى
أسرى كما تـسرى النجوم لحاجتى	والـناس بـين مدثـر ومـزمل

ولا تختلف صورة المرأة فى الشعر الصقلى عن صورتها فى سائر الشعر العربى، فلم تزل المرأة الجميلة هى تلك المرأة ذات الردف الثقيل، والخصر النحيل، والوجه المستدير الذى يشبه البدر، والشعر المرسل، والعذر الملتوية كأنها ذيول العقارب، والأسنان الأقحوانية، والألحاظ البابلية، والقدود الرشيقة وما شابه ذلك من الصفات التى طالما تغنى بها الشعراء الأقدمون وورثها عنهم من جاءوا بعدهم. فمن تلك الأوصاف التقليدية المألوفة قول الفقيه محمد بن عيسى الصقلى[4]:

---

(١) الخريدة ١/٤/ص٧٨.

(٢) نفسه ١/٤ ص/٧٨.

(٣) عنوان الأريب ١٣٣/١.

(٤) الخريدة ١/٤/ص٤١.

بأبــي ظبــي ملــيح فالــق ... بابلــي اللحــظ غــصني القــوام
عــسلي الــريق، خمــري الهــوى ... لؤلــؤي الثغــر، دري الكــلام
إن تثنــي مــاس غــصنا فــي نقــا ... أو تــبدى لاح بــدراً فــي تمــام

ويقول ابن حمديس مردداً تلك الأوصاف والتشبيهات القديمة[1]:

فـريدة حـسن تخجـل الـبدر بالـسنا ... ودعـص الـنقا بالـردف، والغـصن بالقـد
إذا عقـدت، عقـد الخـيول، وشـاحها ... على خصرها المجدول أوهت من العقد
يـضل سـرى المـشط المـسرح فـرعها ... إذا مـا سـرى فـي لـيل فاحمـه الجعـد
وتندى بمفتوت مـن المـسك صـائك ... قديــر إلى عــصر الــشباب علــى رد
فلاتــك مــنها ظالمــا لــصفاتها ... علـى الثغر بالإغـريض والـريق بالـشهد[2]

وأفـاض الـشعراء فـي وصف العيون المريضة التي تصمي قلوب المحبين بسهامها، فقال أبو الحسن بن الطوبي[3]:

أرفــق بعينــيك فــإن الــذي ... قــد ضــمنا مــن ســقم زائــد
فاســتودع اللحــظ لأجفانهــا ... فهــي مــراض وهــي العائــد

وقـال ابـن حمـديس فـي المعنـى نفسه مازجـاً مـزجاً لطيفاً بين الغزل والتعبيرات الحربية[4]:

أرى سـهام لحـاظ مـنك ترشـقني ... أفـي جفـونك رام مـن بنـي ثعـل[5]
بل ضعف طرفك في سفك الدماء له ... أضـعاف مـا للظبـا والنـبل والأسـل

ويـردد ابـن حمـديس معنى آخر قديماً، حين يستعمل فكرة القداح في الغـزل، فيـشبه عيني صاحبته بسهمي: المعلى والرقيب، وأنها تقدح بهما في أعشار قلبه. يقول[6]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص١٥٠.

(٢) الإغريض: الطلع والبرد، ويصف به كل أبيض. والمعنى لا تشبه الثغر بالإغريض، والريق بالشهد، فذلك ظلم لهما. أنظر هامش الديوان ص١٥٠.

(٣) الخريدة ١/٤/٨٠ وما بعدها.

(٤) ديوان ابن حمديس ص٣٩٢.

(٥) بنو ثعل: قوم مشهورون بالرمي، ولامرىء القيس: (رب رام من بني ثعل ... متلج كفيه عن قتره)

(٦) ديوان ابن حمديس ص٦٨.

وأنت قدحت في أعشار قلبي   بسهميك : المعلى والرقيب
ولم أسمع بأن عيون عين   تفيض سهامهن على القلوب

وتوصف المرأة في الشعر الصقلي بأنها منعمة، متحضرة، يكاد وليد الذر يجرح جسمها إذا لامسه، وتلك أيضاً صفة قديمة طالما رددها الشعراء قديماً، وقد أعجب بها ابن حمديس فرددها في شعره غير مرة من مثل قوله[1]:

يكاد وليد الذر يجرح جسمها   إذا صافحت منه أناملـه الإتبا

ويقول[2]:

مهاة تكاد العين من لين جسمها   ترى الورق المخضر في الحجر الصلد

ولم يقتصر الشعراء على محاكاة المشارقة في أوصافهم وتشبيهاتهم ومعانيهم، ولكنهم حاكوهم أيضاً في ذكر أسماء الأماكن العربية القديمة، وكذلك أسماء النساء، فنراهم يذكرون ثبيرا والعقيق ومنى والحجاز ورامة وغيرها، ويرددون أسماء تقليدية كهند وسعاد وسلمى ونوار وجميل بثينة.

ونجد ابن الطوبي مثلا يتغزل في امرأة اسمها هند، وفيها يقول[3]:

صبرت يا هند عنك   إذ خنت من لم يخنك
يا هند إن كنت قربي   فالهند أقرب منك

ويتغزل ابن حمديس في امرأة اسمها سعاد، وفيها يقول[4]:

أسعاد إن كمال خلقك راعني   فرأيت بدر التم عنه ناقصا

ويذكر أبو الحسن الطرابلسي أسماء بثينة وجميل، فيقول[5]:

أتدري ما يقول لك العذول؟   وتدري ما يريد بما يقول؟
يريد بك السلو وهل جميل   سلوك عن بثينة يا جميل؟

---

(١) المصدر نفسه ص٥٠. والإتب قميص بلا كمين تلبسه المرأة.
(٢) المصدر نفسه ص١٥٠.
(٣) عنوان الأريب ١ /١٣٨.
(٤) ديوانه ص٢٨٨.
(٥) الخريدة ١٢٩/١/٤.

ونجد ابن الطوبى ينفرد بالغزل فى النساء السود، ويفضلهن على البيض، لأن لونهن يشبه سواد العين الذى هو أجمل من بياضها. من ذلك قوله[1]:

شبيهات المشيب تعاف نفسى ... وأشباه الشبيبة هن حور
سواد العين نور العين منه ... وما لبياضها فى العين نور

ويقول فى المعنى نفسه[2]:

تحبك يا سوداء نفسى بجهدها ... فمالك لا تجزينها بودادها
وأنت سواد العين منى أرى به ... وليس بياض العين مثل سوادها

ومع أن الشعراء الصقليين قد أسرفوا على أنفسهم كثيرا فى محاكاة المشارقة وترديد معانيهم وتشبيهاتهم، فإن البيئة المسيحية تركت بعض بصماتها فى شعر الغزل، فتغزل بعض الشعراء بالنساء المسيحيات، ووصفوا جمالهن وزرقة عيونهن وألوان ثيابهن من مثل قول أحدهم[3]:

صفراء تدلع بالبياض لباسها ... وخمارها بمعصفرات الأحمر
فكأنها فى درعها وخمارها الـ ... مبيض والمحمر عند المنظر
ياقوتة كسيت صفيحة فضة ... وتتوجت صفح العقيق الأحمر

ويقول الفقيه أبو موسى بن عبدالمنعم الصقلى[4]:

يا بنى الأصفر أنتم: بدمى ... منكم القاتل لى والمستبيح
أمليح هجر من يهواكم ... وحلال، ذاك فى دين المسيح؟
يا عليل الطرف من غير ضنى ... وإذا لاحظ قلباً فصحيح
كل شىء بعدما أبصرتكم ... من صنوف الحسن فى عينى قبيح

ويتغزل أبو عبدالله محمد بن قاسم فى زرقة العين فيقول[5]:

---

(١) المصدر نفسه ٤/١/ص٧١.
(٢) المصدر نفسه ٤/١/٦٠.
(٣) الخريدة ٤/١/٣٠.
(٤) المصدر نفسه ص٢٩.
(٥) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٩.

وعابوا زرقة في العين منه	وقالوا الدعج أسلب للعقول
فقلت الزرق أفتكها فعالا	كفاكم ذاك من زرق النصول

وقد أدت الحانات والأديرة التى كانت تنتشر فى صقلية إلى نشأة لون من الغزل يمكن أن نطلق عليه "غزل الحانات" أو "غزل المغنيات والقيان"، ووسعت مجالس الخمر، وحفلات الرقص والغناء من دائرة هذا الغزل، فكثر عشق الشعراء للقيان والجوارى والمغنيات، وكلفوا بهن كلفا شديداً لأنهم وجدوا فيهن مجالا لاستثارة مشاعرهم، وإشباع غرائزهم.

ويتميز غزل الحانات هذا بالإغراق فى الأوصاف الحسية، والإكثار من التعبيرات الجنسية، ويكون مداره فى الغالب تلك القوة الشهوانية التى تتأجج فى كيان الشعراء. وقد برع ابن حمديس فى هذا اللون من الغزل وتفنن فيه، وصور البيئة المسيحية من خلاله تصويراً دقيقاً بما كان يشيع فيها من فتن وانحلال خلقى، ونجح فى أن يمزج بين معانيه وبين التعبيرات الحربية المستمدة من البيئة مزجاً قوياً فمن ذلك قوله يصف إحدى مغامراته مع إحدى الفتيات الروميات[1]:

وذات ذوائب بالمسك ذابت	بلغت بها المنى وهى التمنى
منعمة لها إعزاز نفس	يصرف دلها فى كل فن
شموس من ملوك الروم قامت	تدافع فاتكا عن فتح حصن
بخد لاح فيه الورد غضا	وغصن ماس بالرمان لدن
فطالت بيننا حرب زبون	بلا سيف هناك ولا مجن
وفاضت نفسها الحمراء منها	وسالت نفسى البيضاء منى

ورغم ما فى الأبيات من تعبيرات جنسية صريحة ولاسيما فى البيت الأخير إلا أننا لا نستطيع أن نخفى إعجابنا بها، وخاصة هذا المزج القوى بين صور الجنس وصور الحرب، وتدرجه فى رسم لوحته خطوة خطوة حتى وصل

(١) ديوان ابن حمديس ص٤٨٩.

بها إلى ذروة التصعيد لتلك الرغبة الشهوانية، ونجاحه فى اختيار الألوان المناسبة للتعبير عن نهاية تلك التجربة الجنسية، وعلى أية حال، فإن هذه الأبيات صادقة الدلالة على تلك الآثار التى تركتها البيئة المسيحية فى شعر الغزل. وقد انعكس أثر تلك الأديرة والحانات على شعر الغزل انعكاساً قوياً، فأصبح فى معظمه غزلاً حسياً يعنى فيه الشاعر عناية كبيرة بتصوير النهود والأرداف والحديث عن العناق والقبلات وما شابه ذلك من الأمور والأوصاف الحسية. فمن أمثلة ذلك قول ابن حمديس[1]:

رب ليل هصرت فيه بغصن ... لابس نضرة النعيم وريق
فيه رمانة تطاعن صدرى ... فهى أمضى من السنان الدليق

ويقول شاعر آخر[2]:

بروحى عهد الصبا فى زرود ... بكل مهاة من العين رود
إذا موردى من رضاب الثغور ... وإذ مرتعى من ثمار النهود

وتكثر هذه الأوصاف والمعانى الحسية فى أشعار البلنوبى. ومن أمثلتها قوله[3]:

ولم أنل سوءاً سوى أننى ... أدنيته منى وقبلت فاه
وذدت عنه كبدا شارفت ... وردا فخفقت كخفيف القطاه
وكدت من (بكراء) مكتومة ... أملأ كفى برغم الوشاة

وقد لا تخلو تلك الأوصاف الحسية من طرافة أو جدة فى التعبير من مثل قول ابن حمديس[4]:

غشيت حجرها دموعى حمرا ... وهى من لوعة الهوى تتحدر
فانزوت بالشهيق خوفا وظنت ... حب رمان صدرها قد تنثر
قلت عند اختبارها بيديها ... ثمرا صانهن جيب مزرر
لم يكن ما ظننت حقا ولكن ... صبغة الوجد صبغ دمعى أحمر

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٣٣٢.

(٢) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد جـ٤ (مخطوط) ورقة ٣٤٤.

(٣) ديوان البلنوبى. نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ورقة ٢ - ٣.

(٤) ديوان ابن حمديس ص١٨٥.

وقد وقف غرسيه غومس إزاء هذا التيار الحسى الذى شاع فى البيئتين : الأندلسية والصقلية فقال[1] : "وذلك كله إنما يدل على ما كان يتوفر فى قلوب أولئك الشعراء من إعجاب مفرط بالجمال البدنى المحسوس، وربما كان ذلك من الخصائص المميزة للعقلية العربية، ورثته فيما ورثت من مشاعر البدو وميولهم، شأنه فى ذلك شأن الحب العذرى الذى انحدر من البدو إلى الأجيال المتوالية عن طريق العرب والمسلمين".

ويعلل غومس هذه الظاهرة فيقول : "وقد كان الوضع الخاص للمرأة فى المجتمع الإسلامى سببا فى قلة فهم الناس للجانب النفسى من حياتها وخصائصها، فلم يعد المحبون منهم يستشعرون من جمالها إلا الحسى الملموس أى الصورة البدنية، فاندفعوا فى الإعجاب بها اندفاعاً عنيفاً لا يرد"[2].

ومهما يكن من أمر، فإن هذا التيار الحسى لم يكن يمثل إلا جانباً واحداً من جوانب الغزل، فقد وجد فى غزل الصقليين ضرب آخر يتعفف فيه أصحابه، ويبدون فيه محبين صادقين. وليس بغريب أن نجد فى البيئة الصقلية شعراً من هذا النوع لأن انغماس أكثر الشعراء فى الملذات، وانسياقهم وراء رغباتهم وشهواتهم، لا يعنى عدم وجود شعراء آخرين يميلون إلى العفة فى حبهم وعواطفهم، فقد وجدت أمثلة كثيرة لهذا اللون من الغزل ولاسيما فى بيئات الفقهاء واللغويين.

ومن الطبيعى أن ينصرف أصحاب هذا اللون من الغزل عن وصف المرأة وصفاً حسياً أو بعبارة أدق ينصرفون عن تلك المعانى الحسية التى خاض فيها أصحاب الغزل الحسى، فنجدهم يديرون غزلهم حول معان أخرى كالصدق فى الحب، والمعاناة فيه، والصبر على هجران الحبيب وما شابه ذلك من المعانى.

(١) الشعر الأندلسى ص٤٨.
(٢) الشعر الأندلسى ص٤٨.

وقد نسمعهم يرددون فى أشعارهم تعبيراً مثل "الهوى الروحانى" من مثل قول ابن حمديس[1]:

لما وجدت هواك خامرنى أيقنت أن هواك روحانى

ومن أمثلة هذا الغزل قول محمد بن عيسى بن المنعم الصقلى[2]:

أنا والله عاشق لك حتى ليس لى عنك يا منى النفس صبر
وحياتى إن تم لى منك وصل ومماتى إن دام لى منك هجر

ويقول عبد العزيز الصقلى البلنوبى[3]:

بحق المحبة لا تجفنى فإنى إليك مشوق مشوق
ولا تنس حق الوداد القديم فذلك عهد وثيق وثيق
وكن ما حييت شفيقا على فإنى عليك شفيق شفيق
ولا تتهمنى فيما أقول فوالله إنى صدوق صدوق

ويقول أبو الحسن البلنوبى[4]:

الموت فى صحف العشاق مكتوب والهجر من قبل تنكيد وتعذيب
إن طال ليلى فوجه الصبح مطلعه من وجه من هو عن عينى محجوب

وقد أثر الفقهاء فى هذا اللون من الغزل تأثيراً كبيراً، فأشاعوا فيه معانى الوفاء والتضحية والعفة والعذرية حتى لنجد أحدهم يمنعه الحياء أن يعلن عن حبه فيكتمه فى نفسه رغم ما يعانيه من حرق الأسى وشدة الصبابة فيقول[5]:

أسارقه اللحظ الخفى مخافة عليه من الواشين والرقباء
وأجهد أن أشكو إليه صبابتى فيمنعنى من ذاك فرط حيائى
وإنى وإن أضحى ضنينا بوده لأمنحه ودى وحسن صفائى
سأكتم ما ألقاه من حرق الأسى عليه، ولو أنى أموت بدائى

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٤٩٣.
(٢) إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٨٩.
(٣) معجم البلدان ٧٣٢/١.
(٤) الخريدة ١٥/١/٤.
(٥) الخريدة ١/٤/ص١٣٨.

ويبدو أن بعض الفقهاء كانوا يخفون مشاعرهم العاطفية حتى يقللوا من مكانتهم الدينية فى نفوس الناس، ويتحدث أحد الفقهاء عن تجربة عاطفية مر بها وأعلنها على الناس فلم ينج من أقاويلهم واتهاماتهم. يقول[1]:

كتمت الذى بى، فانتفعت بكتمانى ... وأعلنت حالى، فاتهمت بإعلانى
وما خلت أن الأمر يفضى إلى الذى ... رأيت، ولكن كل شىء يرى دانى

ويستطيع الباحث فى هذا الغزل أن يضع يده على بعض الظواهر البارزة التى تلفت الانتباه. من ذلك مثلاً أن نجد شاعراً مثل ابن الخياط يحول المسجد من مكان مقدس يقتصر على العبادة والدرس إلى مكان يلتقى فيه مع حبيبته يطارحها الغرام كما يبدو فى مثل قوله[2]:

ياحبذا المسجد الذى جمعتـ ... ـنا فيه مقصورة إلى العصر
ما كان إلا بستان تلهية ... لولا مراعاة حرمة الشهر

وهذا فى حد ذاته شىء مستغرب إن دل على شىء فإنما يدل على مدى الحرية الاجتماعية التى كان يتمتع بها الصقليون، ولعلنا لم نسمع بمثل هذا الأمر إلا فى صقلية وحدها.

ومن الظواهر الأخرى التى نلاحظها فى هذا الغزل كثرة الشكوى والبكاء والتذلل والتضرع للمحبوب، وتوجد هذه الظاهرة بكثرة فى الشعر الصقلى، ولكنها تبدو غير طبيعية فى هذا المجتمع المتحرر الذى كان يعطى المرأة حرية واسعة ولا يضن على المحبين بشىء. وأغلب الظن أن الفقهاء هم الذين ساعدوا على انتشار هذه الظاهرة بإضمارهم مشاعر الحب والغرام. فمن أمثلة ذلك قول الفقيه أبى القاسم السرقوسى[3]:

دعوا المشتاق تذرف مقلتاه ... لما فى القلب من ألم الفراق
أصابته النوى عقبى صدود ... ففر من الوهيج إلى احتراق

(١) الخريدة ٤/١/ص٣٨.

(٢) شرح المختار من شعر بشار ص٣٦.

(٣) معجم السلفى ورقة ٥٦.

وكانت عينه تدرى بماء ... فعادت ترتوى بدم مراق

ويقول محمد بن زيد الطرطائى الصقلى فى المعنى نفسه[1]:

عبرتى فيك مالها من نفار ... وزفيرى ولوعتى فى ازدياد
يا وصول الغداة يغرى سقيما ... باتصال الأسى وهجر الرقاد
كيف ترضى خلاف حسنك يا من ... حسنه فاق حسن كل العباد؟

ويقول سليمان بن محمد الطرابلسى[2]:

أجرجفونى من دمع ومن سهر ... وأضلعى من جوى فيهن مستعر
جرى على بما شاء الهوى قدر ... يا قوم ما حيلة الإنسان فى القدر؟
ما كنت أحسب دمعى سافكا لدمى ... حتى أبحت لعينى لذة النظر

والواقع أن الإسراف فى البكاء والتذلل والشكوى بهذه الصورة المفرطة قد جعل الشعراء يدورون حول معان مبهمة، وأحاسيس غامضة إزاء عاطفة الحب ولكن هذه الحقيقة يجب أن لا تصرفنا عن حقيقة أخرى وهى تميز كثيراً من هذا الغزل بالعذوبة والرقة. ونستطيع أن نلمس ذلك بوضوح فى أشعار البلنوبى خاصة من مثل قوله[3]:

أنت عما حل بى فى شغل ... إنما يرثى لمثلى من بلى
لى وعد دون عينيك مضى ... دونه عمرى ووافى أجلى
يا حبيب النفس لو أبصر ما ... حل بى منك عدوى رق لى

ونلمس هذه الرقة فى قوله أيضاً[4]:

هذى الخدود وهذه الحدق ... فليدن من بفؤاده يثق
عنفوا على بلومهم سفها ... لوجرعوا كأس الهوى رفقوا
لو أنهم عشقوا لما عدلوا ... لكنهم عدلوا وما عشقوا
ما الحب إلا مسلك خطر ... عسر النجاة وموطئ زلق

---

(١) المحمدون من الشعراء ص٣٣١.

(٢) الخريدة ١٠٥/١/٤ وما بعدها.

(٣) مختصر للكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١٠٧.

(٤) معجم السفر للسلفى ورقة ٢٨٣. وانظر أيضاً اختيار ابن منجب الصيرفى ص١٩- ٢٠ وقد أورد البيت الثانى محل البيت الثالث.

وقد رق ابن حمديس أيضاً في كثير من غزله من مثل قوله[1]:

أنت في العين واللسان وفي القد ... فأين استقرّ قدري منك

وقوله[2]:

وكم يقولون: مجنون، وما علموا ... أن الجنون الذى بى من هوى بشر
لاعذب الله من أجلى معذبة ... تشرد النوم عن عينى بالسهر

ونسمع شاعراً آخر يقول[3]:

أحبك حب الماء فى أرض قفرة ... بهاجرة ظمآن ظل مهجرا
وإن كنت قد أقصرت عنك لعلة ... فمازلت فى عين الضمير مصورا

ومثل هذه الأشعار تنفى عن الغزل الصقلى صفة التقليد، وتمنحه القوة والسمو، وترتفع به عن السقوط والإسفاف.

الغزل بالمذكر:

انتشر هذا اللون من الغزل فى البيئات الصقلية انتشاراً واسعاً ظهر أثره فى كثرة ما وصل إلينا من شعر فيه.

ونكاد نظن أن التعلق بالغلمان كان يبدو — فى نظر الصقليين — أمراً طبيعياً لا عيب فيه ولا شذوذ بدليل أننا لا نجد من الشعراء أو الفقهاء من ينكر هذا الغزل أو يستهجنه، وبدليل أنه استشرى فى مستويات مختلفة، وطبقات متباينة حتى إنه امتد إلى بيئة الفقهاء ووجد له مكاناً رحباً فيها.

ويبدو أثر البيئة المسيحية واضحا فى هذا اللون من الغزل، فقد كان الغلمان النصارى موضوعاً من موضوعاته. ولذلك نجد الشعراء يرددون فى غزلهم أسماء مسيحية، ويتغنون بذكر الصليب والزنار والعذار. كأن نسمع ابن الطوبى يقول فى أحد هؤلاء الغلمان[4]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٣٤٤.
(٢) المصدر نفسه ص١٧٦.
(٣) المحمدون من الشعراء ص٨٨.
(٤) الخريدة ٨١/١/٤.

البـدر فـي أزراره والغـصن فـي أزرازه
وكأنمـا فـت العـبير علـى مخـط عـذاره

ويقـول فـى غـلام آخـر رآه فى أحد الأديرة فأعجب به لجمال هيئته، وعذوبة حديثه[1]:

شمس الضحى من فوق أزراره والغـصن فـى عقـدة زنـاره
سراج أهـل الديـر مـن حسنه يجلـو دجـى الليـل بأنـواره
كأنمـا هـاروت فـى طـرفه يـبث سـحراً بـين أشـفاره
أحرقنـي ظلمـا بـنار الهـوى نجـاه رب العـرش مـن نـاره

ويقول شاعر آخر فى صبى نصرانى خمار[2]:

ومزنـر عقـد الـصليب بنحـره وأدار حـول وشـاحه إنجـيلا
خمـدت بجنح الليل جمـرة نـاره فأقـام خمـرة دنـه قـنديلا
مـتطلع لـذوى الـسرى مـن كأسه نجـم يكـون إلى الـصباح دلـيلا

وتـتردد فـى هـذا الغـزل أسمـاء إسـلامية أيـضاً، فنـسمع ابـن الطوبى يقول[3]:

أنظـر إلى (حـسن) وحـسن عـذاره لـترى محاسـن تـسحر الأبـصارا
فـإذا رأيـت عـذاره فـى خـده أبـصرت ذا لـيلا وذاك نهـارا

ويتغزل شاعر آخر فى غلام اسمه عبدالله فيقول[4]:

صـور عـبدالله مـن مـسكة وصـور الـناس مـن الطـين

وقـد انـتقلت معانـى الغـزل بالمـؤنث إلى الغزل بالمذكر، فتغزل الشعراء بالعـيون والخـدود والقـوام، وشـبهوا الغـلام بالهلال وبالشمس والظبى، وتغنوا

(١) عنوان الأريب للنيفر ١٣٧/١.
وانظر أيضاً: المحمدون من الشعراء ص٢٥٦.
(٢) الخريدة ١٦٢/١/٤.
(٣) الخريدة ١/٤/ص٥٦ وما بعدها.
(٤) المحمدون من الشعراء ص٢١٤.

بسحر اللحاظ، وأفاضوا في تصوير الأوصاف الحسية، والمفاتن الجسدية، فمن ذلك قول أحدهم[1]:

صور عبدالله من مسكة ... وصور الناس من الطين
أبدعه الله وسبحانه ... كمثل حور الجنة العين
مهفهف القد، هضيم الحشا ... يكاد ينقد من اللين
كأن في أجفانه منتضى ... سيف (علي) يوم (صفين)
في مثله يوصل حبل الصبا ... وتؤثر الدنيا على الدين

وكثيراً ما تتشابه تلك الأوصاف حتى ليلتبس الأمر على القارىء مالم تكن هناك قرينة تدل على ذلك الغزل مثل الإشارة إلى العذار أو اللحية أو الشعر، من مثل قول عبد الوهاب بن مبارك[2]:

نفسي الفداء لظبي ... قد جاز في التيه حده
حكى القضيب انعطافاً ... كما حكى الليث نجده
بالدمع طرز خدي ... مد طرز الشعر خده
كأنه بدر تم ... في الأفق قابل سعده
يا عاذلي فيه دعه ... يطل كما شاء صده
فإنما هو مولى ... أضحى يؤدب عبده

ولكن هذا لا يمنع من أن هناك صفات معينة ركز عليها الشعراء في غزلهم بالغلمان مثل التغني بذكر العذار، ووصف اللحية والشارب وما كان يقوم به هؤلاء الغلماء من عقربة الأصداغ ولفها وما شابه ذلك من الصفات التي تلتصق بهم وتدل عليهم. فمن أمثلة وصفهم للعذار قول ابن الطوبي[3]:

قام عذري بعذاريه فما أعظم كربي

قلت لما أن تبدى ... نبته : سبحان ربي
أحرقت فضة خديك ... لكي تحرق قلبي

(1) المصدر السابق ص٢١٤.
(2) الخريدة ١٤١/١/٤.
(3) الخريدة ٥٧/١/٤.

ويقول شاعر آخر[1]:

فــيه للعــين منــية واعــتذار ... حـين أبـدى الـبديع مـنه العـذار
فـات حـد القـياس إذ صـيغ مـاء ... وسـط در مـركب فـيه نـار

ويـتردد فـى غـزلهم تشبيه العذار بالآس، كما يشبهونه بلام من المسك مكـتوبة علـى زهـرة جلنار، وقد يشبهونه بزهرة بنفسج نابتة فى نضار من مثل قول أحد الشعراء[2]:

وعـــدار كأنـــه لام مـــسك ... خطهـــا كاتـــب علـــى جلـــنار
عجـب العاذلـون مـنه وقالـوا ... طـاب فـى ذا العـذار خلـع العذار[3]
مـــا رأيـنا بنفـسجا قـبل هـذا ... نابـتاً فـى صـحيفة مـن نـضار

ومـن الأوصـاف الحـسية فى الغزل بالمذكر وصف اللحية، فمن الشعراء مـن كـان يؤثـر ذلـك الغلام الذى نبتت لحيته وطر شاربه. ومن أمثلة ذلك قول الفقيه الكلامى[4]:

وقالـوا التحـى فـانحط نـصف جمالـه ... فقلـت لهـم بـل زاد فـى حـسنه الشعر
فلـولا سـواد العـين مـا كـان نـورها ... ولـولا ظـلام الليل مـا حـسن الـبدر

ويقول ابن الطوبى واصفا لحية غلامه[5]:

قـال العـذول التحـى فقلـت لهـم ... حـسن جديـد قـضى بـتجديد
أمـا تـرى عارضـيه فـوقهما ... لام ابـتداء ولام توكـيد

ويقول البلنوبى[6]:

ومـسربل بالحـسن معتجـر ... مـنه بأكملـه ومنـتطق
عجبـى لجبهـته وطـرته ... وضـح الـصباح ومـا انجلـى الغسق

---

(١) المصدر السابق ص٨٧.

(٢) الخريدة ٤/١/٧٠.

(٣) خلع العذار: طرح اللجام، وهو معنى مجازى يرمز إلى الانطلاق فى الغواية دون أن يكبحه مانع. والنضار: الذهب.

(٤) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٦.

(٥) الخريدة ٤/١/٨٥.

(٦) ديوان البلنوبى ورقة ٩.

وكانت لثغة اللسان صفة محببة عند بعض الشعراء من مثل قول ابن القطاع[1]:

وشادن فى لسانه عقدة	حلت عقودى وأوهنت جلدى
عابوه جهلا بها فقلت لهم:	أما سمعتم بالنفث فى العقد؟

ويتغزل ابن الطوبى فى غلام عرضت بفيه حرارة فيقول[2]:

شكا لحرارة فى فيه أعيت	معالجة فبات لها كئيبا
وكيف يصح ذا - تفديه نفسى -	وبرد رضابه يطفى اللهيبا

ويتغزل أيضاً فى غلام أصيب بالجدرى فيقول[3]:

جدر فازدادت مداجاته	ونحن فى الحب له زدنا
وكان كالفضة ما نقشت	فزادها أن نقشت حسنا

وكثيراً ما نجد فى هذا الغزل أحاديث عن الهجران والصدود، واليأس من وصال الحبيب، والشكوى من تباريح الحب، وآلام الهوى، وعذاب البين، وكأن الشاعر يحب امرأة لا غلاما. من ذلك قول ابن القطاع[4]:

يا من رمى النار فى فؤادى	وأنبط العين بالبكاء
أردد سلاماً فإن نفسى	لم يبق منها سوى الدماء
وارفق بصب أتى ذليلا	قد مزج اليأس بالرجاء
أنهكه فى الهوى التجنى	فصار فى رقة الهواء

وتحتفظ بعض مصادر الأدب بقصص حب نادرة تدل على مدى معاناة الشعراء فى حبهم لهؤلاء الغلمان. من ذلك ما يروى من أن شاعرا يدعى محمد ابن عبدالله الصقلى كان من أهل صقلية المقيمين بها، وكان من أهل القرآن والتفسير والورع والتعفف، وقد وصف بأن له فى النحو فهما صافيا، وفى الأدب قسما وافيا. وقد ابتلى هذا الرجل بحب فتى من أبناء صقلية، فهام به،

(1) الخريدة ٥٣/١/٤ وما بعدها.
(2) المصدر نفسه ص٧٥.
(3) المصدر نفسه ص٦٨.
(4) عنوان الأريب للنيفر ١٢٤/١.

وسلب لبه، وفقد أربه، ولم يزل جسمه ينحل ويضنى، ويذبل ويفنى، وعيل فى حبه صبره، إلى أن نفث الدم صدره. وكان يصنع فيه الشعر طول أيامه، ومدة غرامه، إلى أن فارق دنياه، وصار إلى أخراه، من دون ذنب فى حبه ارتكبه، ولا عيب فى نفسه اكتسبه[1]. ومن شعره فيه قوله من قصيدة أولها[2]:

هذا خيالك فى الجفون يلوح ... لو كان فى الجسم المعذب روح
يا سالما مما أقاسى فى الهوى ... هل يشتفى من قلبى التبريح
غادرتنى غرض الردى وتركتنى ... لا عضو لى إلا وفيه جروح
لله ما صنعت لواحظ جفنه ... لو بلغت نفسى الردى فتريح

ويقول فيها واصفا حالته البائسة ونزفه الدم من فمه يسبب هذا الحب الغريب[3]:

لو عاينت عيناك قذفى من فمى ... كبدى ودمعى مع دمى مسفوح
لرأيت مقتولا ولم تر مقتلا ... ولخلت أنى من فمى مذبوح
يا ويح إنى قد جرحت ومادروا ... أنى بأسياف الجفون جريح
قل للذى منه علقت منيتى ... أأباح قتلى يا ظلوم مبيح
كبدى على صدرى جرت فإلى متى ... أغدو أعذب فى الهوى وأروح

ونستغرب صدور مثل هذا الشعر من عالم فقيه، والواقع أن فى هذه الأبيات ما يدل على أن المسألة لم تكن مجرد مجاراة للتقليد الأدبى، أو رغبة فى إرضاء جانب اللهو فى الحياة بقدر كونها ميلا صادقا أو نزعة نفسية إلى تعشق هؤلاء الغلمان.

ومهما يكن من أمر فلم تكن هذه القصيدة وحدها هى التى تسجل تلك القصة الغريبة، قصة عشق فقيه عالم لأحد الغلمان إلى درجة الموت، بل إن هذا الفقيه قد قصر شعره على حكاية هذا الحب وكم كنا نتمنى أن نظفر بذلك

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١٦٣/٣.
(٢) المصدر نفسه ١٦٣/٣.
(٣) نفسه ١٦٣/٣.

الشعر كاملا لكي نسجل تفاصيل هذه القصة العجيبة، ولكن لسوء الحظ فإن المصادر بخلت علينا بذلك ولم تبق غير ثلاثة أبيات أخرى تدور حول الموضوع نفسه. وفيها يقول هذا الشاعر[1]:

حسبوا دموعي إذ رأوها من دمي	عن علة حدثت لفرط بكائي
تالله ما هي غير أن بليتي	من مقلتي أفضت إلى أحشائي
فتقطعت كبدي وغيضت أدمعي	فجرى إلى عيني فيض دمائي

وتحتفظ مصادر الأدب بقصص أخرى من هذا النوع الغريب. من ذلك إن رجلا أديبا شاعراً — يدعى سليمان بن محمد المهدَىَ الصقلي — كان يهوى غلاماً جميلاً، وكان كلفا به، وكان الغلام يتجنى عليه ويعرض عنه، وبينما هو ذات ليلة منفرداً يشرب وحده على ما أخبر عن نفسه. وقد غلب عليه غالب من السكر، خطر بباله أن يأخذ قبس نار ويحرق على الغلام داره لتجنيه عليه، فقام من حينه، وأخذ قبسا فجعله عند باب الغلام فاشتعل نارا، واتفق أن رآه بعض الجيران فبادروا النار بالإطفاء، فلما أصبحوا نهضوا إلى القاضي فأعلموه فأحضره القاضي، وقال له: لأي شيء أحرقت باب هذا الغلام؟ فأنشأ يقول[2]:

لما تمادى على بعادي	وأضرم النار في فؤادي
ولم أجد من هواه بدا	ولا معينا على السهاد
حملت نفسي على وقوفي	ببابه حملة الجواد
فطار من بعض نار قلبي	أقل في الوصف من رقاد
فأحرق الباب دون علمي	ولم يكن ذاك من مرادي

فاستظرفه القاضي وتحمل عنه ما أفسد وأخذ عليه ألا يعود، وخلى سبيله"[3].

---

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١٦٣/٣.
(٢) جذوة المقتبس ص٢٠٦.
(٣) المصدر السابق ص٢٠٦.

ويحكى البلنوبى فى إحدى قصائده قصة لقاء جمعه وغلاما كان يجادله الحب. وفى هذا اللقاء أخذ الشاعر يشكو لذلك الغلام ما حل بجسمه من عذاب وجوى، وسره أن وجده يقاسى مثلما يقاسى، فرق لحاله، وأمضى معه ليلة هنيئة نعم فيها بطيب الوصل، وصفاء الزمان. يقول[1]:

قمـــــر حيــــــيت بقــــــربه	وحــــياة مثلــــــى مــــــوته
أبكـــــاه شــــكواى الـــــضنا	لا كـــــنت حـــــين شـــــكوته
فلقـــــد جـــــرحت فــــؤاده	بعـــــــتابه وأســـــــوته
حتـــــى إذا لــــيل الدجــــى	عنــــــى تــــداركـ فــــوته
رصـــعت مــــن فـــضل الغمـــا	مـــــة تاجــــــه فجلـــــوته
ونـــسجت مـــن حلـــل الغـــوا	لى حلــــــــة فكــــــــسوته
زمــــــن صـــــفا لى عيــــشه	فطـــــــربته ولهـــــــوته
يـــــا رب لـــــو داركتنـــــى	بعـــــــداره لـــــــسلوته

وهكذا يتضح لنا مبلغ تعلق الصقليين بهذا اللون من الغزل، واحتفائهم بـه على اختلاف طبقاتهم، وتفاوت منزلتهم الاجتماعية والعلمية. ويكفى دليلا علـى شيوع هـذا الغـزل واتـساع نطاقـه أن نرى شاعراً يقصر نفسه عليه، وألا نـسمع صرخة استنكار واحدة تصمه أو تدين من يخوضون فيه رغم اشتداد تيار المحافظة والتشدد اللذين فرضا وجودهما على بعض البيئات الصقلية.

---

(١) ديوان البلنوبى ورقة ٨ – ٩.

المدح

كـان المـدح مـن الأغـراض التقلـيدية التـى احتفظت بطابعها فى الشعر الـصقلى. وقـد وجدت عوامل كثيرة ساعدت على ازدهار المدح وتوسيع ميدانه، فمـن ذلك تشجيع الأمراء الصقليين للشعراء ومنحهم الصلات والعطايا، وإغداق الأمـوال علـيهم، حتـى أن الأمـير ثقـة الدولة رفض أن يسمح للشاعر محمد بن عـبدون السوسى بالرجوع إلى وطنه القيروان بعد أن أعجب بمدائحه فيه[1]. ولا غـرابة فـى هـذا، فقـد كان هؤلاء الأمراء "فى حاجة إلى تقوية وتثبيت مراكزهم بنـشر عـبارات الحمـد والثناء وآيات التعظيم والتفخيم التى كانت تذاع بواسطة من كان يفد عليهم من الشعراء"[2].

وفـى عـصر الفتنة التى أصبحت صقلية فريسة فيها لمختلف الطوائف، كـان كل أمير يحاول أن يستأثر بأكبر قدر من الشعراء حتى يساعدوه فى تثبت دعـائم ملكـه، ويـشيدوا بانتـصاراته على منافسيه وأعدائه، فاتصل ابن الخياط بابن الثمنة، ومدح محمد بن قاسم القائد على بن نعمة المعروف بابن الحواس، واتـصل عـبد الحليم الصقلى، وابن رشيق بالقائد ابن منكود صاحب مازر، كما انحـاز ابـن الطوبى والفقيه الكلاعى إلى المعز بن باديس[3] والتف بعض الشعراء حول صاحب ديوان الخمس وكان يومئذ إبراهيم بن محمد الشامى، فمدحه ابن الـصباغ والمـشرف بـن راشـد وابن الرقبانى وغيرهم وحاول كل شاعر أن ينتصر لصاحبه بأن يكيل له المدائح، وأن يوهم الناس بأحقيته فى الحكم وإيثاره على مـن سـواه، وأن يفـند دعـاوى الأمـراء المنافسين، ويشيد بانتصاراته ومآثره. ولا شك أن هذا كله أسهم فى ازدهار هذا اللون من الشعر ازدهاراً كبيراً.

---

(١) عنوان الأريب ٤٨/١.
(٢) رحلة الأندلس لمحمد التنونى ص١١٤.
(٣) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٨٧.

نهج قصيدة المدح :

كانت قصيدة المدح تستهل غالباً بمقدمة تقليدية يتوكأ عليها الشاعر للوصول إلى غرضه الرئيسى. ولم تكن هذه المقدمات تسير على وتيرة واحدة أو تلتزم أسلوباً واحداً. فقد يمهد الشاعر لمديحه بالغزل التقليدى من مثل قول ابن حمديس فى إحدى مدائحه[1]:

متى صدرت عيناك عن أرض بابل؟	فسحرهما فى اللفظ بادى المخايل
عجبت لرام كيف أنشب منهما	بسهمين نصلا واحدا فى مقاتلى
أأنت التى سقيتنى سم حية	وخيلت عندى أنه شهد عاسل
فيا نار وجدى كيف عشت تضرما	بماء من الأجفان للنار قاتل؟

وهكذا يمضى الشاعر فى غزل متكلف لا يخرج عن كونه مجرد تقليد أدبى يلتزم به أو وسيلة يمتطيها حتى يتخلص إلى المدح.

وكان الشعراء يستهلون مدائحهم أحياناً بوصف الخمر والدعوة إليها والثورة على الأطلال على الطريق النواسية من مثل قول ابن حمديس فى مقدمة إحدى مدائحه[2]:

دع ذكر نزوح عنك نأى	وتبدل من سكن سكنا
ونزول هواك بمنزلة	كتبت زمنا ومحت زمنا
واخضب يمناك بقانية	فلها فرج ينفى الحزنا
وتريك نجوما فى شفق	يجلو الظلماء لهن سنا
إنى استوليت على أمدى	ووطئت بفطنتى الفطنا
وسبقت فمن ذا يلحقنى	فى مدح على بن الحسنا

وتدل هذه الأبيات على أن قصيدة المدح تخلصت إلى حد بعيد من الجزالة والفخامة وقوة أسر الألفاظ وطول البحر الشعرى، فتميزت برقة الألفاظ، وخفة الوزن، والبعد عن الأبحر الطويلة.

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٣٩٤.

(٢) نفسه ص١٥٠.

وقد يحدث أن يحتوى تمهيد القصيدة على الغزل والخمر معا، كما فى هذا المثال لابن الخياط حيث جاء مدح الأكحل بن ثقة الدولة عقب تغزل الشاعر، وعقب وصفه للخمر، يقول[1]:

ولقد صبرت له فأوسعنى قلقاً وأثخن مهجتى حرقا

ولعلنى إن قلت بى علق قعد الوشاة بقصتى حلقا

وأنا رهين بحب ساحرة ملأت يدى ببشرها ملقا

نظمت لها أيدى ملاحتها خرز القلوب بجيدها نسقا

ثم يتخلص بعد ذلك إلى المدح فيقول:

ملك تضم الأرض قبضته حتى تكون جميعها طبقا

يغزو بأدهم فى العجاج ترى لمع السيوف بجسمه بلقا

وقد لا يجد الشاعر حرجا فى استهلال مديحه بالغزل بالمذكر فيصف مفاتنه، ويبثه غرامه وشوقه حتى ليستغرق أكثر قصيدته فيه على نحو ما فعل أبو بكر ابن عبدالله السكرى فى إحدى مدائحه التى يقول فى مطلعها[2]:

عارض فيه عذار ذاك ليل ونهار

هو فى الجوهر ماء وهو فى التوريد نار

ويمضى فى وصف محاسن غلامه ويطيل فى ذلك إلى أن يقول مادحا[3]:

ملك تحسد فيه آل قحطان نزار

ونجد الحلوانى الشاعر المهاجر إلى صقلية يبدأ قصائده فى مدح صاحب الخمس برثاء القيروان موطنه الأصلى والبكاء عليها، ويصف ما تعرض له من أهوال ومتاعب بعد تشرده عنها حتى وجد فى ممدوحه ذماما ومعتصماً قوياً. يقول فى إحدى مدائحه[4]:

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٩٠.

(٢) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٥.

(٣) المصدر السابق ورقة ١٠٥.

(٤) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ١/٤/ص٢٢٤ وما بعدها.

لله منـــــزلة بـــالقيروان محـــا	أيامهـا الـبين لا الأيـام والقـدم
شـققت جـيب شـبابى بعـد فـرقتها	حـزناً علـيها ولا شـيب ولا هـرم
إن فـرق الدهـر عـنا شملـنا فلـنا	بـصاحب الخمـس إبـراهيم معتـصم

ويقول فى قصيدة أخرى[1]:

ليت شعرى "وليت" حـرف تمـن	ربمـا علـل الفـؤاد الـسقيما
كـيف يـا قـيروان حالـك لمـا	نثـر الـبين سـلكك المـنظوما
كـنت أم الـبلاد شـرقا وغـربا	فمحـا الدهـر وشـيك المـرقوما
نحـن أبـناؤها ولكـن غنيـنا	بعـد أن لم نطـق بهـا أن نقـيما
وأنـا قـد أخـذت إن عـبث الـدهـ	ـر ذمامـا مـن ابـن إبـراهيما

ولـيس يعنـى مـا سـبق أن الـشعراء كانـوا يحرصـون دائمـاً علـى تلـك المقدمات، ولا يستطيعون أن يحيدوا عنها، فهذا ليس صحيحاً، وقد نجد منهم مـن يـبدأ بالـديح مباشـرة دون تمهـيد أو تقـديم مـن مثل قول ابن حمديس فى إحدى مدائحه[2]:

ملـك جديـد مـثل طـبع المنـصل	نمـش الفـرند علـيه صـنع الـصيقل

وقـد التـزم بعض الشعراء بالنمط التقليدى لقصيدة المدح من حيث البدء بالوقـوف علـى الأطـلال، ووصـف الـرحلة إلى المـدوح، وما يلاقيه الشاعر فى سـبيل الوصـول إلـيه مـن مـتاعب وأهـوال، وإذا كان القدماء قد ركبوا الناقة أو الراحلة إلى المدوح، فإن الشعراء الصقليين استبدلوا بها ركوب البحر على نحو ما يتمثل فى قول ابن حمديس[3]:

إلـيك زجـرنا الفلـك فـى كـل زاخـر	معالمـنا مفقـودة فـى مجاهلـه

---

(١) الذخيرة ٢٢٥/١/٤.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٨٤.
(٣) نفسه ص٣٧٠ – ٣٧١.

وكانـوا يخـتمون مـدائحهم فـى الغالـب بطلب العطاء والاستجداء على طـريقة المـشارقة مـن مـثل قـول ابـن الخـياط فى ختام قصيدة يمدح بها الأمير مستخلص الدولة بن ثقة الدولة[1]:

وإذا منحـــتك مـــن ثـــناك نتـــيجة فعـــن المـــنائح مـــن نـــوالك تنـــتج

معاني شعر المدح :

أخـذ الـشعراء يـرددون فـى مـدائحهم تلك المعانى والأفكار الى تعاورها الـشعراء فى المشرق، ولم تخرج صفات الممدوح عن تلك الصورة العامة المحفورة فـى أذهـان الـشعراء، وهـذه ظاهـرة عامـة تميـز بها الشعر العربى فى مختلف عـصوره، "والواقـع أن الـشاعر عـندما يمدح لا يحاول أن يرسم صورة الممدوح، وإنمـا يحـاول أن يرسـم صـورة شخـصية تتمـثل فـيها الـصفات التـى يقـدرها المجـتمع، شخـصية مثالية قد تكون بعيدة كل البعد عن الممدوح إلا أن الشاعر يحـاول أن يـربطها بشخـصيته. لذلك فإن دراستنا لهذا النوع من الشعر — كما أعـتقد — يجـب أن تكـون قائمة على هذا الأساس، أى اعتبار كل قصيدة مدح صورة لشخصية مثالية يرسم الشاعر خطوطها بعد أن يستوحى صفاتها من القيم الخلقية للمجتمع[2].

وهـذا الـرأى صحيح إلى حد بعيد، فلا يزال الممدوح فى الشعر الصقلى مـثله مـثل الممـدوح فـى الـشعر المـشرقى، يتـصف بالجود والكرم، والشجاعة، والـسماحة والعدل، وما شابه ذلك من صفات مثالية ليس ضروريا أن تكون فيه على الحقيقة، ولكن من الضرورى أن تخلع عليه وأن تلتصق به.

ووصـف الممـدوح بالكـرم هـو أكثـر الأوصاف التى نلتقى بها فى مدائح الصقليين، فمن ذلك قول أحدهم[3]:

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٩٢.
(٢) إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى ص٨٨ – ٨٩.
(٣) الخريدة ٣٤/١/٤.

ملــــك إذا لاذ العفـــاة بـــبابه	أخـذوا مـن الأيـام عقـد أمـان
يعطـى الجـزيل، ولا يمـن، كأنمـا	فـرض علـيه نـوافل الإحـسان

ويقول أبو سعيد الوراق فى المعنى نفسه[1]:

إذا جـاد أحـيا جـوده كـل معـدم	فـلا عـدم إلا وهـو بالجـود قاضـبة
ويغـضى حـياء للـسؤال كأنمـا	يطالب مـن جـدواك ما أنت طالبه
سأنشر شكرى ما حييت فإن أمت	ستنـشره بعـدى علـيك غـرائبه

وممدوحهم هذا أغر أبلج، لا يمل من العطاء وتقديم الصلات، ولا غرابة فى هذا، فقد حاز عراقة المجد، وكرم الأصل عن آبائه وأجداده. وفى مثل هذه المعانى يقول محمد بن عبدالله الصقلى[2].

واقصد فتى الجود إسماعيل ممتدحاً	بخـير شـعر كـنظم الـدر منـتخل
تـنل فلاحـا وتظفـر[3] عـند رؤيـته	بكـل مـا تبتغـى مـن صـالح الأمـل
أغـر أبلـج إن حـال الجـواد علـى	ضنك الزمان عن المعروف لم يحل
حـاز التكـرم قـدما والـسماح معـا	والمجـد والفخـر عـن آبائـه الأول

وممدوحهم — فضلاً عن كرمه وسخائه — ذو هيبة كالليث إلا أنه يتودد إلى الناس، وهو برٌّ لا يخلف وعدا، ولا يخون عهداً، سباق إلى فعل الخيرات يعف لسانه عن قبيح القول، وينأى بنفسه عن صغائر الأمور، وله خلق نبيل فاضل، وعقل رصين ثابت، وراى سديد صائب يجلو ظلمات الشكوك إلى آخر تلك الصفات المثالية التى تضفى على الممدوح إضفاء، وتخلع عليه خلعا. وفى مثل هذه المعانى يقول أبو عبدالله محمد بن عيسى[4]:

هـذا الـذى جـدواه سـبعة أبحـر	زخـرت ولكـن مـاؤهن معـين
ذو هيـــبة كاللـــيث إلا أنـــه	مـتودد ولـه الـنفوس عـرين
ـر فلـيس الـوعد مـنه بمخلـف	أبـدا ولـيس العهـد مـنه يخـون

(١) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٢.
(٢) المحمدون من الشعراء ص٦٨ - ٦٩.
(٣) فى الكتاب (تظفره) وهو سهو من المحقق والصواب ما أثبته.
(٤) الخريدة ٣٩/١/٤.

فوليه في الأكرمين معظم وعدوه في الأصغرين مهين
وله إلى الفعل الجميل توثب وله من القول القبيح سكون
خلق كنوار الحدائق زاهر وحجى كأعلام الجبال رصين
وحمية تولى الأذلة عزة وتعلم الأيام كيف تكون
ونصيحة لله يوضح نورها ظلم الشكوك إذا دجت فيبين

وقد يمدحونهم بجمال المحيا وإشراقة الوجه، والتفرد بالحسن والملاحة من مثل قول سليمان بن محمد الطرابلسي[1]:

سبحان من صاغ الأنام بقدرة منه، وأفرد بالملاحة جعفرا
جعل المحاسن كلها مجموعة في وجهه كالصيد في جوف الفرا[2]

وكان طبيعياً أن تتأثر معاني المدح بأحوال صقلية السياسية حيث نجد الشعراء يشيدون بشجاعة الأمراء. ويتغنون بانتصاراتهم في الغزوات والحروب ويصفونهم بأنهم حماة العقيدة، والمدافعون عن الدين، وحاملوا رايات الجهاد وبأنهم يؤثرون الدين على الدنيا، ويسهرون من أجل نشر العدل وإحقاق الحق بين الناس، ويصرفون هواهم إلى دحر الأعداء، ويقدمون الركاب على الكعاب. ويعبر عن هذه المعاني أبو عبدالله الحسين بن علي فيقول في قصيدة يمدح بها الأمير ثقة الدولة[3]:

على العادات فاجر مع الأعادي وناد يجبك منهم كل ناد

وفيها يقول[4]:

عبيدك من تؤم من الأعادي وأرضك ما تروم من البلاد
فدونك يا عميد الملك فاعمد تنل إن رمتها ذات العماد
صرفت عن الأغاني والغواني هواك إلى العوادي والأعادي
وقدمت الركاب على كعاب مخضبة الترائب بالجساد

(١) المصدر السابق ص١٠٦.
(٢) الفرا: حمار الوحش.
(٣) عنوان الأريب ١/١٣٠.
(٤) نفسه ص١٣١.

وكـم باتـت جفـونك سـاهرات | سـهاداً يقتـضى طـيب الـرقاد
ومـن يـك فـى اللذاذة ذا اجتهاد | فإنـك ذو اجـتهاد فـى الجهـاد

ويقول ابن الخياط فى مدح الأمير جعفر بن ثقة الدولة[1].

ملـك تـضم الأرض قبـضته | حتـى تكـون جمـيعها طـبقا
يغـزو بـأدهم فـى العجـاج تـرى | لمـع الـسيوف بجـسمه بلقـا

ومـن يتتبع مدائح الصقليين يلاحظ أن هناك معنى يديره الشعراء كثيراً وهـم بـصدد المدح، فكانوا يمدحون الأمير أو الملك بنفاذ البصيرة، وبعد النظر، واسـتطلاع الغـيب، علـى تصور ما يجىء به المستقبل[2]. ويرى الدكتور إحسان عـباس أن هـذه الظاهـرة ليس لها صلة بفكرة الألوهية، ورفع الممدوح إلى مرتبة علـية، ولكـن فـيها شـىء من سخرية الواقع بالصقليين لإحساسهم بالعجز عن الـنفاذ فـى هـذا الـباب المغلـق، ولـيس فـى حـياتهم الـسياسية ولافـى شوراهم الاجتماعـية شـىء مـن بعد النظر، لأن المصلحة العاجلة كانت تبتسر أفكارهم، وتختزل لباقتهم فى حساب النتائج[3].

وقـد أدار ابـن الخياط هذا المعنى فى شعره كثيرا، فقال فى مدح الأمير انتصار الدولة[4]:

تـبدو بخاطـره الغـيوب جلـية | ويـرى الـضمائر إثـرهن خواطـر

وقال فيه أيضاً[5]:

فطـن يحـدث بالغـيوب تظنـيا | فكأنمـا لحظاتـه فـى الخاطـر

وقال فيه وفى أبيه مستخلص الدولة يمدحهما[6].

وكأنمـا الحـدثان خلـف زجاجـة | تـريانه خلـل الغـيوب شـفيفا

---

(١) نفسه ص١٣٣.
(٢) العرب فى صقلية ص٢١٥.
(٣) نفسه ص٢١٦.
(٤) شرح المختار من شعر بشار ص١٢٠.
(٥) نفسه ص١٢٠.
(٦) شرح المختار من شعر بشار ص١٢٠ - ١٢١.

وكأن أسرار الوجوه تصورت ... لكما بأسرار القلوب حروفا
فإذا انطوى يوما بغش نية ... نشرت فأصبح سترها مكشوفا

ولا شك أن تلك الحياة السياسية المتقلبة التى عاشتها صقلية، والتى كانت تنذر بالشر، هى التى أوحت إلى ابن الخياط وغيره من الشعراء بأن يرددوا هذا المعنى فى مدائحهم، ولا غرابة فى هذا، فقد كان مستقبل الجزيرة مجهولاً فى صفحة الغيب، وكان الغد يحمل فى طياته المفاجآت المزعجة، ولم يكن أحد يدرى ما يمكن أن تؤول إليه الأمور أو ما يحمله القدر من أنباء غير سارة والفتنة تطل برأسها بين لحظة وأخرى.

وتتغير معانى المدح بتغير صفة الممدوح نفسه، فتختلف المعانى التى يمدح الشاعر بها وزيراً أو كاتباً عن المعانى التى يمدح بها قائداً أو قاضياً، فإذا كان الممدوح وزيراً مدحه الشعراء بحسن الروية، وسرعة الخاطر بالصواب، وشدة الحزم وجودة النظر للأمير، والنيابة عنه فى المعضلات بالرأى، وإذا كان الممدوح كاتبا مدحه بالبلاغة وجودة الخط، والتفنن فى العلم، وإذا كان قاضياً مدح بالعدل والإنصاف والذكاء وتقريب البعيد فى الحق، والأخذ للضعيف من القوى، والمساواة بين الفقير والغنى، وإذا كان قائداً مدح بالشجاعة والجود والإفراط فى النجدة، وسرعة البطش وما شاكل ذلك[1].

فمن أمثلة هذا التخصص فى معانى المدح قول أحد الشعراء يمدح قائداً من القواد[2].

وإذا رماحك أشرعت فكأنها ... من حول أسد كماتك الآجام
وكأنما انسلخت هناك أراقم ... وكأنما باضت هناك نعام

(١) أشار ابن رشيق القيروانى إلى هذا التخصص فى شعر المديح من ناحية معانيه. أنظر العمدة فى صناعة الشعر ونقد/١٠٧/٢ وما بعدها ط. الخانجى.

(٢) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد جـ٣ (مخطوط).

ويقول أبو القاسم هاشم بن يونس من قصيدة يمدح بها قائداً يدعى أبا النصر[1]:

ويوم تنادوا من يجير من الردى	وما لخيول القوم من متصرف
وقفت أبا نصر تكفكف عنهم	وتطعن بالخطى أشرف موقف
لقاء أعاد وامتطاء مطيهم	وتقليب هندى وهز مثقف
أحب إليه من مدام وقينة	وأحور معشوق الشمائل أهيف

ويقول أبو الحسن بن الطوبى فى مدح أحد القضاة[2]:

بهاء فى سناء فى ذكاء	جمعت وعظم قدر فى علاء
إذا قاضى قضى بالجور يوماً	فأنت المرء نفذ فى القضاء

ومن الطريف أن نرى فى الشعر السقلى مدائح توجه إلى الإفرنج أو (الملوك النورمانيين)، وموطن الطرافة فى تلك القصائد هو تلك الروح التسامحية التى يعيش بها المادح والممدوح على تباين الدين، فى عصر لم يكن يسمح بذلك التسامح[3].

ولسوء الحظ فإن العماد الأصفهانى حذف أكثر الشعر الذى وجده فى مدح الكفار وقد تعمد هذا تعمدا بدليل قوله فى أحد الموضع[4]:

"واقتصرت من القصيدتين على ما أوردته لأنهما فى مدح الكفار فما أثبته".

وقوله فى موضع آخر تعقيبا على إحدى هذه القصائد[1]: "واقتصرت منها على هذه البغية مع الظمأ إليها، فما أوثر إثبات مدح الكفرة، عجل الله بهم إلى لفح ناره المستعرة، وهذا الشاعر معذور فإنه مأسور".

---

(1) الخريدة ١١١/١/٤.

(٢) مختصر الكتاب المنخل من الدرة الخطيرة ورقة ١٠٣.

(٣) العرب فى صقلية ص٣١١.

(٤) الخريدة ٢٥/١/٤.

ولو أن العماد قد أورد لنا قدرا كبيرا من هذا الشعر، لاستطعنا أن نظفر بصورة واضحة لعلاقة شعراء صقلية بالإفرنج، ومدى ما يمكن أن يكون قد حدث من تغيير أو تطور في معاني المديح وأفكاره ولكنه للأسف فإن النتف التي أوردها العماد لا تسعفنا في تصور مثل هذه الأمور.

وبصفة عامة يمكن القول بأن بواعث هذا اللون من المدح وأسبابه تنحصر فيما يلي:

١- تملق هؤلاء الحكام الجدد ومحاولة كسب رضاهم لإحساس الشعراء بالخوف منهم، وحتى يضمنوا لأنفسهم الأمن والنجاة. ويمثل هذا الفريق من الشعراء البثيري الصقلي، وقد أورد له ابن بشرون قصيدة طويلة في مدح رجار الفرنجي صاحب صقلية ولكن العماد الأصفهاني حذف منها الجزء الخاص بالمدح ولم يورد إلا ما يختص بوصف المباني والجنان[٢].

٢- ومن الشعراء من كان يتوجه بمدائحه إلى الإفرنج طمعاً في الخلاص من الأسر مثل أبي حفص عمر بن حسن النحوي الصقلي، وقد ذكر أنه شيخ لغة ونحو، وله في علمها سيح[٣] صحة وصحو، حصل في اعتقال الإفرنج في صقلية، وسيم أنواع البلية، وقد وصف شعره بأنه متناسب الحوك، متناسق السلك والسبك، وله قصيدة في مدح "رجار" صاحب صقلية وهو في قبضة الإسار. أولها[٤]:

(١) المصدر نفسه ص٤٩.
(٢) الخريدة ١/٤ ص٣٥.
(٣) السيح: الفيض.
(٤) الخريدة ٤٨/١/٤ - ٤٩.

طلب السلو لو ان غير سعاده حلت سويدا قلبه وفؤاده
ورجا زيارة طيفها فى صدها وغرامه يأبى لذيذ رقاده
والله لولا الملك روجار الذى أزرى محبيه عظيم وداده
ماعاف كأس الوجد يوم فراقها ورأى محيا المجد فى ميلاده

ومنها فى المدح :

يهتز للجدوى اهتزاز مهند يهتز فى كفيه يوم جلاده
ويضىء فى الديجور صبح جبينه فتخال ضوء الشمس من حساده
ومطالع الجوزاء أرض خيامه والنجم والقمران من وقاده
وإذا الأمور تشابهت فلعضبه خط يبيض سودها بمداده

ومنها :

يا أيها الملك الذى ثبتت به قدما الفطانة فى صفا أملاده
ودعته أرواح العدا فرمى بها لعبا تلقتها ظبى أغماده

وقد وقف (العماد) فى رواية القصيدة عند هذا الحد لأنه لا يؤثر إثبات مدح الكفرة على حد تعبيره، واكتفى بأن يلتمس الأعذار للشاعر الأسير[1].

وواضح من الأبيات أن معانى المدح التى يخلعها الشاعر على الملك النورمانى هى نفس المعانى المألوفة المتداولة التى مدح بها الأمراء المسلمون مثل مدحه بالكرم والشجاعة والثبات فى الحرب والحسم فى الأمور، والإشادة بفطنته وذكائه.

ومن القصائد الأخرى التى نظمت فى مدح الإفرنج قصيدة لشاعر من بنى رواحة يمدح فيها صاحب صقلية حين انكسرت به سفينة، وأسر، فوقف لملكها وأنشد[2]:

---

(١) أورد القفطى هذه الأبيات ولكنه لم يزد على ما رواه العماد شيئاً. أنظر إنباه الرواه ٣٢٨/٢.
(٢) المكتبة الصقلية ص١٥٢ – ١٥٣.

بقيت ووقيت الردى وكفيته ووفقت للدنيا ووفقت للأخرى

ويستعطفه فيها فيقول[1]:

وما بي سوى أم عجوز وصبية كزغب القطا لا تعرف "الصنع"[2] والضرا

تركتهم والله يعلم أنهم بأضيق حال لا يزيد به العمرا

مفاليس في ضر وشمل مشتت أشد من الأسرى فياليتهم أسرى

ولو أنهم أسرى لكانوا بغبطة فإنا لديكم لا نجوع ولا نعرى

ويقول الخبر إن روجار أطلق سراحه ووهبه أموالا وزوده وجهزه في مركب إلى أهله[3].

ونجد شاعرا مثل عبدالرحمن بن رمضان المالطي يخصص معظم شعره لمدح روجار يسأله العودة إلى مالطة، ولا يحصل منه إلا على المغالطة[4]. ولم يحتفظ العماد بشيء من شعره في المديح تأكيدا لفكرته التي أعلنها من قبل وهي أن هذا كله لغو لا ينبغي ذكره أو إثباته.

ومهما يكن من أمر فإن ما لدينا من هذا الشعر في مدح الإفرنج يوضح أنه لم يكن ينظم بمحض إرادة الشعراء ولكنهم — لسبب أو لآخر — اضطروا إلى ذلك اضطرارا، ودفعوا إليه دفعا، ولم ينساقوا إليه حبا في هؤلاء الحكام الجدد أو ترحيبا بها، وتعبيرا عن الولاء لهم.

(١) المكتبة الصقلية ص١٥٢ وما بعدها.
(٢) كذا بالأصل ولعلها "الضيق" أو "الضيع" أو "الضير".
(٣) المكتبة الصقلية ص١٥٢ – ١٥٣.
(٤) الخريدة ٢١/١/٤.

الرثاء

يعد الرثاء من الفنون الشعرية التى توسع فيها الشعراء الصقليون. ومع أنه لا يختلف فى معانيه وأساليبه عن رثاء المشارقة إلا أنه يتميز عنه بميزة أخرى وهى الإكثار من التفجع والتهويل والأحزان. وقد يبدو ذلك شيئاً طبيعياً إذا ربطناه بواقع الصقليين وظروفهم النفسية والاجتماعية، فقد كانت هذه الجماعة تشعر أنها تعيش غريبة فى هذه الجزيرة النائية، وازداد هذا الشعور قوة وعمقا بعد ضياع وطنهم، ونزوح كثير من أبناء هذا الوطن وهجرتهم فى مشارق الأرض ومغاربها، فأحس هؤلاء الصقليون الذين تمسكوا بالبقاء فى وطنهم بأنهم أصبحوا قلة، وأن ذهاب أى فرد منهم يعد خسارة اجتماعية فادحة وهذا ما يعلل لنا كثرة رثائهم وتفجعهم على موتاهم.

ومن يتتبع هذا الفن فى شعر الصقليين يلاحظ أنه متنوع فى موضوعاته واتجاهاته، فهناك رثاء الأمراء والقادة ورؤساء المسلمين، وهناك رثاء الأقارب والأصدقاء، وهناك لون آخر من الرثاء يتمثل فى رثاء الشباب والبكاء عليه.

وكان طبيعياً أن يكثر الشعراء من التفجع على ملوكهم وعظمائهم وقوادهم ولاسيما بعد سقوط صقلية، إذ كانوا يشعرون أن فقد أى عظيم أو قائد يعد خسارة فادحة لأنهم يفقدون بفقده الأمن والحماية. ويعبر الفقيه أبو عبدالله محمد بن عيسى عن هذه المعانى فيقول من قصيدة يرثى بها أحد رؤساء المسلمين[1]:

لقد مات فيه عدة أى عدة	لنا فعدمنا كل عيش به يرضى
وأبصارنا كانت تسامى له وقد	غدا الكل مناطرفه اليوم قد غضا
وقد كان طرفى ليس يغضى على القذى	فأضحى على أقذائه اليوم قد أغضى

(١) الخريدة ٤٤/١/٤.

ويقول مصوراً شجاعته وبطولته[1]:

بكته المذاكى المقربات وقطعت ... شكائمها إذ منه أعدمت الركضا[2]
مشت وهى بين الخيل أغزرها دما ... وأبرزها جسما وأهزلها نحضا
وكادت سيوف الهند تندق حسرة ... وأجفانها تنشق عنها لكى تنضا
وخط على الخطية الرزء أحرفا ... أرادت لها خفضا فحولها خفضا
شهدنا على قرب بمشهد موته ... مشاهد لم تخط القيامة والعرضا[3]

ويصف إحساس الناس بفداحة هذا المصاب، حتى إن سرورهم بالعيد انقلب إلى حزن بموته، فلم يستطيعوا الخروج لصلاة العيد كعادتهم كل عام بسبب حزنهم عليه[4]، يقول:

أعاد سرور العيد حزنا مماته ... ومبرم أمر فيه حوله نقضا
فما أحد وافى المصلى ضحى ولا ... دجى أبصرت من همه عينه غمضا

ويرثى ابن حمديس قائدا من قواد صقلية يدعى عبد الغنى بن عبدالعزيز الصقلى، ويكثر من التفجع والتحسر عليه، ويصف شجاعته فى الحرب، وبسالته فى الدفاع عن الوطن، وخسارة الناس بفقده، ويفيض فى وصف مآثره، وتعداد مناقبه، فيقول بعد مقدمة طويلة ضمنها كثيراً من الحكم[5]:

أى رزء جاءت به الريح فى الما ... ء وأفشته من لسان النعى
ومصاب أصاب كل فؤاد ... فى ابن عبد العزيز عبد الغنى
قائد قاده إلى الموت عز ... باقتحام كهل وعزم فتى
ورث العز من أبيه كشبل ... أخذ الفتك عن أبيه الأبى
يتقى حد سيفه كل علج ... بحبيك الماذى فى الآذى

---

(1) الخريدة ٤/١/٤٣.
(2) المذاكى: الخيل الشابة الفتية. المقربات: المكرمات العزيزات.
(3) العرض: موقف الحساب يوم القيامة حين يعرض الناس على الله.
(4) الخريدة ٤/١/٤٣.
(5) ديوان ابن حمديس ص٥٢٧.

ويصف شجاعته في الحرب واستشهاده وسخائه بنفسه فيقول[1]:

يا شهيداً في مشهد الحرب ملقى	وسعيداً بكل علج شقي
وسخياً بنفسه للعوالي	في رضى الله فعل ذاك السخي
كم ضروب ضاربته وجليد	وقريب طاعنته وقصي
وأخي وفضة كأم ولود	ما أصابتك من بنات القسي

ويمضي ابن حمديس في قصيدته فيصف أثر استشهاد هذا القائد الشجاع في نفوس الصقليين جميعاً فيقول إن أصدقاءه يذرفون دموعا لا تنقطع، والثكالى يخرجن حاسرات الوجوه، يندبن، وينحن، ويلطخن وجوههن بالسواد حزناً عليه، يقول[2]:

كم صديق بكاك مثلي بدمع	طالع من شئونه لاعصي
تذرف العين منه جرية ماء	تطأ الخد وهي جمرة كي
وثكالى يندبن منك بحزن	خير ندب مهذب ألمعي
حاسرات ينحن في كل صبح	بله دمعها وكل عشي
ليس يدري امرؤ أجز نواص	كان منهن أم حصاد نصي
سودت بالمداد بيض وجوه	فهي في كل برقع حبشي

ويصف ابن حمديس علاقته بهذا القائد الشجاع ومدى ما حل به من حزن وألم لفراقه فيقول[3]:

يا خليلا أخل بي فيه دهر	للوفاء الأحرار غير وفي
أنت بالموت غائب، ومثال	في ضمير الفؤاد منك نجي
أنا أبكي عليك ما طال عمري	شرق العين من دموع بري
وستبكيك بعد موتي القوافي	في نياح من لفظها معنوي

والقصيدة طويلة، وهي مثال صادق لقصيدة الرثاء الصقلية بما فيها من سمات وخصائص، ففيها فداحة الإحساس بالمصاب، وفيها جرعة لا بأس بها

---

(١) نفسه ص٥٢٨.

(٢) ديوان ابن حمديس ص٥٢٩.

(٣) ديوان ابن حمديس ص٥٢٨.

مـن الـتفجع والتحـسر والـتهويل، ولكـن معانى ابن حمديس مألوفة ليس فيها شـىء جديد. بل قد نحس باهتزاز الريشة فى يده أحياناً ولاسيما فى مثل قوله إن الـثكالى يـندبن ندباً مهذباً ألمعياً. فهذا معنى سقيم مضطرب لأن "الندب" لا يمكن أن يوصف بمثل هذه الأوصاف.

وفى مثل هذا اللون من الشعر نحس دائماً صوت الرجل "الحكيم" الذى يتمـثل العـبرة المجـسمة فـى حقيقة الموت ويربط فى ذلك بين الماضى والحاضر وربمـا نلتقـى بأمـثلة مـن هـذا الـشعر لـيس فيها شىء من تصوير التأثر الذاتى للحادثة المباشرة وإنما فيها أسى عميق على العظماء من بنى الإنسان، فهو بكاء على (العظمة) من خلال تصوير عظمة الموت، رجاء التأسى[1].

ويمكـن أن نمـثل لـذلك بهـذه القـصيدة لـشاعر يدعـى محمد بن أحمد الصقلى يرثى فيها الأمير ثقة الدولة، فيقول[2]:

مـل بعـين الفكـر تـدرك حقائقـا	مـن العلم ليست عـن ظنون تترجم
إذا حـان مـنك الحين لم تغن رقية	ولم يدفـع المحـتوم عـنك مـنجم
فخذ حذرا مـن فجأة المـوت إنما	تـسير علـى إثـر الـذين تقدمـوا
فلـو كان مخلـوق مـن المـوت ناجيا	نجا فى رؤوس الـشمخ الصم أعصم
يعـز علـينا أن نـؤبن هالكـا	وعادتـنا فـيك المـديح المـتمم
سـقى الله أرضـا حلـها قـبر يوسـف	مـن المـزن وكافـا يجـود ويـسجم
وصـلى علـيه الله مـن متوسـد	يميـنا لهـا فـى كـل فـضل تقـدم

فالـشاعر هنا يلبس مسوح الحكيم، ويحاول أن يستخلص عبرة الموت، ولا يدع مجالا للعاطفة أو التأثر، ولذلك جاءت أبياته هادئة النغمات، مقفرة من العاطفة، خالية من الانفعال الذاتى.

(1) الأدب الأندلسى فى عصر الطوائف والمرابطين ص١١٩.

(2) المحمدون من الشعراء ص٦٩ – ٧٠.

وهناك لون آخر من الرثاء، هو رثاء الأقارب، وفيه يطلق الشاعر العنان لأحاسيسه الحزينة، فيتألم، ويبكى، ويتفجع، ويصاب بالهلع والجزع، ولا غرابة فى هذا، فالمصاب مصابه، والكارثة كارثته.

ومثل هذا الشعر يترك المجال فسيحاً لإظهار ذاتية الشاعر، ولعل من أبرز خصائصه أنه يتميز بصدق العاطفة، وحرارة الانفعال.

وماذا ننتظر من شاعر فقد أمه أو أباه أو زوجته أو ابنا من أبنائه غير أن يصرخ وينتحب، ويصاب بالذهول، ويعاتب الدهر، ويلعن الأقدار الظالمة، وينظم شعراً حزيناً بعكس مشاعره الحزينة انعكاساً صادقاً؟

ونلتقى فى الشعر الصقلى بأمثلة كثيرة لهذا الرثاء. من ذلك قصيدة للبلنوبى يرثى بها أمه، وفيها يقول[1]

يا أكرم الأمهات الطاهرات لقد	أودعت قلبى غليلا دون النار
بينى وبينك بعد المشرقين على	قرب المزار، وما شطت بك الدار
من كان يخبرنى والدار جامعة	أن الأحبة بعد العين آثار

ويمضى البلنوبى فى رثائه، فينحى باللائمة على هذا الدهر الغادر الذى اختطف والدته، وتركه وحيدا منهكا لا يستطيع أن يفعل شيئا، يقول[2]:

يا دهر أعظم شىء هدنى أسفا	طعينة لك لم يدرك لها ثار
لو كنت يا دهر من يلقى مبارزة	أو كان يدفع بالمقدار مقدار
ثناك جيش يثير النقع مشتمل	لكنه لقنا الخطى خطار

ولكن البلنوبى لا يستطيع أن يمضى فى تفجعه وبكائه دون أن يستحضر العبرة، فإن المرء يلقى الموت مضطرا دون أن يملك له دفعاً ولا رداً، وإذا أراد المرء أن يستحضر عبرة الموت فما عليه إلا أن ينظر إلى نفسه وإلى أخيه ليرى العبرة والموعظة ماثلتين أمام عينيه، يقول[3]:

---

(١) ديوان البلنوبى ورقة ٦ — ٧.

(٢) نفسه ورق ٧.

(٣) ديوان البلنوبى ورق ٧.

يلقى الفتى وهو مضطر عصائبه كأنما هو للتسليم مختار
وكم لنا فى خلال العيش من قدم نسر أن تتقضى وهى أعمار
للمرء فى المرء تنبيه وموعظة لو كان ينفع إعذار وإنذار

ولا يضاهى فقد الأم لوعة إلا فقد الأخ، فإن المرء حين يفقد أخاه فإنما يفقد ساعده الأيمن، وذراعه القوية، ويشعر أن جناحه قد هيض، وأنه قد فقد لذة العيش. ويعبر محمد بن الحسين القرنى عن مثل هذه المعانى فى قصيدة يرثى بها أخاه، وفيها يقول[1]:

أبا حفص فقدت الصبر لما رأيتك تحت أطباق الصفاح
وكنت يدى وسيفى عند بطشى ورمحى عند مشتجر الرماح
ولست وإن لحانى فى بكائى عليك بسامع ما قال لاحى
ولا أرجو صفاء من زمان يغص المرء بالماء القراح
وكيف وقد فقدت لذيذ عيش لفقد أخى وهيض له جناحى

أما ابن حمديس فقد كانت حياته سلسلة متصلة من المآسى والأحزان، فقد قدر عليه أن يفقد وطنه، وأن يصاب فى أهله وأقاربه، فكان يأتيه نعى النعاة وهو فى دار الغربة، مما أذكى الأسى فى نفسه، فبكاهم بكاء حارا، ورثاهم رثاء حزيناً صادقاً ينم عن إحساسه بألم الفراق، وقوة الفجيعة. يقول ابن حمديس فى رثاء جدته[2]:

فياليتنى شاهدت نعشك إذ مشى حواليه: لا أهلى حفاة ولا صحبى
ودفنك بالأيدى الغريبة والتقت مع الموت فى إخفاء شخصك فى حدب
فأبسط خدى فوق لحدك رحمة وتسقى عليه الترب عيناى بالهدب

وبينما كان ابن حمديس يتنسم أخبار أهله وأحبابه وهو فى دار الغربة، إذا بالنعاة يحملون إليه خبر وفاة ابنته. وكانت هذه الإبنة قد ظنت قبل موتها أن أباها قد مات فعاشت حزينة ثكلى حتى ماتت. وقد فزع ابن حمديس للنبأ،

(1) المحمدون من الشعراء ص٢٥٨ - ٢٥٩.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٣٦ - ٣٧.

وزاد في حزنه إحساسه بأنه غريب، وامتزجت هذه المشاعر كلها في نفسه فرثاها بقصيدة باكية حزينة قال فيها[1]:

أراني غريباً قد بكيت غريبة ... كلانا مشوق للمواطن والأهل
بكتني وظنت أنني مت قبلها ... فعشت وماتت– وهي محزونة–قبلي

ويشيد ابن حمديس بمناقب ابنته وما كانت تتحلى به من صفات كريمة ويصف حال أبنائه الصغار الذين كانت ترعاهم بعد أن فقدوا أمهم فيقول[2]:

أساكنة القبر الذي ضم قطره ... على البر منها والديانة والفضل
أصابك حزن من مصابي قاتل ... فهل أجل لاقاك قد كان من أجلي
وخلفت في حجر الكآبة للبكا ... بنات لأم في مفارقة الشمل
يرين كأفراخ الحمامة صادها ... أبو ملحم[3] في وكره كأبي الشبل
بكتك قوافي الشعر من غزر أدمع ... بكاء الحمام الورق في قضب الأثل
وكل مهاة حول قبرك بالفلا ... لما بين عينيها وعينيك من شكل
فروى ضريحا من كفاح عن الثرى ... له وابل بالخصب ماخط بالمحل

ونلتقي بلون ذاتي آخر من الرثاء، وهو رثاء الزوجات. ويعتمد على ميل أصيل في نفس الشاعر إلى البوح كأنه ترجمة ذاتية قصيرة[4]. ومن أمثلته قول ابن حمديس يرثي زوجته على لسان ابنه[5]:

أمتا هل سمعتني من قريب ... حيث لي في النياح صرخة قرم
كنت أخشى عليك ما أنت فيه ... لوتخيلت في مصابك همي
كم خيال يبيت يمسح عطفي ... لك يا أمتا ويهتف باسمي
وبنات عليك منتحبات ... بخدود مخدرات بلطم

---

(1) نفسه ص٣٦٦.
(2) نفسه ص٣٦٦ – ٣٦٧.
(3) أبو ملحم : النسر.
(4) الأدب الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ص١٢٣.
(5) ديوان ابن حمديس ص٤٧٩.

بتن يمسحن منك وجهاً كريماً	بوجوه من المصيبة قتم
وينادين بالتفجع أما	يا فداء لها إجابة غتم[1]

ولكن هذه الصورة الحزينة التى يرسمها ابن حمديس لزوجته لا نراها فى رثائه لجاريته "جوهرة" التى غرقت فى البحر، فرثاها، ولكنه لم يهتم بالبكاء عليها بقدر اهتمامه بندب محاسنها، والتغزل فى جمالها، ونستطيع أن نلمس ذلك فى قوله يرثيها[2]:

أى الثلاثة أبكى فقده بدم	عميم خلقك أم مغناك أم صغرك؟
من أين يقبح أن أفنى عليك أسى	والحسن فى كل فن يقتفى أثرك
كنت الشبيبة إذ ولت ولا عوض	منها ولو ربح الدنيا الذى خسرك
ما كنت عنك مطيلا بالهوى سفرى	وقد أطلت لحينى فى البلى سفرك
هل واصلى منك إلا طيف ميتة	تهدى لعينى من ذاك السكون حرك
أعانق القبر شوقا وهو مشتمل	عليك لو كنت فيه عالما خبرك
وودت يا نور عينى لو وقى بصرى	جنادلا وتراباً لاصقاً بشرك

ويمضى ابن حمديس فى رثائه لجوهره فيفيض فى وصف محاسنها ويتغنى بتفتير مقلتيها، وملاحة وجهها، ويسترجع ذكرياته معها، ويتحسر على "دولة الوصل" التى ولت عن بصره وأصبح يقرأ سمرها فى صحف الأسى، ويتوجه بحديثه إلى "جسدها" الذى أصبح خالياً من الروح الذى كان يعمره، ويخاطب وجهها الذى حجب عن بصره ويظل يعزف على هذا الوتر حتى ليخيل إلى القارىء أنه قد تحول عن الرثاء إلى الغزل، وإلى وصف شوقه وغرامه بدلاً من وصف أحزانه وآلامه.

ونلتقى فى الشعر الصقلى بلون آخر من الرثاء، وهو رثاء الأصدقاء، ولا شك فى أن الصداقة عاطفة سامية نبيلة تربط قلوب البشر بروابط المحبة والوفاء والتضحية، وقد يجد المرء فى صديقه من المعانى النبيلة ما قد لا يجده فى

(1) الغتم : الذين فى منطقهم عجمة، أى فداؤها هؤلاء.

(2) ديوان ابن حمديس ص ٢١٢ - ٢١٣ .

أقرب المقربين إليه أو من تربطه بهم صلة الرحم ووشائج النسب والقرابة، فالصديق هو الذى يقف إلى جانب صديقه فى وقت الشدة، ويشاركه أفراحه وأتراحه وقد يضحى بحياته من أجله. ومن هنا يصبح فقد الصديق مصاباً كبيراً وخطباً جللاً يقول الفقيه عيسى بن عبدالمنعم من قصيدة طويلة فى رثاء أحد أصدقائه[1]:

جل المصاب وجل الخطب أوله ... فالحزن آخر ما آتى وأوله
وكل وجد وإن جلت مواقعه ... فقد الأخلاء إن فكرت أثكله
أبا على بن عبد الله إن بنا ... عليك وجداً غداً أدناه أقتله
هل فى السرور وقد أوديت من طمع ... لصاحب أو عديم كنت تكفله
كم صاحب نال ما يبغى بجاهكم ... عفوا وكم بسرور كنت تشمله
قد كان سعيك فى محياك أحمده ... وذكرك اليوم بعد الموت أحمله

ويمكن أن نلحق بشعر الرثاء ما وجد على شواهد القبور فى صقلية من أشعار. وقد عثر على بعضها المستشرق (جويدى) وأثبتها فى محاضراته[2]. ولم نقرأ فى مصادر الأدب أية إشارات إليهما. ومن أمثلتها هذه الأبيات التى كتبت على شاهد قبر رجل اسمه "يسين بن على" وهى على لسان الشاهد يخاطب الميت[3]:

بعدت فما فى العيش بعدك طيب ... وغبت عن الدنيا فلست تؤوب
مقيم إلى أن يبعث الله خلقه ... لقاؤك لا يرجى وأنت قريب
ووجهك يبلى كل يوم وليلة ... وودك لا ينسى وأنت حبيب
عليك سلام الله ما ذر شارق ... وما اهتز فى دوح الأراك قضيب

وأبيات أخرى على شاهد قبر آخر فى (بلرم) لامرأة اسمها "ميمون بنت حسان" وهى[4]:

---

(1) الخريدة ٣٠/١/٤ وما بعدها.
(2) أنظر محاضرات جويدى ط. مجلة الجامعة المصرية ص٣٦.
(3) محاضرات جويدى ص٣٦.
(4) نفسه ص٣٦.

أنظر بعينيك هل في الأرض من باق	أو دافع الموت أو للموت من واق؟
الموت أخرجني قسرا فيا أسفا	لم ينجني منه أبوابي وأغلاقي
وصرت رهنا بما قدمت من عمل	محصى على وما خلفته باق
يا من رأى القبر إني قد بليت به	والترب غير أجفاني وآماقي
في مضجعي ومقامي في البلى عبر	وفي النشور إذا ما جئت خلاقي

وقد فرضت الظروف على بعض الشعراء أن ينظموا بعض المراثي في الإفرنج ولكننا نلاحظ أن حظها من الانفعال الذاتي ضئيل. وأنها تخلو من الصدق، لفقدان التعاطف المشترك بين الشاعر وبين المرثي. ومن أمثلتها قصيدة للشاعر أبي الضوء يرثي بها ولدا لروجار حاكم صقلية وفيها يقول[1]:

خبا القمر الأسنى فأظلمت الدنا	وماد من العلياء والمجد أركان
أحين استوى في حسنه وجلاله	وتاهت به أطوار عز وأوطان
تخطفه ريب المنون مختالا	على غرة، إن المنون لخوان
كذلك أعراض البدور يعوقها	إذا كملت من حادث الدهر نقصان

ويمضي أبو الضوء في قصيدته فيحشد ألفاظا تتصل بمعنى الحزن ولا تنطوي عليه، ويحشد المبالغات حشدا لأن المضطرب الذي يهوى فيه محدود وربما لم يساعده كثيرا في الرثاء أنه ليس من الشعراء الذين يجيدون العزاء في مظاهر كونية حتى يلجأ إلى الحكمة والتفلسف في أمر الموت، فهو ضيق الباع، قصير الرشاء من ناحيتين: ناحية المعاني التي لابد أن يتجاوزها في مثل موقفه، والضعف في هذه الناحية يجيء من ضعف الشعور الديني المتبادل أما الناحية الأخرى فهي ضعف مذهبه الشعري[2].

ولم يقتصر الشعراء في رثائهم على مثل هذه الأمور الحسية، ولكنهم اتجهوا به وجهات أخرى، فخرجوا به عن دائرة الأشخاص إلى آفاق أخرى معنوية، فنجد منهم من يرثي شبابه في قصيدة كاملة يقصرها على هذا

---

(١) الخريدة ٣٥١/١/٤.

(٢) العرب في صقلية ص٢٨٢ – ٢٨٣.

الغرض، ولا شك أن هذا أثر من آثار الحضارة المدنية فى تلك البيئة الجديدة.

فمن ذلك قصيدة لمحمد بن زيد اللخمى يرثى بها شبابه فيقول[1]:

بنفسى شباب بان غير مذمم	ووكل قلبى بالأسى وعذابه
فياليت إذ ولى تولى بحرمة	وأبر أنى من موبقات اختضابه
ولكنه أبقانى الدهر بعده	بعفو إلهى أو لمس عقابه
عدمت الأمانى فاجتزيت بدونها	ومن عدم الماء اجتزى بترابه

ويرثى ابن حمديس شبابه فيقول[2]:

كنت المحب كرامة لشبيبتى	حتى إذا وخط المشيب قليت
من أستعين به على فرط الأسى	فأنا الذى بجنايتى عوديت
كنت امرأ لم ألق فيه رزية	حتى سلبت شبيبتى فرزيت
تهدى لى المرآة سخط جنايتى	فالله يعلم كيف عنه رضيت
وإذا المشيب بدا به كافوره	كفرت به فكأنه الطاغوت

وعلى هذا النحو سار الشعراء الصقليون فى رثائهم، منوعين فى موضوعاته مكثرين من التفجيع والتحسر على موتاهم، محتفظين لقصيدة الرثاء بمنهجها وشكلها التقليدى.

أغراض أخرى:

وإذا كانت البيئة الصقلية قد ساعدت على توسيع نطاق بعض الأغراض الشعرية كالغزل والمدح والرثاء، فقد أدت من ناحية ثانية إلى تقلص بعض الأغراض الأخرى مثل شعر الحكمة والفخر والهجاء.

أما شعر الحكمة فلم يزدهر لأن الشعراء الصقليين مالوا بطبيعتهم إلى السهولة والبساطة فى التفكير، ولم ينصرفوا إلى حياة التأمل.

وربما كان من أسباب ذلك أيضاً أن الفلسفة لم تزدهر فى صقلية ولم تلق اهتماماً كبيراً من قبل الصقليين، ولا يعنى هذا أن الشعر الصقلى يخلو تماما

---

(1) الخريدة ١٤٠/١/٤.

(2) ديوانه – ص٧٣.

مـن شعر الحكمة أو الشعر الفلسفى، فقد نجد بعض الأمثلة المتناثرة هنا وهناك ولكـنها قـليلة، لا تـستقل بذاتها، وإنما تأتى ضمن بعض أغراض الشعر كالمدح والـرثاء، وأكثـرها لا يـتجاوز الـتجارب الـسطحية العابرة، ويغلب عليها طابع النصائح والمواعظ.

وكـذلك شـعر الهجـاء، فلم تقم له سوق رائجة فى صقلية، وكان حظه مـثل حـظ شـعر الحكمـة، فقـد انـصرف عـنه الشعراء بقصد الترفع عن الدنايا وسفاسـف الأمـور، ولأن بيئـتهم الحـضرية لم تستسغ مثل هذا اللون من الشعر وتكاد هذه النزعة تطرد عند أكثر الشعراء، فابن حمديس يقول[1]:

إنـــى امـــرؤ لا تـــرى لـــسانى ـــــنظما، ماحيـــيت، هجـــوا

ويقول ابن الطوبى[2]:

إذا ســـــبك إنـــــسان فدعـــه يكفـــك الـــرب

ولا تنـــبح علــــى كلــــب إذا مـــا نـــبح الكلـــب

ويقول الفقيه أبو حفص عمر بن مازوز اللواتى[3]:

إذا ســبنى وغــد تــزيدت رفعــة ومــا العــار إلا أن ترانــى أســابه

ولــو لم تكــن نفسى علــى كــريمة لأمكنــتها مــن كــل وغــد تجاوبــه

أما الفخر فلم يختف تماما من الشعر الصقلى، لأن الأجناس المختلفة لم تنـصهر بحـيث تنـسى عصبياتها القبلية، ولذلك فقد مثل الشعر هذه الروح فى بعـض جوانـبه، وإن لم تكـن الخـصومات بـين القـبائل عنـيفة مـثلما كانـت بالأندلس[4]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٥٢٠.
(٢) الخريدة ٧٢/١/٤.
(٣) عنوان الأريب ١٣٢/١.
(٤) العرب فى صقلية ص١٧٧.

وليس فى الشعر الصقلى فخر بالأجناس عامة، ليس فيه شعر بمجد العرب أو البربر وإنما فيه اعتزاز بالقبيلة، فالكلبى يفتخر بكلبيته، والقيسى بأن قومه غلبوا قيصر وفتكوا بحمير[1] كما يبدو فى قول ابن الصباغ[2]:

قومى الذين إذا السنابك أنشأت	دون السحاب سحائبا من عثير[3]
برقت صوارمهم وأمطرت الطلى	علقا كشريان الحيا المتفجر[4]
الواترين فلا يقاد وتيرهم	والفاتكين بحمير وبقيصر
والمانعين حماهم أن يرتعى	والحاسمين لكل داء يعترى

ويفتخر ابن القطاع بقومه الأغالبة الذين ينسب إليهم فيقول[5]:

نحن بنو الأغلب سدنا الورى	طرا ببذل النائل الغمر
والضرب بالبيض رءوس العدى	والطعن فى اللبات بالسمر
إن فخر الناس علوناهم	بالبذل والإقدام والصبر
والحسب السامى الذى تاجه	فى هامه الإكليل والغفر
والبيت من سعد ومن خندف	أكرم بذاك البيت والنجر

وهكذا لم تستطع الظروف الإقليمية أن تخرس صوت الفخر فى شعرهم تماما، وأن تكبت فيهم روح الحماسة، وتقضى على حدة البداوة فى نفوسهم، بل ظلت العصبية والنعرات البدائية تطفو على الشعر الصقلى من حين إلى آخر.

(١) نفسه ١٧٦.
(٢) الخريدة ٩٠/١/٤.
(٣) العثير: الغبار الذى تثيره حوافر الخيل.
(٤) الطلى "بضم الطاء": الأعناق - العلق: الدم الغليظ.
(٥) عنوان الأريب ١٢٦/١ - ١٢٧.

الفصل الرابع

السمات الفنية للشعر الصقلى

- اللغة والأسلوب
- الصور الفنية
- الموسيقى والأوزان

السمات الفنية

بعد أن استعرضنا فنون الشعر الصقلى وموضوعاته، يجدر بنا أن نلقى الضوء على بعض السمات الفنية التى تميز هذا الشعر، وأن نقف على خصائص لغته وأسلوبه، وملامح صوره الفنية، وما يمكن أن يكون قد طرأ على أوزانه وموسيقاه من تطور. وقد رزق الشعر الصقلى من هذه السمات شيئاً كثيراً، منها ما يتفق مع الخصائص العامة للشعر العربى، ومنها ما يستلهم فيه روح العصر وأجواء البيئة الصقلية المتحضرة.

اللغة والأسلوب :

تطور أسلوب حياة الشعراء الصقليين، وتطورت بهم الحياة الاجتماعية، وعاشوا فى بيئة أعجمية يختلط فيها رنين أجراس الكنائس بأصوات المآذن والمؤذنين، ويسمع فيها خليط عجيب من اللغات واللهجات، فكان طبيعيا أن تتأثر لغتهم بهذه البيئة المتحضرة، وأن تواكب هذا المجتمع الجديد.

وكان أول ما طرأ على هذه اللغة أنها تخلصت من الغموض والتعقيد، وتغير إحساس الشعراء بالألفاظ بتطور ذوق العصر، وتخلصوا ما أمكن من الوقوع تحت تأثير المعجم اللغوى القديم، وأخذوا يعبرون عما فى نفوسهم بلغة بسيطة سهلة لا توعر فيها ولا إغراب. ولعل هذا التطور اللغوى لم يقتصر على صقلية وحدها، وإنما كان امتدادا للتطور اللغوى الذى كان يشمل البيئات العربية فى تلك الفترة التى نضطلع بدراستها. وفى هذا يقول يوهان فك[1]:

"لقد تراجع فى ذلك العهد الطابع الوحشى للغة العربية القديمة بثروتها الفياضة فى الألفاظ والقوالب أمام أسلوب منمق مهذب لا يسبب استواؤه

---

(١) العربية تأليف يوهان فك ترجمة عبدالحليم النجار ص٥٨.

وسهولته صعوبات ذات بال للأفهام . وهذه اللغة المنسكبة الواضحة سرعان ما احتذيت واستعملت فى الأدب من قبل المثقفين جميعا فى العالم الإسلامى دون تمييز بين أصل وجنس، ولا بين لغة أصلية ولهجة وطنية خاصة".

وكثيراً ما يلتقى القارىء بشواهد كثيرة فى الشعر الصقلى تدل على تأثير الحضارة فى لغته وألفاظه، فنرى الشعراء يستعملون عبارات مثل (يا زهرة الدنيا، ويا شقيق الفؤاد ويا ملك العصر، ويا سيدى .. إلخ) فمن ذلك قول أبى الفضل مشرف بن راشد[1]:

يا شقيق الفؤاد حكمك جور ... لك منى حب ولى منك بغض

ويقول أبو الفتح بن القرقورى[2]:

فيا زهرة الدنيا التى ليس تجتنى ... من الصون إلا بالعيون وتقطف

ونسمع ابن حمديس يخاطب ممدوحه فيقول[3]:

فيا ابن تميم والعلى مستجيبة ... لكل امرىء ناداك يا ملك العصر

ويستعمل أبو الفضل جعفر بن البرون لفظة (سيدى) فى المخاطبة فيقول[4]:

إنى أبثك سيدى ... ما ليس يحمله بشر

وعلى نحو ما أثرت الحضارة فى ألفاظ الشعر، فقد أثرت فى أسلوبه أيضاً، فمال إلى السهولة والرقة حتى أصبحت هاتان السمتان من ألصق خصائص هذا الشعر، ونستطيع أن نتلمس هذه الظاهرة فى كثير من قصائد الشعراء الصقليين، فلا تكاد تخلو منها قصيدة أو مقطوعة شعرية ومن أمثلتها قول ابن حمديس[5]:

---

(١) الخريدة ١٠٣/١/٤.
(٢) الخريدة ١٠٨/١/٤.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٢١٧.
(٤) الخريدة ١٧/١/٤.
(٥) ديوان ابن حمديس ص٢٥٩.

يـا هــده لا تـسألى عــن عبرتــى	عينــى علــى عينــى علــيك تغــار
ما كنت أحسب غصن بان فى نقا	تــشكو ألــيم القطــف مــنه ثمــار

ويقول أيضاً[1]:

ســــألتها أن تعـــــيد لفظـــــاً	قالـــت أصـــم دعـــوه يعـــذر
حديــــثها ســـــكر شــــهى	وأطـــيب الـــسكر المكـــرر

ونلحظ هذه الرقة فى مثل قول البلنوبى[2]:

ولقـــد وجـــدت الـــصبر بعـــدكم	صـــعبا، وكــــنت أظـــنه ســـهلا
لا مـــرحبا بالـــبين مـــن أجـــل	تـــنأى الحـــياة بـــنا ولا أهـــلا
قـــد كـــان لى ملكـــا دنـــوكم	فـــالآن أصـــبح بعـــدكم عـــزلا

وتأثرت لغة الشعر بالطبيعة الصقلية تأثرا واضحاً يبدو فى عكوف الشعراء على معجم ألفاظ الطبيعة يستمدون منه ويسترفدون، ولذلك فمن الطبيعى أن تجد أشعارهم على اختلاف موضوعاتها زاخرة بالألفاظ المستمدة من الطبيعة. ويكفى أن يطالع القارىء ديوان ابن حمديس لكى يلحظ هذه الظاهرة بوضوح.

وتميزت لغة الشعر الصقلى أيضاً بالميل إلى البساطة والشعبية والاقتراب من لغة العامة، وكان مما ساعد على ذلك كثرة الطبقات الشعبية فى المجتمع الصقلى، وإقبال سكان الجزيرة الأصليين على الإسلام، والتحدث باللغة العربية.

ونستطيع أن نلمس مثل هذه البساطة والشعبية فى قول البلنوبى[3]:

يـــا ذا الـــذى كـــل يـــوم	يـــزيد عقلـــــى خـــبالا
دلهتنــــــى بـــــك حتــــــى	رأيـــــت رشـــــدى ضـــــلالا
أدعـــــو علــــيك وقلبــــــى	يقـــــول : يـــــارب لا لا !!

---

(١) المصدر نفسه ص٥٥٢.
(٢) الخريدة ٤/١/١٤.
(٣) الخريدة ٤/١/١٣.

ونلمسها في مثل قوله[1]:

كتبت فلم تجبني عن كتابي ... ولم يعد الرسول على حرفا
فآها ثم آها ثم آها ... وأفا ثم أفا ثم أفا

وقوله في ذم مغن[2]:

غني كمن قد صاح في خابية ... لا وهب الله له العافية

وقد يستخدم الشعراء بعض الأمثال الشعبية بهدف الاقتراب من العامة كما في مثل قول ابن حمديس[3]:

سلم الأمر منك لله واعلم ... أن ما قد قضى به سيكون

ومن سمات لغة الشعر خروج بعض الشعراء على قواعد اللغة ولذلك تكثر الأخطاء اللغوية في قصائد بعض الشعراء وقد لحظ العماد الأصفهاني هذه الظاهرة فقال عن شاعر يسمى (الغاون الصقلي): "وقد وجدت في شعره لحنا كثيرا"[4] فمن أمثلة هذه الأخطاء قول عيسى بن عبدالمنعم الصقلي[5]:

عذراء ينهب درعها من خدها ... وخمارها من ذى ذوائب أسحم
وعقودها من نهدها في شكلها ... وحلاؤها من لوني المتسهم[6]

وقوله[7]:

صفراء تدلع بالبياض لباسها ... وخمارها بمعصفرات الأخمر[8]

وقد يلجأ الشعراء إلى بعض الضرورات الشعرية من مثل قول ابن حمديس[9]:

---

(١) المصدر نفسه ص٧٢.
(٢) نفسه ص٦٩.
(٣) ديوان ابن حمديس ص٥١٦.
(٤) الخريدة ٢٨/١/٤.
(٥) المصدر نفسه ص٢٩.
(٦) لم نجد في معجمات اللغة تسهم بمعنى سهم أي تغير لونه - أنظر هامش الخريدة ص٢٩.
(٧) الخريدة ٣٠/١/٤.
(٨) الخمرة: الورس، والخمار: ما تغطى به المرأة رأسها، وكلاهما لا يجمع على أخمر.
(٩) ديوان ابن حمديس ص٢١٨.

وإن كنت عن مجرى السوابق غائباً   فحاضر سبقى فيه مع قرح الخطر[1]

وتميزت لغة الشعر أيضاً باستعمال بعض الألفاظ الأجنبية، وكان من المتوقع أن نرى فى هذا الشعر بعض الألفاظ اللاتينية أو الإيطالية أو اليونانية التى كان يمكن أن تتسرب إليه نتيجة اختلاط الشعراء بالأجناس المختلفة التى تستعمل هذه اللغات، ولكننى لم أعثر على شىء منها، ولم أجد سوى بعض الألفاظ الفارسية التى تسربت إليه من المشرق من مثل قول ابن الطوبى[2]:

أتيت إليه فى قيظ شديد   فحيانى محياه بثلج
فقلت عدمت عندك بادهنج   ولكن وجه هذا بادهنج[3]

ويقول ابو الفضل جعفر بن البرون[4]:

أبصرته فى يلمق[5]   كالغصن أثمر بالعمر

ومن الظواهر البارزة أيضاً اقتراب أسلوب الشعر من النثر فى قصائد كثيرة حتى ليخيل إلينا فى كثير من الأحيان أنه لم يعد متميزاً عنه إلا بالوزن والقافية. ولدينا أمثلة كثيرة تنهض لتؤكد ذلك، منها قول أحد الشعراء[6]:

ليس فى الدنيا سرور   إنما الدنيا غموم
وإذا كان سرور   فقليل لا يدوم
تركها أفضل منها   ذا بهذا لا يقوم

ونلمس هذه الظاهرة أيضاً فى مثل قول ابن الطوبى فى استدعاء صديق[1]:

---

(١) الخطر: السبق أو الشىء يتراهن عليه وهو مفتوح العين وإنما سكنه للشعر.

(٢) الخريدة ٦٤/١/٤.

(٣) بادهنج: كلمة فارسية معناها المنفذ الذى يجىء منه الريح وسماه بعضهم راووق النسيم وفيه يقول ابو الحسن الأنصارى:

ونفحة بادهنج أسكرتنا   وجدت لبوحها برد النعيم
صفا جرى الهواء به رقيقا   فسميناه راووق النسيم

(٤) الخريدة ١٨/١/٤.

(٥) اليلمق : القباء فارسى معرب.

(٦) الخريدة ٩٦/١/٤.

عـــندى الـــدى تتمنـــى ... عـــندى الـــدى تـــشتهيه
ومـــا يـــتم ســـرور ... إلا إذا كـــنت فـــيه

وأسلوب الأبيات يقترب، كما نرى، من أسلوب النثر إلى حد كبير بل إنه قد يزيد عنه بما فيه من ضعف وركاكة ولاسيما فى المثال الأول.

وثمة أسباب كثيرة أدت إلى هذه الظاهرة، منها أن أكثر الشعراء كانوا إما علماء أو كتابا، ولذلك فإنهم كانوا أكثر اعتيادا على أسلوب النثر، ومنها كثرة الرسائل الشعرية فى هذا الشعر، وعندما تكون القصيدة رسالة شعرية فإنها تتأثر بلا شك بالروح النثرية. وربما كان لديوان الإنشاء دور كبير فى هذه الناحية إذ كان يضم جمعا كبيرا من الشعراء يمارسون الكتابة فيه، فكان من الطبيعى أن تتأثر أشعارهم بلغته وهى النثر.

ومن أبرز ظواهر الأسلوب فى الشعر الصقلى ميل بعض الشعراء إلى الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف وفى ذلك ما يدل على تغلغل الثقافة الدينية. ومن أمثلة الاقتباس من القرآن قول ابن حمديس[2]:

وتال من القرآن "قل لن يصيبنا" ... وقدحان من زهر النجوم غروبها

ويقتبس مجبر بن عبدالعزيز من القرآن أيضاً على نحو ما يبدو فى قوله[3]:

كـــم بـــات لله عـــندى ... مـــن نعمـــة لـــيس تحـــصى
ولـــست دون الـــبرايا ... بفـــضله مستخـــصا
لكـــن شـــكرت نـــصيبى ... أرجـــو الـــزيادة حرصـــا
"فليـــشكروه يـــزدهم" ... فقـــد أتـــى ذاك نـــصا[4]

(١) المصدر نفسه ص٧٢.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٤٣.
(٣) معجم السلفى (مخطوط) ورقة ٣٩٠.
(٤) إشارة إلى سورة إبراهيم – آية ٧.

ويبدو تأثر ابن الخياط بالقرآن واضحا فى مثل قوله[1]:

وإن أولى نـــبات أن تثمـــــره صـــنيعة أنـــت مـــولاها ومولـــيها
فـــربها إنهـــا ســـبع ســـنابلها فـى حـبة بـارك الـرحمن لى فـيها

ويقتـبس ابن حمديس قول الرسول عليه السلام "كل نفس عارية، وكل عارية مؤداة" فيقول[2]:

وإن تـــردت مـــن قبلـــنا أمـــم فهــــى نفـــوس ردت عـــواريها

ويقتبس قوله عليه السلام "الحرب خدعة" فيقول[3]:

نوى خدعة فى الحرب"والحرب خدعة" فأدبـــر مهـــزوما وقـــد كـــان حازمـــا

وتأثـر أسـلوب الـشعراء بأنـواع الـثقافات التـى كانـت شائعة فى ذلك الوقت، فكثرت فيه المصطلحات الفقهية مثل (الندب والفرض، والحل والعقد، والنقض والإبرام).

كمـا نجـد فـيه بعض الإشارات التاريخية التى تدل على ثقافة الشعراء التاريخـية فنـسمعهم يرددون اسماء الأفشين، وبابك الخرمى ونوح عليه السلام ووالده لمك أو "لامك" على نحو ما يتمثل فى قول مشرف بن راشد فى المدح[4]:

يـــشيد أعاديـــه الحـــصون منـــيفة وهـل منع الأفـشين مـا شـاد بابـك[5]

ويقول ابن الطوبى[6]:

فاسمـع بعينـيك عـنها مـثلما سمعـت أذناك من قبل عن نوح وعن لمك[7]

(١) المختار من شعر بشار ص١١٦.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٥١٧.
(٣) المصدر نفسه ص٤٢٧.
(٤) الخريدة ١٠١/١/٤.
(٥) بابك الخرمى: إدعى الألوهية وقام بثورة عارمة فى شمال فارس قضى عليها الإفشين قائد المعتصم سنة ٢٢١هـ.
(٦) الخريدة ٨٣/١/٤.
(٧) لمك ولامك اسم والد نوح عليه السلام.

وتأثر أسلوب الشعراء بالثقافة اللغوية، فكثر ترديد مصطلحات اللغة والنحو كما فى قول ابن حمديس[1]:

فيارفع أشواقى لقلبى وخفضها ... متى كان للأشواق فعل العوامل؟!

وقوله[2]:

قصرتك كالممدود قصر ضرورة ... وعدتك عن مد الحياة عواد

وقول ابن الطوبى[3]:

أما ترى عارضيه فوقهما ... لام ابتداء ولام توكيد؟!

ولم يحتف الشعراء فى أساليبهم بالصنعة اللفظية والبديعية، ولم يلهثوا وراء الاستعارات والكنايات على نحو ما فعل أضرابهم فى بعض البيئات الأدبية الأخرى وما كان يقع لهم من المحسنات كان أكثره جميلا مقبولاً لا نحس فيه بتكلف أو تصنع أو جهاد خاطر.

وقد يكون الطباق أكثر أنواع البديع شيوعا فى الشعر الصقلى، ومن أمثلته قول أبى العباس بن محمد اللخمى[4]:

فإن تقطعوا حبلى فإنى واصل ... وإن تنقضوا عهدى فإنى مبرم

ويطابق ابن حمديس بين الظلام والضياء فيقول[5]:

ليت شعرى هل ارتدى بظلام ... لا يرانى الضياء فيه مروع

ويطابق ابن الطوبى ثلاثة بثلاثة فيقول[6]:

يقرب قوله لك كل شىء ... وتطلبه فتبصره بعيدا

فما يرجو الصديق الوعد منه ... ولا يخشى العدو له وعيدا

---

(١) ديوان بن حمديس ص٣٩٤.
(٢) المصدر نفسه - ص١٢٣.
(٣) الخريدة ٨٥/١/٤.
(٤) مختصر الكتاب المنتخل عن الدرة الخطيرة "مخطوط" ورقة ١٠٦.
(٥) ديوان ابن حمديس ص٣٠٤.
(٦) الخريدة ٧٣/١/٤.

وقد يلجأ الشعراء إلى المقابلة على نحو ما يبدو فى قول ابن حمديس فى المدح[1]:

قريب إذا ساماه ذو رفعة نأى ... بعيد إذا ناداه مستنصر لبى

واستخدم الشعراء الجناس، أيضاً، وكان البلنوبى أكثرهم احتفاء به من مثل قوله[2]:

نهاك أهلك عنى ... من أجل أهلك أهلك

ويتلاعب تلاعبا لفظيا لطيفا حين يجانس جناسا تاما بين لفظتى "صولجان" وصول جان" فى قوله[3]:

أقول ولاح لى خد وصدغ ... لمن تفاحة مع صولجان

بودى لو لثمتهما جميعا ... ولكنى أحاذر صول جان

ويقول ابن حمديس مجانسا بين لفظتى "البر" و"البر"[4].

إذا أطعت حبا من البر أطعمت ... وقامت بأمر البر فهو كما يجب

ويكثر أحد الشعراء من الجناس فى مقطوعة يقول فيها[5]:

يا معتبا لو شاء ما أعتبا ... يعذب عندى كلما عذبا

لا تنكرن الموت من لحظه ... ما بين أجفان الظباء الظبا

كأنه من طيب أنفاسه ... نشر الصبا يهدى إلى الصبا

ومن أنماط البديع الأخرى التى استعملها الشعراء "التورية". وتشيع هذه الخاصية فى شعر ابن حمديس بدرجة ملحوظة، وتبدو فى مثل قوله[6]:

وجدى "غريب" ما أرى "شرحه" ... يوجد فى "العين" ولا فى "الصحاح"

ويقول موريا أيضاً[1]:

---

(١) ديوان ابن حمديس ص٥٢.
(٢) الخريدة ١٢/١/٤.
(٣) مختصر الكتاب المتنخل من الدرة الخطيرة "مخطوط" ورقة ١٠٧.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٣٥.
(٥) مختصر الكتاب المتنخل من الدرة الخطيرة "مخطوط" ورقة ١٠٩.
(٦) ديوان ابن حمديس ص٩٩.

"عمى" هواه عن الوشاة مكتما فجرت مدامعه بشرح "غريبه"

وفيما عدا هذه الألوان البديعية التي ذكرناها يندر أن نجد ألوانا أخرى غيرها مما يؤكد ما أشرنا إليه من قبل من أن البديع لم يطغ على الشعر الصقلي، ولم يكبله بقيوده وأصفاده.

الصور الفنية :

استطاعت صقلية بما ركب الله في طبيعتها من فنون السحر والجمال أن تثير ملكات الشعراء، وتزودهم بالأخيلة الرائعة، ولذلك فإن كثيرا من صورهم الفنية غنية بعناصر التخييل، متميزة بقدر كبير من الطرافة والابتكار من مثل هذه الصورة التي يرسمها ابن حمديس في أبيات يصف فيها بعض العاديات التي تؤرقه وتقض مضجعه، وتنقض على جسده ليلا فتؤلمه وتمص دماءه وتحرمه لذة النوم. وتبلغ به الطرافة حدا بعيدا عندما يتخيل هذه العاديات أشبه بجوقة غنائية أو فرقة موسيقية نرى فيها البعوض يغني بربابة والبق منهمكا في الشراب، والبراغيث ترقص طربا وفرحا. يقول[2]:

نومي على ظهر الفراش منغص والليل فيه زيادة لا تنقص
من عاديات كالذئاب تداءبت وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمي خمرا تداوم شربها مسترخصات منه مالا يرخص
فترى البعوض مغنيا بربابة والبق تشرب والبراغث ترقص

ويرسم لنا شاعر آخر مثل هذه الصورة الفكهة في قصيدة مجونية فيقول[3]:

تجذب خصرا مخطفا بكفل مرجرج
كمثل زق ناقص على حمار أعرج

---

(1) المصدر نفسه ص١٠.
(2) ديوان ابن حمديس ص٢٨٩.
(3) الخريدة ٣٣/١/٤.

وتعتمد الصورة الفنية فى الشعر الصقلى على عنصر التشبيه بالذات اعتمادا كبيرا، وقد أكثر الشعراء منه، فنراهم يستخدمون التشبيهات المفردة والمتعددة، وينتقلون من تشبيه المحسوس بالمعقول إلى العكس، فمن أمثلة تشبيهاتهم المفردة قول أبى القاسم هاشم بن يونس[1]:

ويوم كأن الشمس فيه عليلة ... لها من وراء السجف نظرة مدنف

ومن أمثلة تشبيهاتهم المركبة قول أبى الحسين على بن المعلم[2].

وماء كعين الديك يجرى على الحصا ... إذا مانهته الريح عن جريه عصى
يصفق مرتاحا براحة موجة ... كنشوان غنته المثانى فأرقصا

ويقول أحد الشعراء فى مقارنة القمر للمريخ[3]:

كأنما البدر حين لاح وقد ... فارق مريخه ودانـاه
وجه محب قد دنا خجلا ... يحمل كأس النديم يمناه

وقد يشبهون المحسوس بالمعقول على نحو ما يبدو فى قول ابن حمديس يصف شمعة[4]:

تمشى لنا نورها فى الدجى ... كما يتمشى الرضى فى الغضب

وقوله[5]:

ونجائب مثل القسى ضوامر ... وصلت بقطع سباسب وسهوب
من كل مختصر الفلاة بمعجل ... فكأنها إيجاز لفظ أديب

وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الخط يسترفدونه على نحو ما يبدو فى قول ابن الطوبى[6]:

لم أنس إذ عانقت بدر التمام ... فى غسق الليل وجنح الظلام
كأننا لامان قد قوربا ... فألصق الخط فصارا كلام

---

(١) الخريدة ٤/١/ص١١١.
(٢) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد – جـ٤ – مخطوط ورقة ٣١٨.
(٣) مختصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة "مخطوط" ورقة ١٠١.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٢٤.
(٥) ديوان ابن حمديس ص٦٠.
(٦) الخريدة ٤/١/٦٣.

وقول ابن حمديس يصف الدروع[1]:

ودروع قد ضوعف النسج منها   وتناهى فى سردها التقدير
كصغار الهاءات شقت فأبدت   شكلها من صفوف جيش سطور

وقد اعتمد الشعراء الصقليون فى كثير من صورهم على عنصر التشخيص أو التجسيم، وذلك بإلباس المعانى صوراً حية، وبث روح الحركة والحياة فيها. وتشيع هذه الظاهرة بصفة خاصة فى شعر ابن حمديس ومن أمثلتها قوله فى المدح مصوراً انتصارات الإسلام على الكفر مشخصاً إياهما فى صورتين آدميتين حيث نرى الكفر خزيان باكيا بعد هزيمته وارتداده على أعقابه أمام الإسلام الذى يجسمه فى صورة إنسان غمرته فرحة الظفر والفوز فبدا جذلان بأسماء يقول[2]:

هناك ثنيت الكفر خزيان باكيا   نعم، ورددت الدين جذلان باسما

ويرسم لوحة رائعة لنهر صاف ويجسمه تجسيما حيا فيتخيل أن أطراف الحصى التى يجرى عليها قد جرحته، وأن أصوات خرير مائه تحمل شكوى أوجاعه وآلامه. يقول[3]:

ومطرد الأجزاء يصقل متنه   صبا أعلنت للعين ما فى ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى   عليه، شكا أوجاعه بخريره

وكانت البيئة الصقلية مصدراً مهماً للصور الشعرية، فكان لها الفضل فى إرفاد الشعراء بالأخيلة والصور والتشبيهات الغزيرة وكثيراً ما نلتقى بصور مستوحاة من المعارك والحروب التى دارت رحاها فى صقلية زمنا طويلاً. فمن ذلك قول ابن حمديس[4]:

وكيف يصفو لنا دهر مشاربه   يخوضها كل حين جحفل النوب

---

(١) ديوانه ص٢٤٧.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٤٢٧.
(٣) نفسه ص١٨٦.
(٤) ديوان ابن حمديس ص١٧.

ويستعير شاعر آخر صفة "الجحفل" لينقلها إلى معنى آخر فيقول[1]:

وليل أتى فى جحفل من ظلامه فقدت له من أسره اللهو جحفلا

وينقل البلنوبى أوصاف المعارك الحربية إلى الغزل. فيقول[2]:

أمجرد السيفين أغمد واحداً والق الكماة بواحد مسلول

واستلهم الشعراء صورهم من البيئة البحرية أيضاً، فامتلأ شعرهم بصور البحر والشباك والأشرعة وما شاكل ذلك على نحو ما يبدو فى قول ابن حمديس يصف عاشقا أضناه العشق[3]:

مضنى يرد سلام العائدات له مثل الغريق إذا صلى بإيماء

ويستخدم ابن الطوبى صورة الشراع المدد فى وصف الكأس، فيقول[4]:

وصهباء كالإبريز تبصر كأسها من اللمع فى مثل الشراع الممدد

ويستخدم ابن القطاع صورة شبكة الصيد فيقول فى وصف الخمر[5]:

واغتنم عمرك فيها طائراً قبل أن تحصل وسط الشبكة

ويبدو أثر البيئة المسيحية واضحاً فى صور الشعراء وتشبيهاتهم، فمن ذلك قول ابن حمديس يصف سفينة[6]:

وقد تشق بنا الأهوال جارية تجرى بريح متى تسكن لها تقف

لها شراع ترى الملاح يلحظه ككاهن يقسم الألحاظ فى كتف

ويستمد إحدى صوره الفنية من صور احتفالات الروم بالربيع فيقول وهو بصدد وصف كلاب الصيد حين تهم بافتراس ضحاياها[7]:

كالليث قد أوفى على سرب النعم فى روضة أطيارها ذات نغم

كما تغنت فرق من العجم قام الربيع عندها على قدم

---

(1) مختصر الكتاب المتنخل من الدرة الخطيرة (مخطوط) ورقة ١١٠.

(2) ديوان البلنوبى ورقة ٤.

(3) ديوان ابن حمديس ص٢.

(4) الخريدة ٨٤/١/٤.

(5) المصدر نفسه ص٥٤.

(6) ديوان ابن حمديس ص٣٢٠.

(7) ديوان ابن حمديس ص٤٢٣.

الموسيقى والأوزان:

أخذت أوزان الشعر العربى فى التطور تدريجياً متأثرة بموجات الغناء التى انبثت فى أرجاء العالم الإسلامى وشاعت فيه شيوعاً عظيماً. وقد امتد تأثير هذه الموجات العنيفة إلى الشعر فى مختلف البيئات والأمصار الإسلامية ومن بينها الأندلس وصقلية. ولكن الأندلس استطاعت أن تحدث ثورة كبيرة فى الأوزان باختراعها للموشحات والأزجال بتأثير هذه الموجة العنيفة من الغناء والموسيقى التى شاعت فيها وبتأثيرات مختلفة من البيئة المحلية[1]. أما صقلية فلم يقدر لها أن تلحق بالأندلس فى هاتين الناحيتين برغم وجود نهضة غنائية بها، فحرمت بذلك من هذا الجانب الطريف الذى كان من الممكن أن يحدث تطورا هائلاً فى أوزان الشعر الصقلى وأشكاله.

ومهما يكن من أمر، فقد أثر شيوع الغناء وتطور الذوق فى موسيقى هذا الشعر وأوزانه، فأقبل الشعراء على الأوزان الرشيقة الخفيفة، وأكثروا منها، وكلفوا باستعمال أبحر معينة مثل المتدارك أو الخبب حتى فى الموضوعات الجادة كالمدح وغيره على نحو ما يبدو فى قول ابن حمديس[2]:

إن ابن علي حاز عُلى ... فالفعل له والقول لنا
قمر تستمطر منه يد ... فتجود أنامله مزنا

ويستعمل البحر نفسه فى قصيدة أخرى فى المدح يقول فيها[3]:

صمد اللاجون إلى ملك ... منصور بالأحد الصمد
كالشمس سناها مقترب ... وذراها منك على بعد
وإذا ما آنس منه سنا ... من ضل بجنح الليل هدى

ومال الشعراء أيضاً إلى الأوزان المجزوءة، وأكثروا منها ولاسيما فى الغزل والخمر والمجون. ومن أمثلتها قول أبى الفضل بن راشد[1]:

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ص٤٥١.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٥١٢.
(٣) ديوان ابن حمديس ص١٦٠.

مــــا للحبـــيب ومــــالى؟	تفديـــه نفـــسى، ومــــالى
أريـــد عــــنه ســـلوا	فــــإن بـــدا لى بـــدالى

ويقول محمد بن عيسى يتغزل، وكان يغنى به[2]:

مـــولاى يـــا نـــور قلبـــى	ونـــور كــــل القلـــوب
أمـــا تـــرى مـــا بجـــسمى	مـــن رقـــة وشـــحوب
ومـــا بـــداخل قلبـــى	مـــن لـــوعة ووجـــيب

ويستعمل ابن حمديس مجزوء الرمل في مثل قوله ولعله كان يغنى به أيضاً[3]:

ملنـــى مــــن لا أملـــه	وأذاب القلـــب دلـــه
رشـــأ ينفـــر خـــوفا	كلمـــا مـــا شـــاه ظلـــه

ونجد البلنوبى ينظم قصيدة تقرأ على خمسة أوزان. يقول فيها[4]:

وغـــزال مـــشنف	قـــد رئـــى لى بعـــد بعـــدى
لمـــا رأى مـــا لقـــيت	
مـــثل روض مفـــوف	لا أبـــالى وهـــو عـــندى
فـــى حـــبه إذ ضـــنيت	
وجهـــه الـــبدر طالعـــا	تـــاه لمـــا حـــاز ودى
فإننـــى قـــد شـــقيت[5]	

---

(1) الخريدة ١٠٣/١/٤.

(2) الخريدة ٣٩/١/٤.

(3) ديوان ابن حمديس ص٣٦٣.

(4) الخريدة ٨/١/٤.

(5) الأوزان الخمسة هى الخفيف – مجزوء الخفيف – المجتث – مجزوء الرمل – منهوك الرمل. فتقرأ على الوزن الأول هكذا:

وغـــزال مـــشنف قـــد رئـــى لى	بعـــد بعـــدى لمـــا رأى مـــا لقـــيت

وتقرأ على الوزن الثانى هكذا:

وغـــزال مـــشنف	مـــثل روض مفـــوف .. إلخ

وتقرأ على الوزن الثالث هكذا:

لمـــا رأى مـــا لقـــيت	فـــى حـــبه إذ ضـــنيت .. إلخ

وتقرأ على الوزن الرابع هكذا:

ولم تقف عناية الشعراء بالأوزان عند الميل إلى البحور القصيرة والمجزوءة ولكنهم اهتموا أيضاً بتوفير نوع من الموسيقى الداخلية فى أشعارهم على نحو ما يبدو فى قول ابن حمديس[1]:

مكـــر الطـــراد، وثغـــر الجهـــاد　　　ومجـرى الجـياد، ومـأوى الطـريد

ونلمس مثل هذه الموسيقى فى قول محمد بن عيسى الفقيه[2]:

فـى طـرفها سـقم وفـى ألحاظهـا　　　غـنج وفـى تلـك المعاطـف لـين

وعلى نحو ما اهتم الشعراء بخفة الأوزان ورشاقتها، اهتموا بالقافية أيضاً، فحاولوا أن يلائموا بينها وبين موضوع القصيدة، على نحو ما يبدو فى قول ابن السوسى فى رثاء أحد رؤساء المسلمين[3]:

ركاب المعالى بالأسى رحله حطا　　　وطود العلى العالى تهدم وانحطا

فقد استعمل الشاعر البحر الطويل كما استعمل قافية قوية رنانة تمشياً مع موضوع القصيدة، وتعبيراً عن إحساسه بهول المصاب. ومثل قول محمد ابن عيسى فى الرثاء أيضاً[4]:

شهاب المنايا من سماء الردى انقضا　　　وركن المعالى والجلال قد انقضا

أما فى الموضوعات الأخرى كالغزل والخمر وغيرهما فقد مال الشعراء إلى القوافى اللينة السهلة كما أكثروا من القوافى المقيدة أو الساكنة الروى التى تتلاءم مع الأوزان القصيرة الرشيقة كما فى قول ابن حمديس[5]:

وراهـــبة أغلقـــت ديـــرها　　　فكـــنا مـــع اللـــيل زوارهـــا

قـــد رثـــى لى بعـــد بعـــدى　　　لا أبـــالى وهـــو عـــندى .. إلخ

وتقرأ على الوزن الخامس هكذا :

قـــــد رثـــــى لى　　　بعـــــد بعـــــدى .. إلخ

(١) ديوان ابن حمديس - ص١١٦.

(٢) الخريدة ٣٨/١/٤.

(٣) المصدر السابق ص٥٠.

(٤) المصدر السابق ١/٤ ص٤٣.

(٥)ديوان ابن حمديس - ص١٨١.



الشعـــراء

الفصل الأول : الشعراء الوافدون

الفصل الثاني : الشعراء الصقليون

الفصل الأول

الشعراء الوافدون

الشعراء الوافدون

ازدهرت الحياة الأدبية فى صقلية قبل الفتنة الأخيرة ازدهارا كبيرا، وراج سوق الأدب والثقافة فيها، فوفد الشعراء إليها من شتى البقاع، وشدت إليها الرحال من كل فج لما سمعوه عن كرم أمرائها وتشجيعهم للشعراء وإغداق الأموال والصلات عليهم. وقد أشار ابن فضل الله العمرى إلى ذلك فقال: "إن كتب التواريخ ومجاميع الأدب محملة بمحاسنها، ولقد كان بها أيام الإسلام من أمرائها ملوك ألباء وأعيان أدباء ما منهم إلا من يقصد إليه ويمدح، ويغدق عليه ويمنح"[1]. ويقول صاحب المغرب عن الأمير جعفر ابن ثقة الدولة إنه: "ملك عظيم، وجواد كريم، وفد عليه الشعراء والعلماء من كل مكان فأعلى منزلتهم وأجزل صلتهم"[2].

ولما هجم العرب على القيروان وخربوها رحل الشعراء عنها إلى صقلية حيث الصلات والعطايا، وحيث الخمر واللهو والغناء، وكان ابن رشيق القيروانى من أشهر هؤلاء المهاجرين. يقول القفطى: "ولم يزل ابن رشيق على ما هو عليه من إقامة سوق الأدب والتنبيه على فضل لغة العرب، بما يصنفه فيها ويؤلفه ويحرره ويرصفه، مرة فى لغتها، ومرة فى معانيها الواردة فى أشعارها، وأمثالها وأخبارها إلى أن هجم العرب على القيروان وقتلوا من بها، وخربوا منازلها، وانتهبوا أموالها، فعند ذلك فر منها إلى ساحل البحر المغربى، ولم يمكنه المقام هناك فعدى البحر إلى جزيرة صقلية، ونزل بمازر إحدى مدنها على أميرها ومتوليها ابن منكود، فأكرمه واختصه"[3].

---

(١) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار - المكتبة الصقلية ص١٥٢.
(٢) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد (مخطوط) جـ٤ - ورقة ٣٤١ - ٣٤٢.
(٣) إنباه الرواه على أنباه النحاة ٣٠٣/١.

وقد وصف ابن رشيق رحلته إلى صقلية فقال[1].

ولقد ذكرتك في السفينة والردى ... متوقع بتلاطم الأمواج
والجو يهطل والرياح عواصف ... والليل مسود الذوائب داج
وعلى السواحل للأعادي غارة ... يتوقعون لغارة وهياج
وعلت لأصحاب السفينة ضجة ... وأنا وذكرك في ألد نتاج

ولسنا نعرف على وجه التحديد العام الذى رحل فيه ابن رشيق إلى صقلية وإن كان الأستاذ عبدالعزيز الميمنى يرجح أنه ارتحل إليها سنة ٤٥٢هـ[2].

ومهما يكن من أمر، فقد ارتحل ابن رشيق إلى صقلية مع أنه كان حلس البيت، وحليف وكره على حد تعبير الميمنى[3]، وكان قد سبقه إلى هناك قرنه ابن شرف وكانت العلاقات بينهما يسودها التوتر ولكن عند التقائهما نسيا عداءهما وحن كل منهما للآخر، غير أن ابن شرف لم يستطب الإقامة فى صقلية وقرر الرحيل إلى الأندلس وعرض على صاحبه أن يترفقا فى الرحيل إليها فرفض ابن رشيق لما كان يسمعه عن انهيار الدولة فى الأندلس، وانقسامها إلى ملوك وطوائف، وما أدى إليه ذلك من سوء فى الحالة السياسية فقال فى ذلك بيتيه المشهورين وهما[4]:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد
ألقاب سلطنة في غير مملكة ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

وراجع ترجمة ابن رشيق فى بغية الوعاة للسيوطى ص٢٢٠، ووفيات الأعيان لابن خلكان جـ١ ص١٢٣، وشذرات الذهب جـ٣ ص٢٧٩، ٢٩٨ ومعجم الأدباء جـ٨ ص١١٠ – ١٢١، والنتف من شعر ابن رشيق وابن شرف لعبد العزيز الميمنى.

(١) النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف ص١٨.

(٢) المرجع السابق ص٦٧.

(٣) نفسه ص٢٠.

(٤) عصر القيروان ص٩٨.

والواقع أن تمسك ابن رشيق بالبقاء فى صقلية كان له ما يبرره، فهى لم تكن بالنسبة إليه مجرد وطن يهاجر إليه أو يتخذه دار إقامة، ولكنه كان يعتبرها وطنه الثانى، وكان ينظر إليها نظرة إعجاب وتقدير عبر عنه فى قوله يمدحها[1].

أخت المدينة فى اسم لا يشاركها	فيه سواها من البلدان والتمس
وعظم الله معنى لفظها قسما	قلد إذا شئت أهل العلم أو فقس

ومما جعله يتمسك بالبقاء فى صقلية أنه كان قبل رحيله إليها يرتبط بصلات ود وصداقة مع عدد كبير من أدبائها وشعرائها أمثال أبى الحسن على بن إسحق الذى يقول عنه العماد فى الخريدة إنه : "كان فى عهد ابن رشيق وبينهما مكاتبات"[2]، ومثل أبى عبدالله محمد بن على الصباغ الكاتب. وعندما وصل ابن رشيق من القيروان إلى مازر كتب إليه قائلا[3]:

كتاب من أخ كشفت	قناع ضميره يده
تذكر منزلاً رحبا	وعذبا طاب مورده
وكاد يطير من شوق	إلى عهد يجدده

فكتب إليه فى جوابه :

أخ بل أنت سيده	على ما كنت تعهده
بود غير محتاج	إلى شىء يؤكده
لعل الله باللقيا	كما يختار يسعده

ولقد كان ابن رشيق يحظى بإعجاب الصقليين واحترامهم، ومما يدل على ذلك ما رواه ابن ظافر فى بدائع البدائه على لسان أحد الصقليين ويدعى أبا عبدالله الصفار الصقلى حيث قال: "كنت ساكنا بصقلية وأشعار ابن رشيق

---

(1) النتف من شعر ابن رشيق ص٤٠ والمقصود بالمدينة بلرم وهى قاعدة بلاد جزيرة صقلية ومدينتها العظمى. انظر. منتخبات من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار للحميرى – مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة. المجلد الثامن عشر، مايو ١٩٥٦.

(2) الخريدة ٨٨/١/٤.

(3) المصدر السابق – ص٩١.

ترد علي فكنت أتمنى لقاءه حتى قدم الروم علينا فخرجت فارا بمهجتي تاركا لكل ما ملكت يدي وقلت: أجتمع بأبي علي فبرقة شمائله وطيب مشاهداته سيذهب عني بعض ما أجد من الحزن على مفارقة الأهل والوطن"[1].

وقد احتفى الصقليون بابن رشيق احتفاء عظيما، وأكرم الأمير ابن منكود وفادته ويقول القفطي إنه قرأ عليه كتبه ومن جملة ما رأى من قراءاته عليه كتاب "العمدة" ورأى خط ابن رشيق على نسخة منها[2].

ولا شك أن الصقليين قد أفادوا من وجود ابن رشيق بينهم فائدة كبيرة فقد تصدر للتدريس بمدينة مازر وأقبل عليه الدارسون والأدباء يأخذون عنه، ويفيدون منه. وفي ذلك يقول أحد تلاميذه ويدعى أبا البهاء عبد الكريم الصقلي[3]: "رأيت أبا علي بن رشيق وأبا بكر بن البر في صقلية واستفدت منهما".

وظل ابن رشيق يواصل جهوده العلمية في صقلية إلى أن مات بمدينة مازر وقد اختلف في تاريخ وفاته، ففي معجم الأدباء وبغية الوعاة وشذرات الذهب أن وفاته كانت سنة ٤٥٦هـ وفي وفيات الأعيان أن وفاته كانت سنة ٤٦٣هـ وقد رجح ابن خلكان التاريخ الثاني على الأول[4].

وكان من بين الشعراء المهاجرين إلى صقلية الشاعر عبدالحليم بن عبدالواحد السوسي، وقد ترجم له العماد الأصفهاني فقال إنه سوسي الأصل، إفريقي المنشأ، صقلي الدار، سكن مدينة بلرم، واستدر من ذوى كرمها الكرم، وله نظم كالعقود، ونثر كالعنقود، وقد عبر عن إعجابه بصقلية فقال[5]:

عشقت صقلية يافعـا   وكانت كبعض جنان الخلود

---

(١) بدائع البدائه – ص١٦٧.

(٢) إنباه الرواه على أنباه النحاة ٣٠٣/١.

(٣) معجم السفلي "مخطوط" – ورقة ١٤٨.

(٤) وفيات الأعيان ٣٦٦/١.

(٥) الخريدة ٣٢/١/٤.

فما قدر الوصل حتى اكتهلت وصارت جهنم ذات الوقود

وظل عبدالحليم بصقلية حتى نشبت الفتنة الأخيرة، وتوزع البلاد أمراء الطوائف، فانحاز إلى جانب ابن منكود واختصه بمدائحه، فمن ذلك قوله[1]:

يقولون كثر عبدالحليم	فإلا اقتصاداً وإلا اقتصارا
وفضل أبي القاسم المجتبي	كفاني احتجاجاً لهم واعتذارا
ألم يعلموا أن فيض السماء	على الأرض كثر منها الثمارا
مآثر طالت فأضحى الطوا	ل من حلل المدح عنها قصارا
ومجد ينوب ثنائي مطارا	وجود يغرق شعري بحارا
وفضل يعد نجوم السماء	وزهر الرياض ويحصى القطارا
تغار العلا لابن منكودها	فلا تقبل المدح فيه اختصارا

ويتميز شعر عبدالحليم بالرقة والعذوبة ولاسيما في غزله ومن أمثلته قوله[2]:

قالت لأتراب لها يشفعن لي	قول امرىء يزهى على أترابه
وحياة حاجته إلى وفقره	لأواصلن عذابه بعذابه
ولأمنعن جفونه طعم الكرى	ولأمزجن دموعه بشرابه
لم باح باسمي بعدما كتم الهوى	دهراً وكان صيانتي أولى به

وكان ممن هاجروا إلى صقلية أيضاً الشاعر أبو الحسن عبد الكريم ابن فضال الحلواني، وقد ترجم له ابن بسام في الذخيرة وقال عنه[3]: "وله كلام في النسيب رائق، ومتأخر سابق، ومديحه أيضاً عليه طلاوة، وبالجملة ففي ألفاظ الحلواني حلاوة".

وقد رحل الحلواني إلى صقلية للتكسب بشعره، واتصل بصاحب الخمس إبراهيم واختصه بمدائحه فآثره وقربه مما أثار حفيظة بعض الشعراء،

---

(1) معجم السفلي "مخطوط" - ورقة ١٥٧ - ١٥٨.
(2) الخريدة ٣٢/١/٤.
(3) الذخيرة ٢١٩/١/٤.

فحاول أحدهم — وهو أندلسي — أن يوقع بينهما فمدح صاحب الخمس بشعراتهم الحلواني فيه وجرى في مجلسه بصقلية، فقال الحلواني يهجوه[1]:

يا شاعر العصر قد كلفتني شططا	فاصرف عنانك عنا، أو تأن خطا
حملتني ذنب غيري ظالما وأنا	قد كنت أقسط في إنصاف من قسطا
وما حسدتك في شعر أتيت به	ومن يحاول لما للسهى سقطا
وليس يحسد طبعي "أبجنيسكم"[2]	فكيف أنت لقد جشمتني شططا
فخذ "قفانبك" وانسبها لنفسك ما	في الخلق من كاشف بالبحث عنك غطا
ولا تظنن أن الشعر مكرمة	فالحر إن رام أن يعلو به هبطا

وللحلواني مقطوعات كثيرة في الغزل بالمذكر والخمر، ويبدو أنه كان يميل إلى المجون والتهتك. ونستطيع أن نلمس ذلك في مثل قوله[3]:

قالوا غدا رمضان فاستعد تقى	وبت على الصوم واهجر لذة الكاس
إن الهلال يرى حتما فقلت لهم	حكمتم بشتاتي بين جلاسي
فقال لي الغيم لا تحفل بقولهم	على سترته فاشرب بلا باس
فقمت أعثر في ذيل المجون إلى	جمع المسرة بين الكاس والطاس

وكان من بين المهاجرين إلى صقلية أيضاً الشاعر عثمان بن عبدالرحمن المعروف بابن السوسي. ولد بمدينة مالقة إحدى مدن الأندلس وبها تهذب وقرأ على أبيه الأدب وجذبته صقلية بسحرها وجمالها فرحل إليها وأقام في بلرم واتخذها دارا ووجد بها قرارا ونيف على السبعين ومتع ببنين[4] وقد وصف شعره بأنه صحيح المعنى، قديم المبنى، لذيذ المجنى[5]، ولم تشر المصادر إلى نشاطه بصقلية، ويبدو أنه ظل بها حتى بعد أن تملكها النورمان فقد أورد له

(١) المصدر السابق ٢٢٨/١/٤.

(٢) كنية الرمادي الشاعر الأندلسي.

(٣) الخريدة ١٨٨/٢ "ط. تونس".

(٤) الخريدة ٥٠/١/٤.

(٥) المصدر السابق ص٥٠.

العماد مرثية في بعض رؤساء المسلمين بصقلية وهي قصيدة طويلة تدل على ما حواه من فضائل[1].

وقد التف حول الأمير ثقة الدولة عدد كبير من الشعراء الذين وفدوا عليه من شتى البقاع طمعا في عطائه ونواله نذكر منهم أبا محمد عبدالله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة، وقد ترجم له ابن بسام في الذخيرة ووصفه بأنه "ضرب في الأدب بأعلى قدح، وافتر عنه على أوضح صبح[2] ثم قال "ذكره ابن رشيق في شعراء الأنموذج وأعرب عن فضائله"[3].

وقد هاجر هذا الشاعر من بلده "ميله" بإفريقية إلى صقلية واتصل بأميرها ثقة الدولة ومدحه، ولم يصل إلينا من هذه المدائح إلا قصيدة واحدة أعجب بها ابن خلكان ووصفها بأنها بديعة غريبة وأثبتها لحسنها وغرابتها[4]. وقد بدأها بمقدمة غزلية طويلة بلغت اثنين وثلاثين بيتا تخلص بعدها إلى المدح فقال[5]:

وعاذلة في بذل ما ملكت يدي	لراج رجائي دون صحبي يعنف
تقول إذا أفنيت مالك كله	وأحوجت من يعطيكه؟ قلت يوسف
أغر قضاعي يكاد نواله	لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف
إذا نحن أخلفنا مخايل ديمه	وجدنا حيا معروفه ليس يخلف

ويمضي ابن قاضي ميلة في قصيدته فيصف شجاعة الأمير وثباته في الحرب ثم يهنئه بالعيد وبابنه الأمير جعفر ويختمها بالسؤال وطلب العطاء يقول[6]:

وقائلة بالسعد نجلك جعفر	فيالك من عيد بملكين تتحف

(١) المصدر نفسه ص٥٠.
(٢) الذخيرة ٤/٢/ ورقة ١٥٠.
(٣) المصدر السابق الورقة ١٥٠.
(٤) وفيات الأعيان ٢٠٧/٥.
(٥) المصدر نفسه ٢٠٧/٥.
(٦) وفيات الأعيان ٢١١/٥.

فلا زلت تستجدى، فتولى وترتجى   فتكفى، وتستدعى لخطب فتكشف

واتصل بثقة الدولة شاعر آخر هو عبدالله بن إبراهيم بن المثنى الطوسى المعروف بابن المؤدب المهدى الأصل، القيروانى المولد. قال عنه ابن خلكان: "كان مغرى بالسياحة، وطلب الكيمياء، والأحجار، وكان محروما، مقترا عليه متلافا، فخرج مرة يريد جزيرة صقلية، فأسره الروم فى البحر، وأقام مدة طويلة مأسورا إلى أن هادن ثقة الدولة الروم، وبعثوا إليه بالأسرى، فكان ابن المؤدب فيمن بعث، فامتدح ثقة الدولة بقصيدة شكره فيها على صنيعه، ورجا صلته، فلم يصله بشىء أرضاه، وكانت فيه رغبة، فتكلم وألح وطلب طلبا شديدا، وطالت المدة، فخرج سكران يشترى نقلا، فما شعر إلى وقد أخذ، وحمله صاحب الشرطة حتى أدخله على ثقة الدولة، فقال له: "ما الذى بلغنى يا بائس؟" قال المحال — أيد الله الأمير! قال: ومن هو الذى يقول فى شعره "فالحر ممتحن بأولاد الزنا؟" قال: هو الذى يقول "وعداوة الشعراء بئس المقتنى" فأمر له الأمير بمائة دينار وأخرجه من المدينة"[1].

وينبغى ألا يبعدنا هذا المثال عما نحن بصدده وهو أن حكام صقلية بذلوا لهؤلاء الشعراء الوافدين كل ما يستطيعون من صلات وعطايا، وأكرموا وفادتهم، واحتفوا بهم احتفاء عظيما ربما لم يجدوا مثله فى أوطانهم التى هاجروا منها، وكان لذلك أثر طيب فى نفوسهم، فظل كثير منهم فى صقلية ولم يفارقوها حتى بعد أن غربت عنها شمس الإسلام.

• • • • •

(١) نفسه ٥/٢٠٦.



الفصل الثانى

الشعراء الصقليون

الشعراء الصقليون

أنجبت صقلية فى ذلك الزمن القصير عددا كبيرا من الشعراء ذكر منهم ابن القطاع نيفا ومائة وسبعين شاعراً، وفى ذلك ما يدل على مبلغ ما وصل إليه الشعر فى تلك الجزيرة من الازدهار.

ومن يقرأ فى الخريدة ومختصر الدرة ويطالع ترجمات الشعراء وأسماءهم يخيل إليه أن كل الصقليين كانوا شعراء، فما من كاتب أو عالم أو لغوى أو فقيه إلا وقد ورد اسمه بين الشعراء، وذكر شىء من شعره.

وقد أسهم الأمراء فى هذه الحركة الشعرية إسهاماً كبيراً فكان أغلبهم شعراء ينظمون الشعر ويشجعونه ويغدقون على قائليه. وقد بث أدب هؤلاء الأمراء روحاً قوياً فى أنحاء الجزيرة فوفد إليها علماء اللغة والشعراء من المشرق والأندلس — كما رأينا فى الفصل السابق — ونبع فيها شعراء مجيدون سباقون[1].

ويحتفظ العماد فى الخريدة بقدر لا بأس به من أشعار هؤلاء الأمراء أمثال الأمير مستخلص الدولة والأمير ثقة الدولة وابنه الأمير جعفر والأمير ابن منكود وغيرهم.

ولعل أهم ما يميز هؤلاء الأمراء أنهم لم يكونوا يتخذون الشعر وسيلة للتكسب وإنما كانوا ينظمونه بقصد التسلية واللهو، وكنوع من الترف وإزجاء الفراغ، ونستطيع أن نلمح فى أشعارهم بعض السمات والملامح الخاصة، ويمكن القول بأن قصائدهم بصفة عامة مستوحاة من حياتهم المترفة، ولذلك فأكثرها يدور فى الغزل والخمر ووصف الرياض.

---

(١) "المدينة العربية فى صقلية" مقال للأستاذ أمين الخولى بمجلة المقتطف فبراير سنة ١٩٢٣ – ص١٤٤.

ويلحظ القارىء أن غزلهم ليس غزلا تقليدياً، ولكنه غزل أمراء فيه شىء من الأرستقراطية وعزة النفس وحب التملك والسيطرة مما نتمثله فى قول الأمير مستخلص الدولة[1]:

قلت يوما لها وقد أحرجتنى	قولة ما قدرت أنفك عنها
أشتهى لو ملكت أمرك حتى	آمر الآن فيك قهراً وأنهى
فبكت ثم أعرضت ثم قالت	خنتنى فى محبة لم أخنها
قلت إن أنت لم تجودى بوصل	فالمنى ما عليك لو نلت منها

ويمثل هذا اللون من الشعر نزوات الأمراء ومجونهم وعبثهم من مثل قول أحدهم[2]:

عض تفاحة وناولنيها	آه منها وآه من مهديها
فإن اشتقت طيب ثنايا	ه أقبل مواضع العض فيها

ونحس فى أشعارهم بروح الفروسية المستمدة من حياتهم، فالأمير فارس محارب يمتطى صهوة جواد يسابق به الرياح من مثل قول أحدهم[3]:

ويحمل عنك همى فوق طرف	سبوق من خيول سابغات
أغر تخال ريحاً قد أعيرت	قوائم باللجين محجلات
كساه الليل أثواباً ولكن	تراها بالصباح مرقعات

ونستدل مما ذكرته المصادر أيضاً على أن أكثر اللغويين كانوا شعراء، وقد ذكر القفطى عددا كبيرا منهم أمثال أبى عبدالله محمد بن سدوس الذى قال

---

(١) الخريدة ٩٢/١/٤.
(٢) الخريدة ٩٣/١/٤.
(٣) المصدر السابق – ص١٣٥.

القفطى إنه: "برع فى النحو على أهل زمانه، وكان فى النظم والنثر طوع عنانه"[1].

وعلى بن بشرى الذى وصف بأنه "كان فى النظم والنثر لا يجارى وفى اللغة والإعراب لا يبارى"[2] ومثل طاهر بن محمد الرقبانى الذى وصف بأنه "لم يكن فى زمانه أعلم منه بلغة العرب وكلامها ونثرها ونظمها"[3].

ولقد ترجم العماد فى الخريدة لعدد كبير من الشعراء الصقليين ولكنه اقتصر فى معظم تراجمه على ذكر أسمائهم أو الاكتفاء بإيراد بعض تعريفات مختصرة عنهم، وجاءت كثير من قصائدهم ناقصة مبتورة. ومثل هؤلاء الشعراء لا نرى فيهم مجالا للقول أو فسحة للعرض، وليس ممكنا أن نتتبعهم بالبحث والتعريف وقد رأيت أن أقتصر فى هذا الفصل على الشعراء المشهورين الذين عاشوا فى القرن الخامس الهجرى، وعبروا عن ارتباطهم بصقلية حتى وهم بعيدون عنها ولنبدأ بابن حمديس أعظم شاعر أنجبته صقلية.

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ١٥٠/٣.
(٢) المصدر نفسه ٢٣٤/٢ وما بعدها.
(٣) المصدر السابق ٩٤/٢.

ابن حمديس الصقلي

ولد أبو محمد عبد الجبار بن حمديس سنة ٤٤٧هـ في مدينة سرقوسة إحدى مدن صقلية. ويتصل نسبه بقبيلة الأزد الكهلانية[١] ولكنه لم يفتخر في شعره بهذا النسب مثلما يفخر بأنه "من بني الثغر" أي يعتز بوطنه أكثر من اعتزازه بالقبيلة[٢].

ونشأ ابن حمديس في أسرة عربية محافظة تتمسك بأهداب الدين، ويميل أكثر أفرادها إلى الزهادة والنسك، ويتصفون بالبر والتقوى، وقد عاش جده ثمانين عاما قضاها في العبادة والنسك، ويشير إلى ذلك فيقول[٣]:

تنسك في بر لثمانين حجة　　　فيا طول عمر فر فيه إلى الرب

ونستطيع من خلال تلك البيئة التي عاش فيها أن نحدد ألوان الثقافات التي تلقاها، فقد تزود بالثقافة الدينية منذ حداثته، فحفظ القرآن، وألم بسيرة الرسول عليه السلام، وقرأ القصص والأساطير التي كانت شائعة في عصره، كما طرق أذنه كثير من أخبار المسلمين وسيرهم، وعكف على قراءة الشعر الجاهلي، فتعلق به واستعذبه، وتأثر بشعرائه، وقبس عن كل واحد منهم. وظهر أثر ذلك جليا في شعره.

واتسعت ثقافته وتنوعت، فألم إلماما كبيرا بالعروض والنحو، وطبائع الحيوان، والفلك والفلسفة، كما ألم ببعض المعارف الطبية، وشغف بالتاريخ شغفاً كبيراً، وقد بلغ من كلفه به أنه ألف كتاباً في "تاريخ الجزيرة الخضراء" لم يصلنا شيء منه[٤].

---

(١) وفيات الأعيان ٣٨١/٢.

(٢) مقدمة ديوانه ص٣.

(٣) ديوانه ص٣٦.

(٤) كشف الظنون ٢٩٠/١.

وكانت مدينته سرقوسة تمتاز بسحرها الخلاب، وطبيعتها الجذابة، وقد وصفها الإدريسى بأنها "من مشاهير المدن وأعيان البلاد، تشد إليها المطى من كل حاضر وباد، ويقصد إليها قصاد التجار من جميع الأقطار، وهى على ساحل البحر وهو محدق بها، دائر بجميع جهاتها.. وهى عجيبة الأمر، وبها ما بأكبر المدن من الأسواق والحانات والديار والحمامات، والمبانى الرائقة، والأفنية الواسعة وبها من الجنات والثمار ما يتجاوز الحد والمقدار"[1].

وعلى الرغم من هذه النشأة الدينية، فإن ابن حمديس انجذب إلى هذه الحياة الصاخبة، وأطلق لنفسه العنان، فذهب إلى الأديرة والحانات، وكلف بالقيان والجوارى، وكانت له مغامرات مع الراهبات، وعشق هذا اللون من الحياة، حتى لقد ظن (فون شاك) أن حظه فى الحب واللهو كان أكثر من حظه فى العلم والتحصيل[2].

وقد أثرت هذه المشاهد والصور فى شعره، وكانت تلك الحقبة من حياته — برغم قصرها فى عمر الزمن — من الوقدات التى ألهمت شاعريته[3].

وظل ابن حمديس يستمتع بحياته فى ربوع صقلية حتى أطلت الفتن برؤوسها وأحس أن وطنه يحتضر، فعز عليه أن يراه فى هذه الحال البائسة، وآثر الهجرة عنه وهو أشد ما يكون حبا له وارتباطا به، "وكان لهذا أثر عظيم فى نفسه وخياله الشعرى وأخلاقه حتى أصبحت نفسه من النفوس المظلمة، وصدره من الصدور المنقبضة، واستولى عليه البؤس بسبب هذه الحوادث"[4].

ورحل ابن حمديس عن صقلية وهو فى عنفوان شبابه، وعرج أولا على أفريقية ولكنه لم يألف حياة الصحراء القاسية، فقوض خيامه، ورحل عنها

---

(١) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق ص٢٩.

(٢) Poesie und kunst der Araben in Spanien und Siciliea Vol, 2 by Schack – P.15.

(٣) ابن حمديس الصقلى لعلى مصطفى المصراتى ص٦.

(٤) بلاغة العرب فى الأندلس ص١٢٩.

متوجها إلى الأندلس، وحط رحاله في إشبيلية سنة ٤٧١هـ في زمن المعتمد ابن عباد، ويحكى قصة لقائه به فيقول[1]: أقمت بإشبيلية لما قدمتها على المعتمد ابن عباد مدة لا يلتفت إلى ولا يعبأ بى، حتى قنطت لخيبتى مع فرط تعبى، وهممت بالنكوص على عقبى، فإنى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى إذا بغلام معه شمعة ومركوب فقال لى: أجب السلطان، فركبت من فورى ودخلت عليه فأجلسنى على مرتبة فنك وقال لى: افتح الطاق التى تليك، ففتحتها، فإذا بكور زجاج على بعد، والنار تلوح من بابيه، وواقده، يفتحهما تارة، ويسدهما أخرى، ثم دام سد أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتهما قال لى: أجز:

أنظرهما فى الظلام قد نجما

فقلت

كما رنا فى الدجنة الأسد

فقال:

يفتح عينيه ثم يطبقها

فقلت:

فعل امرىء فى جفونه رمد

فقال : فابتزه الدهر نور واحدة

فقلت: وهل نجا من صروفه أحد

فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنيه وألزمنى خدمته".

وعاش ابن حمديس فى كنف المعتمد ما يقرب من ثلاثة عشر عاماً، وتوثقت الصلات بينهما وأصبح من شعرائه المقربين. وجذبته حياة الأندلس المترفة وطبيعتها الفاتنة فاندمج فيها بعض الاندماج، وتمتع بملذاتها، ولكن القدر كان قد دبر له كثيراً من المفاجآت المزعجة، وما لبثت الكوارث والنكبات أن توالت عليه، فمات أبوه الذى كان يحبه ويجله، وتحطمت قلاع المقاومة فى

---

(١) ديوانه ص٥٤٣.

وطـنـه، وسقطت صقلية إلى الأبد ثم ما لبث أن سقط المعتمد بن عباد واعتقل من قـبل يوسف بن تاشفين وسيق أسيرا إلى قلعة أغمات بمراكش، فاكتملت خيوط مأسـاته، وتجمعت في نفسه كل أحاسيس الحزن، وعز عليه أن يترك صاحبه (المعـتمد) فـي محنـته، فلازمـه في منفاه وعاش وفيا لـه إلى أن أدركته منينه، وعـاد ابـن حمـديس يعاني متاعب الغربة والتشرد من جديد، فعاش متنقلاً في المـدن الأفـريقية، واتـصل بـالأمير تميم بن المعز فمدحه ثم اتصل بابنه يحيى، وحفيده على ومدحهما أيضاً، وأقام بإفريقية بقية عمره ولكنه لم ينس وطنه وهو فـي بـلاد الغـربة، وظـل شـبح المأسـاة يخـيم على حياته، وأخذ القدر يلاحقه بالأنـباء المحـزنة، فتوفيت زوجه وهو بعيد عنها، ثم توفيت ابنته التي كانت ترعـى أبـناءه، وفقـد أصـدقاءه وأحـبابه واحـداً إثر آخر، وتراكمت على كاهله السنون، وفقد بصره في أخريات حياته ويروى السلفي أنه "دخل على صاحب بونة كرامة بن المنصور بعد أن كف بصره فقال: كيف حال الشيخ؟ فقال: كيف حال من كل صاحب عينين فصارتا غينين!! فاستحسن كلامه، وقال: خذ هذه العصا وتعكز عليها، فمد يده فوجد غلاما، باعه بعد ذلك بثلاثين دينار"[1] وقد وصف ابن حمديس حالته بعد أن أشرف على الثمانين فقال[2]:

أنـا فـي الـثمانين التـي فـتلت بهـا	قـيدي الـزمانة عـند ذلـك قـيادي
أمـــشي دبيـــبا كالكـــسير وأتقـــي	ولـبا علـى مـن الحمـام العـادي
ذبلـت مـن الآداب روضـتي التـي	جلـيت نـضارتها علـى الـرواد

وأخيراً، قـدر لهـذا الـشاعر المغترب أن يموت بعيدا عن أهله ووطنه، فتوفـى ٥٢٧ سنة وقد ذكر ابن خلكان أن وفاته كانت بجزيرة ميورقة[3]، وتبعه في ذلك كثير من الباحثين[4].

---

(١) معجم السلفي، (مخطوط) ورقة ٢٨٣.

(٢) ديوان ابن حمديس ص١٢٤.

(٣) وفيات الأعيان ٣٨٣/٢، والمكتبة الصلقية ص٦٢٦.

الآثار الصقلية فى شعره :

عاش ابن حمديس حياته موزعا بين صقلية والأندلس وإفريقية، واختلط بالحركات الأدبية فى هذه البيئات، وهذا ما يجعلنا نتساءل: هل تأثر شعره بكل بيئة من هذه البيئات؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب، فإلى أى مدى كان هذا التأثر؟

لقد اختلفت آراء الباحثين فى هذه المسألة، فزعم الدكتور سيد نوفل أن ابن حمديس كان يعيش بلغته وعقله وثقافته كلاً على العربية فى بيئاتها المختلفة، وأن الفتن التى ابتليت بها صقلية لم تتح له تمام المتعة بهذه البيئة وحسن التعبير عن جمالها، ويقول "إن الحياة التى عاشها فى الأندلس وإفريقية هى التى هيأته لأن يكون مثال الشاعر الذى يغنى بأساليب غيره من الشعراء"[2].

ويردد جودت الركابى هذا الرأى ترديداً يكاد يكون حرفياً دون أن يذكر قائله أو يشير إليه[3].

ومن الواضح أن الدكتور سيد نوفل يقيس المسألة بمقياس حسابى، فيزن تأثر ابن حمديس بعدد السنين التى قضاها فى كل بيئة من هذه البيئات، وذلك — فى تقديرى — مقياس خاطىء لا يستقيم مع واقع شعر ابن حمديس نفسه.

أما أمبرتو ريزيتانو فيرى رأياً آخر فيقول: "ومما لا شك فيه أن البيئات الجديدة — أندلسية كانت أم إفريقية — والأقطار التى اختلف إليها ابن حمديس، لم تكن تتجاوب مع قلبه"[4] ويؤكد هذا الرأى فى موضع آخر

---

(١) أنظر فى الأدب الأندلسى لجودت الركابى ص١٠٠ – ١٠١. ود. سيد نوفل: شعر الطبيعة فى الأدب العربى. ص٢٦٩. ومارتينو ماريو: تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٥٠.

(٢) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص٢٦٩.

(٣) فى الأدب الأندلسى ص١٠١.

(٤) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٩٧.

فيقول: "إن الحوادث التى كانت تدور فى إفريقية لم تكن ذات أثر مهم فى نفسه، وبالأحرى لم يكن لها أثر واضح فى شعره، وإن وجد فإنما هو أثر باهت يستطيع الإنسان العثور عليه فى هذا المديح أو ذاك الرثاء"[1].

وهذا الرأى الصحيح إلى حد بعيد، فمن يطالع ديوانه، ويقرأ قصائده، يرى بوضوح أن البيئة الصقلية هى المؤثر الحقيقى — وأكاد أقول الوحيد — فى شعر ابن حمديس، "فلقد كانت الحياة التى شاهدها وعاش فيها تختلف عن حياة غيره من الشعراء، لأن هذا الاتصال الذى كان يجمع بين الأمم المختلفة من سكان صقلية لم يحصل فى بلد إسلامى، وكانت الحوادث الاجتماعية والسياسية والحياة العقلية التى وقف عليها ابن حمديس وشهدها سببا فى تهذيب خياله وفكره حتى جعلت له صبغة خاصة فى شعره، فكان بعيد الغور فى تفكيره وخياله، كثير التأمل فى الحياة ومظاهرها، تملأ نفسه ذكريات أيامه الماضية، وحبه لبلاده والأهوال التى مرت به ومر بها، وقد ظهر ذلك فى شعره فنجده أحياناً باكياً متألماً، وحيناً فرحاً مسروراً، ولكن قرارة نفسه كانت مملوءة بأنواع الآلام من حوادث الأيام، فشعره مرآة لحياته النفسية، ومشاهداته وآرائه"[2].

وبرغم قصر المدة التى عاشها ابن حمديس فى وطنه، فإن صورة هذا الوطن لم تغب عن ذهنه ولم تفارق خياله، ويستطيع القارىء أن يلمح هذا فى كل شعره حيث تطل عليه صورة صقلية فى كل غرض من أغراضه، فيراها فى غزله، ويراها فى وصفه، ويراها فى خمرياته بل ويراها فى مدائحه أيضاً، فهى الخيط الأساسى الذى ينتظم شعره، وأما ما عداها فهى خيوط هامشية واهية فرضتها عليه مطالب العيش وظروف الحياة.

(١) المرجع السابق ص١٠٢.

(٢) تاريخ الأدب الأندلسى - إبراهيم على أبو الخشب ص٢٨٧.

ولعلنا لا نجد شاعرا استطاع أن يمثل وطنه بصدق مثلما استطاع هذا الشاعر الشاب. وفي ذلك يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني: كان ابن حمديس يمثل أجل تمثيل وطنه صقلية، في عبثه ترى عبثها، وفي لهوه ترى لهوها، وفي حماسه ترى حماسها، وفي أوصافه ترى أوصافها ذات الألوان الزاهية الخلابة، وفي تنديده بأهلها ترى وتسمع لسانها العاقل يندد بأبنائها الذين أضاؤها، وفي رثائه لها، وبكائه عليها، يخيل إليك أنك تسمعها تبكي وتنتحب، تندب سلطانا ضائعا، وملكا مفقودا. بل إن شعر ابن حمديس في مجموعه، يعد ملحمة من أبدع ما أخرج الشعراء للناس من الملاحم"[1].

لقد رسم ابن حمديس لوحات كثيرة لصقلية في صباها ولهوها حيث عاش هناك أجمل ذكرياته ولم يكن يدري ما يخبئه له القدر. وفي هذه اللوحات تطل علينا صورة صقلية المترفة، المترعة بجمال الطبيعة، الحافلة بحانات الخمر التي تعج بالغلمان والسقاة والجواري حيث تصفو الحياة، ويلذ العيش — صقلية هذه هي التي وصفها ابن حمديس فقال[2]:

بلد أعارته الحمامة طوقها	وكساه حلة ريشه الطاووس
وكأن هاتيك الشقائق قهوة	وكأن ساحات الديار كؤوس

وفي لوحة أخرى من تلك اللوحات يصور ابن حمديس جانبا من جوانب حياته التي عاشها في صقلية حيث لا يشغله إلا شرب الراح واغتنام الملذات، يقول[3]:

طربت متى كنت غير الطروب؟	فلم أعر طرف الصبا من ركوب
فيوما إلى سبي زق روى	ويوما إلى صيد ظبي ربيب
ومهما كبابي فمن نشوة	يوافقها بين كأس وكوب
ليالي بين المها غيرة	على تخوض بها في حروب

(1) المسلمون في جزيرة صقلية ص٢١٧.
(2) ديوان ابن حمديس ص٥٥٣.
(3) ديوانه ص١٢.

ويصف مغامراته مع الجوارى والقيان وكلفه بهن فيقول[1]:

وتزحمنـــــى كـــــل فـــــتانة ... بـــــتفاحة غلفـــــتها بطـــــيب
ويطلقنـــى مـــن عقـــال العـــناق ... صـــباح ينـــبه عـــين الـــرقيب
وفـــى كـبدى جـرح لحـظ علـيل ... وفـــى عـضدى عـض ثغـر شـنيب

وفـى تلك الفترة من حياته لم يكن ابن حمديس يؤمن بشيء إلا باللذة، فهـى مذهـبه الـذى لا يعتـنق غـيره، ولا يرتـضى بـه بديلا، وقد عبر عن ذلك فقال[2]:

ومـا العـيش إلا فـى تطـرف لـذة ... وخلـع عـذار فـيه مستحـسن العـذر

ولكـن القـدر أبـى إلا أن يحـرمه مـن هـذه الحـياة، فقد ابتليت صقلية بالفتنة، وما لبثت هذه الفتنة أن تفاقمت حتى نغلت وأعيت كل طبيب — على حـد تعـبير شـاعر صـقلى آخـر — وهنا أفاق ابن حمديس من حلمه ليجد نفسه بعـيدا عـن وطـنه الـذى يـصفه دائمـاً بأنـه جـنة الخلـد، فتختفى هذه الصورة الضاحكه، وتتغير نظرة ابن حمديس للحياة، فلم يعد ذلك الشاعر الشاب الذى يتغنـى بالكـأس والقيـنة، ويـرى العيش فى اغتنام الملذات، وإنما أصبح شاعراً آخـر يألـف الـوحدة، ويتـبرم بالحياة، ويقاسى آلام الاغتراب والتشرد ويحمل علـى كاهله مأساة وطنه حيثما رحل، وأينما حل. وأصبحت المأساة وحدها هى المؤثـر الحقيقـى فى شعره وشاعريته، وقد انعكست آثار هذه المأساة على شعره فوجهـته وجهـات أخر، واخرجته عن ذلك النطاق التقليدى الذى ظل الشعراء يـدورون فـيه إلى آفاق إنسانية أرحب وأوسع. ويمكن أن نحصر هذه الآثار فيما يأتى:

---

(1) ديوانه ص١٢.
(2) المصدر نفسه ص١٩٣.

الإحساس بالغربة والحنين إلى الوطن :

إن ظاهرة الحنين إلى الوطن هي أكثر الظواهر وضوحا في شعر ابن حمديس وإذا كان شعر الحنين قد عرف في الشعر العربي، فإن حنين ابن حمديس من أصدق ما قيل في هذا الباب، وأبلغه على مر العصور، فهو صادر عن نفس معذبة ذاقت الغربة، وعن قلب محطم قاسى الشقاء والهوان والأسى على تلك الديار الصقلية التي كانت عامرة بمواطنيه وأصحابه وأفراد عائلته فأصبحت بعد استيلاء النورمان عليها خالية من أهلها وأصحابها[1].

لقد تشخصت الغربة في نفسه منذ اللحظة الأولى التي فارق فيها وطنه، فقد نعبت الغربان في تلك اللحظة منذرة بالفراق الأبدي وكأنما كانت تعلم الغيب[2]:

وقالت: غرابيب درجن ببينه	سيستدرج الأعوام وهو غريب
فما كان إلا ما قضى بالها به	فهل كان عنها الغيب ليس بغيب؟

وقد ظلت هذه الصورة — صورة الغراب تلازم الشاعر في غربته طيلة حياته وقد عبر عن ذلك فقال[3]:

أنا من صاح به يوم النوى	عن مغانيه غراب فاغترب
طفت في الآفاق حتى اكتهلت	غربتي واحتنكت سن الأدب

ولقد حكم القدر على ابن حمديس بأن يعيش لاجئاً مهاجراً بعيداً عن أهله ووطنه، ويعبر ابن حمديس عن هذه المأساة في نغمات حزينة تثير الشفقة وتؤجج مشاعر الحزن على مصير هذا الشاعر البائس فيقول[4]:

إني امرؤ مما طرقت مهيد	بفراق أهلي وانتزاح بلادي

وتستبد به آلام الغربة فيصرخ قائلا[1]:

---

(١) تاريخ الأدب العربي في صقلية ص١٠٢.
(٢) ديوانه ص٣٨ – ٣٩.
(٣) ديوانه ص٤٩.
(٤)ديوانه ص١٢١.

مـالى أطـيل عـن الـديار تغـربا أفبالتغـرب كـان طالـع مـولدى

وتـشتد وطـأة الفراق، ويقوى فى نفسه الشعور بالوحدة، وتشتعل جذوة الشوق فى نفسه، وتزداد لواعج الحنين، فيرفع صوته إلى السماء قائلاً[٢]:

فـيارب إن الـبين أضـحت صـروفه علـىَّ ومـالى مـن معين فكـن معـى
علـى قـرب عـدالى، وبعـد حبائبـى وأمـواه أجفانـى، ونـيران أضـلعى

وابـن حمديس — كأى مغترب أو مهاجر — كان ينتابه الشعور بالضآلة أو "الـضعف" فى المجتمع الذى هاجر إليه، وكان يحس بأن الناس لا يقدرون الغـرباء. ومثل هذا الإحساس "بالامتهان" أو بعدم ترحيب المجتمع به لابد أن يقابلـه إحـساس آخر يتمثل فى نغمة الفخر بنفسه، والإشادة بمكانته بين أبناء وطنه وأهله مما يتمثل فى قوله[٣]:

وكـنا فـى مواطنـنا كـراما تعـاف الـضيم أنفـسنا وتابـى
ونطلـع فـى مطالعـنا نجـوما تعـد لكـل شـيطان شـهابها
صـبرنا للخطـوب علـى صـروف إذا رمـى الولـيد بهـن شـهابا
ولم تـسلم لـنا إلا نفـوس وأحـساب تكـرمها احتـسابا
ولم تخـل الكـواكب مـن سـقوط ولكـن لا يـبلغها الترابـا

ولم يـستطع ابـن حمـديس أن يعـايش هـذا المجتمع الذى هاجر إليه، فأقـام كارهـا لـه ساخطا عليه، يطوى أحشاءه على الألم ويعاتب الدهر الجائر الذى أخرجه من الجنة وألقى به فى بلاد قاسية قاحلة عرفت بمرعاها الوخيم، ومياهها الآسنة وحياتها الجافة. ويعبر عن هذه المعانى فيقول[٤]:

طـال التغـرب فـى بـلاد خصـصت بـوخامة المرعـى وطـرق المـشرب
فطـويت أحـشائى علـى الألم الـذى لم يـشفه إلا وجـود المـذهب
إن الخطـوب طرقتنـى فـى جـنة أخرجتنـى مـنها خـروج المـذنب

---

(١) المصدر نفسه ص١٦٨.
(٢) المصدر نفسه ص٣٠٤.
(٣) ديوانه ص١٦.
(٤) نفسه ص٥٣٨.

ولم تكن صورة وطنه تغرب عن ذهنه أو تفارق خياله، فهو دائم الحنين إليه، يتذكر أماسيه وأسماره فى ربوعه. ويحلم بالعودة إليه مرة أخرى بعد أن طال الفراق، وعز اللقاء. ويعبر عن هذه المعانى فيقول[1]:

بالله يا سمرات الحى هل هجعت	فى ظل أغصانك الغزلان عن سهرى
وهل يراجع وكرا فيك مغترب	عزت جناحيه أشراك من القدر
ففيك قلبى ولو أسطيع من وله	طارت إليه بجسمى لمحة البصر

لقد أرهفت الغربة أحاسيس ابن حمديس، ورققت مشاعره، فأصبح يرى صورة وطنه فى كل شىء حوله، يراها فى الرشأ الجميل، والوجه الصبوح، ويراها فى سجع الحمام، وشدو الطيور، ولعله من الشعراء القلائل الذين التفتوا إلى هذه الناحية، ولنسمعه يقول[2]:

وربما هاج اشتياق الفتى	تألق البرق وسجع الحمام
أو نفحة تعبق من روضة	تحيى من الصب رميم العظام

وحين يستمع إلى ورقاء تبكى يتذكر وطنه، وتلتهب مشاعره، ويحس بالنار تشتعل فى أحشائه، فيقول[3]:

أإن بكت ورقاء فى غصن بان	تصدعت منك حصاة الجنان
وأذكرته من زمان الصبا	طيب المغانى والغوانى الحسان
كيف رمت بالنار أحشاءه	ذات هديل فى رياض الجنان
ماذاك إلا لنوى غربة	قسا عليها الدهر فيها ولان

وتتمثل لنا رهافة مشاعره فى هذه الصورة الرائعة التى رسمها لطائر رآه يغرد على أحد الغصون وقد باتت سوارى الطل تضرب ريشه، فأهاج هذا المنظر بكاءه، وهز مشاعره، يقول[4]:

---

(١) ديوانه ص٢٠٦.
(٢) ديوانه ص٤٥٩.
(٣) المصدر نفسه ص٥٠٥ وما بعدها.
(٤) ديوانه ص١٣٠.

ولقـد يهـيج لى الـبكاء صـبابة	شـاد مطـوق آلـة التغـريد
باتت سوارى الطل تضرب ريشه	بجواهـر لم تـدر سـلك فـريد
غنى على عـود يميس بـه كما	غنـى الـتقابل معـبد فـى العـود

وينظر ابن حمديس إلى النيلوفر. وقد نبت بعيدا عن وطنه فيقول[1]:

هـو ابـن بـلادى كاغترابـه	كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر

وكانت الرسائل هى الرباط الوحيد الذى يصل ابن حمديس بأهله، وكان يجد عزاءه وسلواه فى تلك الرسائل، فيبثها لواعجه وآلامه، ويحدث أهله عن أهوال الغربة ومتاعبها، ويؤكد لهم أنه لم يتسل عنهم لا بالسماع ولا بالشراب. يقول فى إحدى رسائله[2]:

فلا تحسبونى قد تسليت عنكم	بطيب سماع أو بكأس مدام
ولا ضحكت سنى،وهل ضحكت وما	وضعت على فض الدموع ختامى

ولقد تقدمت السنون بابن حمديس، وشيبته الغربة، وأصبح يائسا من العودة، وخمدت فيه الجذوة القديمة ولم تبق إلا ذكراها — لا وطن ولا شباب — وهذه هى الغربة الكاملة التى أحسها حينما كبر ولذلك تسمعه فى بعض قصائده إذا ذكر الوطن صدر قصيدته بذكر الشيب — وهو غربة عن الزمان الجميل، ثم ثنى الكلام إلى الوطن — وهى غربة عن المكان الجميل — وأصبحت تلك النقلة فى الزمان والمكان هى المؤثر الوحيد فى نفسه وشعره"[3].

ومن تلك القصائد التى يمزج فيها بين الإحساس بالشيب والإحساس بالغربة قصيدة يقول فى مطلعها[4]:

نفى هم شيبى سرور الشباب	لقد أظلم الشيب لما أضاء

---

(١) ديوانه ص١٨٥.
(٢) المصدر نفسه ص٤٣٣.
(٣) العرب فى صقلية ص٢٥٢.
(٤) ديوان ابن حمديس ص٣.

وفي هذه القصيدة يمزج ابن حمديس مزجاً قوياً بين حالة الكآبة التى يعيشها بسبب الغربة والشيب وبين ما يراه أمامه من مظاهر الطبيعة، فيخلع عليها أحاسيسه، ويراها من خلال نفسه، فيرى الأرض ماحلة قاحلة، والظلام حالكا، ويستعين ابن حمديس بالصوت والحركة واللون فى رسم لوحته، فأصوات الرعد تصطك مثل هدير الفحل، والبروق تشتعل على جانبيها، والشاعر يبيت فى ظلمة حالكة على أمل أن يرى الضياء، ونراه يتوسل إلى الرياح بأن تسوق جهام السحاب لكى تسقى ربوع وطنه الذى تمشت إليه الخطوب كما تتمشى الذئاب الضراء، وهنا يبلغ به الحنين منتهاه، ويستبد به الشوق، وتلتهب فى نفسه أحاسيس الغربة، فيرنو ببصره إلى ما وراء الشاطئ ويخاطب البحر قائلاً[1]:

وراءك يا بحر لى جنة	لبست النعيم بها لا الشقاء
إذا أنا حاولت منها صباحا	تعرضت من دونها لى مساء
فلو أننى كنت أعطى المنى	إذا منع البحر منها اللقاء
ركبت الهلال به زورقا	إلى أن أعانق فيها ذكاء

ومن يقرأ شعر ابن حمديس يلحظ بوضوح أن ظاهرة الحنين إلى الوطن تسيطر على عقله وفكره، وتتغلغل فى أغراض شعره تغلغلاً كبيراً فنراها فى الغزل والمدح والوصف، بل ونراه يستمد منها صوره وتشبيهاته وأوصافه فمن ذلك قوله[2]:

رشأ أحن إلى هواه كأنه	وطن ولدت بأرضه ونشيت

وقوله[3]:

لقد جنت إلى مثواك نفسى	كمرزمة إلى وطن تتوق

وقوله[1]:

---

(١) ديوانه ص٤.
(٢) نفسه ص٧٢.
(٣) المصدر نفسه ص٣٣٣.

يقر قرار السر عندي كأنه غريب ديار قال في وطن: حسبي

الشكوى في شعره :

كانت الشكوى وليدة تلك الظروف القاسية التي ألمت بابن حمديس فأصبح بعد سقوط وطنه ونزوحه عنه دائم الأسى، كثير الشكوى، ساخطا على الزمان الذى انتزعه من أهله، وحكم عليه بالتشرد والاغتراب، فيعلن ثورته عليه، ويصفه بأنه جم الخطوب، ويحذر المرء من غدره وبطشه من مثل قوله[2] :

قف بالتفكر يا هذا على زمن جم الخطوب ومثل صرفه وقس
ولا تكن عنده للسلم ملتمسا فالأرى في فم صل غير ملتمس

وكان يتخيل أنه في معركة مستمرة مع الزمان، ولكنها معركة خاسرة، فالزمن هو المنتصر دائماً، وليس في مقدور أحد أن ينجو من هلكته وفتكه، يقول[3] :

دفعت ولم أملك دفاع ملمة إلى زمن في كل حين أعاركه
وجيش خطوب زاحم كل ساعة فما أنفس الأحياء إلا هو الكه
فإن تنج نفسي من كلوم سلاحه فإن برأسي ما أثارت سنابكه

وفي قصيدة أخرى تراه يصب جام غضبه على الدهر الذى لا يكف عن تعنته ولا ينثني عن تعقبه والكيد له. هذا الدهر الذى هزه هزا عنيفا، فانتزعه من وطنه وأهله، وزرع الشيب في رأسه، وسد عليه الدروب والمسالك، وأحال صفو حياته كدرا. يقول[4].

هل أقصر الدهر عن تعنيت ذى أدب أو قال حسبي من إخمال ذى حسب
لا يلحظ الحر إلا مثلما وقعت على أخي سينات عين ذى غضب
وكيف يصفو لنا دهر مشاربه يخوضها كل حين جحفل النوب

---

(1) المصدر نفسه ص٣٢.
(٢) ديوانه ص٢٨٥ – ٢٨٦.
(٣) ديوانه ص٣٤٠.
(٤) ديوانه ص١٧.

إن الـــزمان، بمــا قاســيت، شـــيبني ولم أشـــيبه، هـــذا والـــزمان أبـــى

موضوعات شعره :

يـشتمل شعر ابن حمديس على أكثر أنواع الشعر المعروفة، ولكنه توسع فـي الوصـف، وبـرع فيه حتى ليقول أمبرتو ريزيتانو أنه كان جديرا بأن يحمل لواء الزعامة بين شعراء هذا الفن[1].

وقـد أمدته البيئة الصقلية بزاد وافر، وأخيلة كثيرة، وكانت منبعا ثريا يستلهم منه ويضفي عليه من روحه وأحاسيسه.

ويكـاد المطلـع علـى ديـوانه يظن أنه لم ير منظرا من مناظر الطبيعة إلا وقـد وصفه وصوره، فقد وصف الطبيعة بكل ما فيها من مظاهر، من سمائها إلى أرضـها إلى مائها، ووصف الحياة المتحضرة بما يشيع فيها من مجالس الشراب، والـساقيات، والرقص والغناء والصيد، ووصف قصور الطبقة المترفة وما فيها من زخـارف ونافـورات وفسيفـساء، وأمدتـه البيئة الحربية التى عاشها فى صقلية بمحـصول وافـر، فوصـف المعارك الحربية والسفن المقاتلة والجيوش والحراقات وآلات الحرب.

ويـتحدث الدكـتور أحمد ضيف عن طريقته في الوصف فيقول[2]: "وله فى الوصف براعة معروفة، واستحضار عجيب لصور الأشياء والتشبيهات، ودقة فـى جمـع الأشـياء وتنسيقها، كأنما تراه يجمعها وينسقها بيده أو كأنه يغوص علـى المعنـى الخفـى فيأتـى بـه ويضعه فى موضعه..، وكأنك وأنت تقرأ كلامه تـرى بعينيك ما يصف، وتحس ما يقول، لأنه كان ذا شعور قوى ونظر ثاقب.. ولا تكاد تقف لـه على غور فى الوصف، ولا على أسلوب واحد، لأنه يميل إلى الاختراع، وكثيراً ما يكون وصفه حقيقياً أكثر منه خيالياً".

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص١٩٨.

(٢) بلاغة العرب فى الأندلس ص١٤٠ – ١٤١.

وربما كان أهم ما يميز طريقته في الوصف أيضاً اهتمامه بوصف الدقائق والجزئيات وميله إلى التفصيل والوصف الهادى البطيء. ونستطيع أن نلمس ذلك بوضوح في قوله يصف الزرافة[1]:

ودائمة الإقعاء فى أصل خلقها ... إذا قابلت أدبارها عين مقبل
تلفت أحياناً بعين كحيلة ... وجيد على طول اللواء مظلل
وعرف دقيق الشعر تحسب نبته ... إذا الريح هزته ذوائب سنبل
تنفس كبراً من يراع مثقب ... فتعطى جنوباً منه عن أخذ شمأل
وتنفض رأساً فى الزمام كأنما ... تريك له فى الجو نقطة أجدل

وقد انعكست حالته النفسية على طريقته في الوصف؛ فكان لا يقتصر على موضوع واحد يضمنه القطعة الشعرية، ولكنه كان ينتقل من موضوع إلى موضوع، ومن وصف إلى وصف، كأن يصدر قصيدته بالغزل، ثم ينتقل إلى وصف الخمر، ثم يعرج على وصف الصحراء والسيف والخيل، وقد ينتقل من وصف المحسوس إلى وصف المعقول أو يتدرج من المعقول إلى المحسوس، بل من الناحية النفسية قد ينتقل من الرضا والاستسلام إلى القلق والاضطراب حتى لتكاد تلمس منه أحياناً رائحة التشاؤم وتلحظ ملامح الملل والقلق واضحة في نفسه[2].

الطبيعة في شعره:

فتن ابن حمديس بالطبيعة فتنة كبيرة ويقول الدكتور سيد نوفل إن هذه الفتنة كانت طبيعية في شاعر نشأ بصقلية الجزيرة الجميلة، ورحل إلى الأندلس المشرقة، وعاش في عصر أقبل الشعراء فيه على مباهج الطبيعة يمتعون النفس بها، ويملؤنها بشرا باستجلاء محاسنها[3].

---

(١) ديوانه ص٣٨١.
(٢) ابن حمديس الصقلي لعلي مصطفى المصراتي ص٣٨.
(٣) شعر الطبيعة في الأدب العربي ص٢٧٥.

وتبدو فتنته بالطبيعة فى مواضع كثيرة من ديوانه، فقد وقف عند الأنهار والغدران والأشجار والرياض والأزهار وغيرها من مشاهد الطبيعة. وتبدو الفتنة بالطبيعة كذلك حين يدخل أوصافها فى أغراض الشعر الأخرى، فيصف الطبيعة فى الغزل، بل يصور محاسن الحبيب على مثال محاسن الطبيعة ويصفها فى المدح بل أكثر شعره المدحى مصبوغ بصبغة الطبيعة، ويصورها قوية فى الحماسة والفخر ويصورها حزينة باكية فى الرثاء"[1].

ومن الأمثلة التى توضح فتنته بالطبيعة وشغفه بها هذه القصيدة التى يقول فى مطلعها[2]:

نثر الجو على الأرض برد	أى در لنحور لو جمد

وفيها يصف البرد المتساقط من السماء، ويتخيله قد تحول إلى لؤلؤ يحلى صدور الغيد، ثم يصف ذوبان البرد على الأرض، وجريانه فى سيول كأنها ثعابين تجرى مسرعة، ويصف امتلاء الغدران به، ويشبه الزبد الذى يعلوها بقوارير سابحة ثم ينتقل بعد ذلك إلى وصف البرق فيشبهه فى اختفائه ولمعانه بالسيف حين يستل وحين يغمد وهو فى أثناء ذلك يفتن فى توليد المعانى والصور بقول ابن حمديس واصفا البرد[3]:

لؤلؤ أصدافه السحب التى	أنجز البارق منها ما وعد
منحته عاريا من تكد	واكتساب الدر بالغوص نكد
ولقد كادت تعاطى لقطه	رغبة فيه كريمات الخرد
وتحلى منه أجيادا إذا	عطلت راقتك فى حلى الغيد
ذوبته من سماء أدمع	فوق أرض تتلقاه بخد
فجرت منه سيول حولنا	كثعابين عجال تطرد
وترى كل غدير متأنق	سبحت فيه قوارير الزبد

---

(1) نفسه ص٢٧٥ وما بعدها.
(2) ديوانه ص١١٧.
(3) نفسه ص١١٧.

خمرياته :

أبدع ابن حمديس في وصف الخمر إبداعاً كبيراً، وتفنن في وصفها، وتغنى بها كثيراً في شعره، وانفعل إزاءها انفعال العاشق أمام معشوقته الجميلة، فنراه يذكرها وكأن الناس جميعا سكارى، وفي كل رأس نشوة وحيرة، وكأن الخمر حلال لا حرام، أو كأنها أكمل شيء في الوجود، والقارىء يثمل بذكر الخمر كما يثمل بأسلوب الشاعر وعذوبته. وكأن أحدا لم يقل مثله في ذلك ويخيل إلينا أنه لم يترك صفة من صفات الخمر إلا ذكرها ولا معنى من معانيها إلا قاله[1]، فقد وصف الساقي والكأس ومجالس الشراب ووصف الراهبة في الدير وهي تبيع الخمر، ووصف الخمار، وأفاض في وصف الخمر نفسها، فوصفها بالقدم والعتاقة وبأن الزمان أبلى جسمها لا روحها ولم يستطع أن يسلبها أرج المسك، ولون العسجد، وتحدث عن تطوافها العصور والأحقاب، وامتزاجها بالماء وأكثر من تشبيه الحباب الذي يطفو فوقها بالشباك. يقول في إحدى خمرياته[2]:

هاتها صفراء ما اخترت لها	أفق الشمس على أفق يدي
خارج في راحتي مقتنص	كل هم كامن في خلدي
جرد المزج عليها صارما	فاتقته بدموع الزبد
عتقت ما عتقت في خزف	بـرداء القار فيه ترتدي
حيث أبلى جسمها لا روحها	مر أيام الزمان الجدد
ما أطاق الدهر أن يسلبها	أرج المسك ولون العسجد

وقد لاحظ الدكتور سيد نوفل أن ابن حمديس تتوثق الصلة عنده بين الطبيعة والخمر، فهي تجلي محاسن الطبيعة أمامه، وتثير بوضوحها وبغموضها إلى الخمر، فقد شرب عند طلوع الفجر، وشرب عند تنفس الصبح،

---

(١) بلاغة العرب في الأندلس ص١٤٦.

(٢) ديوان ابن حمديس ص١٣٩.

ودعا إلى الشراب قبل أن ترتشف الشمس ريق الغودى من ثغور الأقاح، وشرب فى حديقة فواحة الزهر مخضلة تجودها السحب كل يوم، وتنظم فيها أكف الغمام جمانا لا تنظمه أكف الإنسان، وشرب عند المغيب والشمس تلبس عند المغيب نقابا، والقطر ينظم للروض عقود اللآلىء، ودعا إلى الشراب ونسيم الرياض زكى عليل، وعلى مرأى من النارنج ذى الشكل البديع، وبجانب بركة النيلوفر باحمرارها واخضرارها كأنما أخرجت أزهارها من الماء ألسنة النار. وهكذا لاحق الطبيعة بالخمر فى جميع الأوقات والأحوال الطبيعية، وأبان عن فتنته بالطبيعة فى مظاهرها المختلفة[1].

ونستطيع أن نتلمس تلك الصلة بين الخمر والطبيعة فى مثل قوله[2]:

طرقت والليل ممدود الجناح   مرحبا بالشمس فى غير صباح
فالقضيب اهتز، والبدر بدا   والكثيب ارتج، والعنبر فاح
والثريا رجح الجو بها   كابن ماء ضم للوكر جناح
وكأن الغرب منها ناشق   باقة من ياسمين أو أقاح
وكأن الصبح ذا الأنوار من   ظلم الليل على الظلماء صاح
فاشرب الخمر ولا تخل يداً   من يد اللهو غدوا ورواح

وقد نحس بالروح النواسية فى بعض خمريات ابن حمديس، ولكنه ربما يتميز عنه بميزة واضحة، فإذا كان الشاعران قد فتنا بالخمر، وهاما بها، وأفاضا فى وصفها فإن إعجاب ابن حمديس بها لم يدفعه إلى التهتك أو الاستخفاف بالعقيدة، وأقصى ما نجده له هو قوله يرد على من يلومه فى شرب الخمر[3]:

يا لائمى فى الراح كم سيئة   تجاوز الغفار عنها وصفح

(١) شعر الطبيعة فى الأدب العربى ص٢٧١ – ٢٧٢.
(٢) ديوان ابن حمديس ص٨٢– ٨٤.
(٣) ديوانه ص٨٨.

ويبدو أن مأساة ابن حمديس ونزوحه عن بلاده قد جعلته يزهد في الخمر، ويعزف عنها، فأصبح يقف إزاءها موقف المتفرج أو موقف من يدعو إلى الحرب ثم لا يشارك فيها أو يصطلي بنارها، ويتضح ذلك في قوله[1]:

أصف الراح ولا أشربها ... وهي بالشدو على الشرب تدور

كالذي يأمر بالكر ولا ... يصطلي نار الوغى حيث تفور

فسواء بين إخوان الصفا ... وذوي اللهو، مغيبي والحضور

غزله :

وغزله في معظمه انعكاس صارق لحياته وتجاربه في صقلية، فقد أتاحت له تلك الحياة برغم قصرها أن يتردد على الحانات والأديرة وأن يغشى مجالس اللهو والمجون، وأن يستمتع بأمسيات سرقوسة الساحرة، فاختلط بالفتيات المسيحيات، واندمج مع الجواري والقيان، فجاء غزله معبرا عن تجاربه مع هذا النوع من النساء.

فهو لا يتغزل في الحرائر إلا نادرا، ولكنه يتغزل في أغلب الأحيان في امرأة لعوب، تجيد المطل والتسويف، وتفتن في أساليب الخداع، وتعرف كيف تعبث بقلوب الرجال، وتستبد بعقولهم. إنها كما يصفها ابن حمديس[2]:

سريعة غدر سيفها في جفونها ... وهل لك سلم عند من خلقت حربا

ويصف مماطلتها وتسويفها فيقول[3]:

غادة إن نيط منها موعد ... بغد فر إلى بعد غد

هكذا عندي يجري مطلها ... بخلاف عندها مطرد

ويصف تلاعبها به واستبدادها بقلبه فيقول[4]:

وكأني لعبة في يدها ... مالها تتلف جدي بالمزاح

---

(1) المصدر نفسه ص١٩٨.
(2) ديوانه ص٥٠.
(3) المصدر نفسه ص١٣٨.
(4) ديوانه ص٩٦.

ويصور في غزله تجاربه مع بعض المغنيات، فمن ذلك قوله[1]:

ولمـــا تلاقيـــنا تكلـــم مقـــول	بـــسر الهـــوى مـــنها، ومنـــى مدمـــع
شـــكوت ونطـــق بينـــنا فلأيـــنا	يبرح الجوى في مذهب الحكم يقطع
ومالـــت إلى تأنيـــسنا بعـــد وحـــشة	بأجـــوف لم تخلـــق لجنبـــيه أضـــلع

ويمـزج ابـن حمـديس بـين الحـب والحـرب دائمـاً ويجعلهما صنوين، فالحـب هـو الوغـى بعيـنه بما فيه من نزال وسفك دماء وصراع. ويعبر عن هذه المعاني فيقول[2]:

وذي جهلـة بالحـب أعلمـته بمـا	ثـناه عذيـرى بعـدما كـان عـاذلي
وقلـت لـه إن الهـوى لأخـو الوغـى	ولابـد فـيه للفتـى مـن مـنازل

ولابـن حمـديس بعـض مقطعات غزلية تحتوى على قدر كبير من صدق العاطفـة، ونحـس بأنهـا صادرة عن قلب ملتاع ذاق طعم الهوى واكتوى بناره، فمن ذلك قوله متغزلا في فاتحة ديوانه[3]:

إلى متـى مـنكم هجـرى وإقـصائي	و يلـى وجـدت أحبائـى كأعدائـى

وفيها يقول[4].

إنـــى لجمـــر وفـــاء يستـــضاء بـــه	وأنـــت بالغـــدر تختـــارين إطفائـــي
مـا فـي عـتابك مـن عتبـى فأرقـبها	هـل يـستدل علـى سـلم بهـيجاء
ولا لـــوعدك إنجـــاز أفـــوز بـــه	وكـيف يـروى غلـيلا آل بـيداء

ويقول في قصيدة أخرى[5]:

أصـبحت عـندك أرتجـى وأخـاف	مـــا هكـــذا يـــتألف الآلاف
يـا كـيف بـات علـى قلـبك جامـداً	يقـسو فلـيس يلـينه اسـتعطاف
لم تنـصفيني فـي معاملـة الهـوى	وأعـز شـيء فـي الدمـى الإنـصاف

---

(1) نفسه ص٣٠٣.
(٢) ديوانه ص٣٩٤.
(٣) نفسه ص١.
(٤) ديوانه ص٢.
(٥) ديوانه ص٣١٥.

زهده :

وإذا كان ابن حمديس قد أطلق العنان لنفسه، وخلع عذاره في الهوى، وانغمس في اللهو في صدر شبابه، فإنه لم يلبث أن عاف هذا اللون من الحياة بعد هجرته عن وطنه، ومال في أخريات حياته إلى الزهادة والنسك، وأظن أن ثمة عاملين كان وراء زهد ابن حمديس أولهما: إحساسه الدفين بالضياع بعد أن فقد أهله ووطنه، وثانيهما: إحساسه بالمشيب، وبأنه وصل إلى نهاية المطاف من العمر، وهذه حالة عامة تعترى الناس جميعا في أخريات حياتهم بيد أن هذا الإحساس كان قوى الأثر في نفس ابن حمديس، فنراه كلما قطع مرحلة من العمر وقف يتألم ويشكو، فعل ذلك وهو في الخمسين، والستين، والسبعين، ثم حين أشرف على الثمانين.

ويشتمل شعره الزهدى على تلك الأفكار المعاني العامة التي تنتظم شعر الزهد ويرددها شعراؤه، فهو يحذر من الاغترار بالدنيا، ويذكر بالموت، والمصير الذى ينتظر الإنسان، ويكثر من الإنابة والاستغفار، ويلوم نفسه على ما كان منها، ويلائم بين هذه الأفكار وبين تعاليم الدين ولا نرى في شعره الزهدى أى أثر من آثار الأفكار الأجنبية ومن شعره الزهدى قوله وهو في السبعين[1]:

وعظــــت بلمــــتك الــــشائبة	وفقـــد شـــبيبتك الذاهـــبة
وســبعين عامـــا تـــرى شمـــسها	بعيـــنك طالعـــة غاربـــة
وغـــرتك دنـــياك إذ قوضـــت	إلـــيك أمانـــيها الكاذبـــة
أصـــاحبة خلـــتها؟ إنهـــا	بأحـــدائها بئـــست الـــصاحبة
فـــيا حاضـــرا أبـــداً ذنـــبه	وتوبـــته أبـــداً غائـــبة
أذب مـــنك قلـــبا تجـــارى بـــه	ســـوابق عـــبرتك الـــساكبة
علـى كـل ذنـب مـضى فـى الـصبا	وأتعـــب إثـــباته كاتـــبه
عـــسى الله يـــدرأ عـــنك العقـــاب	وإلا فقـــد ذمـــت العاقـــبة

---

(1) ديوانه ص٤٠ وما بعدها.

موقفه من شعر الهجاء :

ولا نعثر في ديوان ابن حمديس على قصيدة واحدة في الهجاء، ويبدو أنه اختار هذا المذهب عامدا، وكانت حجته في ذلك أنه لا ينبغي على المسلم أن يجرح أخاه المسلم، وقد أشار إلى ذلك فقال[1]:

يقولون لي: لا تجيد الهجاء	فقلت: ومالي أجيد المديح
فقالوا : لأنك ترجو الثواب	وهذا القياس لعمري صحيح
فقلت صفاتي، فقالوا حسان	فقلت : نسيبي فقالوا مليح
فقلت إليكم فتى حجة	وللحق فيها مجال فسيح
عفاف اللسان مقال الجميل	وفسق اللسان مقال القبيح
ومالي وما لامرىء مسلم	يروح بسيف لساني جريح

وقد التزم ابن حمديس بهذا المبدأ طوال حياته، فلم يعرف عنه أنه هجا أحدا، أو انزلق في معارك هجائية مع أحد بالرغم من أنه كان يتعرض للهجاء من قبل بعض الحاقدين ولو شاء لانصب عليهم شواظا من نار، ولانتصر عليهم بلسان حاد يحيل على الأعراض حد السكاكين، وقد أشار إلى ذلك فقال[2]:

وما أنا ممن يرتضي الهجو خطة	على أن بعض الناس أصبح يهجوني
ولو شئت يوما لانتصرت بمقول	يحيل على الأعراض حد السكاكين

مذهبه الشعري :

يعد ابن حمديس من الشعراء القلائل الذين أكثروا من الفخر بشعرهم، وأشاروا إلى طريقتهم أو مذهبهم في نظم الشعر. وقد افتخر بشعره فقال[3]:

والشعر أجدت بمعرفتي	تأنيس غرائبه الشرد

---

(١) ديوانه ص٩٤.

(٢) ديوانه ص٥١٥.

(٣) نفسه ص١٦٣.

ثم يقول :-

فبغام الرئم حلاوته ... وجزالته زأر الأسد
وبدلة أهل السبت قضى ... ويدل له أهل الأحد

ويرى ابن حمديس أن شعره هو الشيء الوحيد الذى لم يستطع الزمان أن ينال منه أو يهدمه، ويشير إلى أنه ظل متوقد الشاعرية حتى وهو طاعن فى السن فيقول[1]:

إنى امرؤ أبنى القريض ولا أرى ... زمنا يحاول هدم ما أنا بانى
ولقد شأوت الريح فيه مسابقا ... من بعد ما أمسكت فيه عنانى
وطعنت فى سن الكبير وما نبا ... عن طعن شاكلة البديع سنانى

ويستدل من شعر ابن حمديس على أنه كان يميل إلى الشعر المطبوع لا المصنوع أو المتكلف، وكان يرى أن القليل الموجز خير من الكثير المسهب ويشير إلى ذلك فيقول[2]:

وصلت يدى بالطبع فهو عقيرها ... فقليل إيجازى كثير المسهب

ويفهم من شعره أيضاً أنه لم يكن يميل إلى الإسراف فى البديع، وإنما كان يأخذ منه بقدر ويميل إلى التوسط فى استعماله، ويشير إلى ذلك فيقول واصفاً إحدى قصائده[3]:

رجحت بقسطاس البديع وإنها ... لخفيفة الأرواح والأجساد

ونرى فى شعر ابن حمديس بعض إشارات إلى قضية اللفظ والمعنى ورأيه فيها يتفق مع رأى عامة النقاد، فيرى أن المعنى أشبه بالروح، واللفظ أشبه بالجسد، ولا يمكن لأحدهما أن يكون بدون الآخر، ويشير إلى ذلك فيقول[4]:

روح معناك جسمه منك لفظ ... وعلى كل صورة يتصور

---

(١) ديوانه ص٥٠١.
(٢) المصدر نفسه ص٥٣٨.
(٣) المصدر نفسه ص١٤٨.
(٤) ديوانه ص٢٠٤.

ويكرر هذا الرأى فى موضع أخر فيقول إن المعنى لا يصلح إلا إذا صلح اللفظ، وليس لأحدهما فائدة بدون الآخر، ويشبه المعنى بالعين، واللفظ بالكحل، فالكحل لا يفتن الأبصار إلا إذا اكتحلت به العين، وبدونها لا تكون له قيمة أو فائدة، ويعبر عن ذلك بقوله[1]:

حرر لمعناك لفظا كى تزان به   وقل من الشعر سحرا أو فلا تقل
فالكحل لا يفتن الأبصار منظره   حتى يصير حشو الأعين النجل

ومثل هذه الآراء المتناثرة تدل على أن ابن حمديس قد أخذ نفسه بقدر لا بأس به من الثقافة النقدية، وعلى تأثره بالثقافة النقدية التى شاعت فى عصره.

التصوير فى شعره:

يهتم ابن حمديس بالتصوير فى شعره اهتماماً كبيراً، ولعله من أكثر الشعراء احتفاء بالصورة الشعرية، فقد بلغت على يديه حداً كبيراً من الجودة بما كان يوفره لها من عناصر التخييل والتجسيم.

وقد برع فى تمثله لمعانى القدماء وأشعارهم، وتميز بقدرته العجيبة على التوليد والابتكار، فكان يغوص على المعانى غوصاً بعيداً، ويحور فيها، ويولد منها صوراً جديدة، ويتصرف فى التشبيهات والاستعارات ويجد فى البحث عن كل ما هو مبتكر أو طريف وهذا هو ما عناه ابن بسام بقوله إنه "شاعر ماهر يقرطس أغراض المعانى البديعة، ويعبر عنها بالألفاظ النفيسة الرفيعة. ويتصرف فى التشبيه، ويغوص فى بحر الكلام على در المعنى الغريب"[2].

وليس المقصود "بالقرطسة" التى ذكرها ابن بسام أن يغير الشاعر على المعانى وينقلها نقلا حرفياً، ولكن المقصود بها هو قدر الشاعر على عرض المعنى فى ثوب جديد، وفى هيئة جديدة، وعرضه عرضا حسنا، ولا يحول ذلك دون

---

(١) ديوانه ص٤٠١.
(٢) الذخيرة ٤/٢/ ورقة ١١٥.

أن يكرر هذا المعنى فى عبارة أخرى، فهو تعبير موجز، مكرر تكراراً يؤكد المعنى ويزيده وضوحاً، فإذا أردنا مثالا لذلك وجدناه فى كيفية استغلال هذا الشاعر لقول البحترى:

وبى ظمأ لا يمسك الماء دفعه ... إلى نهلة من ريقها البارد العذب

فقد أحسن عرضه، ويسر تناوله، وبلور معانيه عندما قال:

بت منها مستعيداً قبلا ... كان لى منها على الدهر اقتراح
وأروى غلل الشوق بما ... لم يكن فى قدرة الماء القراح

وهذا ما يقصده ابن بسام بقرطسة المعانى[1].

ولم يكن ابن حمديس يدخر وسعا فى سبيل إتقان صنعته وتحسينها فكان يسخر لذلك كل إمكانات الصورة وعناصرها من ألوان وظلال وحركة وفى ذلك يقول مارتينو ماريو: "إن أشعار ابن حمديس لوحات لا يعتنى فيها الرسام بتبديل المواضيع قدر ما يعتنى بإتقان صنعته، وليس هذا الإتقان عنده الضبط فى مد خطوط الصور، بل تأثيره مبنى على اللون، وليس على الألوان الصارخة بل على التدرجات اللونية الخفيفة، ووراء اللوحة موسيقى دائمة الألحان، وفى طى الانطباعات البصرية والسمعية انطباعات رقيقة تلاطف باقى الحواس"[2].

وقد تلزمه دقة التصوير العناية بمواد أخرى، كمراعاة الزمان والمكان واللجوء إلى التفاصيل وذكر الجزئيات والإكثار من التشبيهات، وتفصيل المنظر الواحد وتجزئته على نحو ما يتمثل فى قوله يصف سيفا[3]:

وينجدنى على الحدثان عضب ... ـه من عارض المهجات صابا
كأن عليه نار القين تذكى ... فلولا ماء رونقه لذابا
كأن شعاع عين الشمس فيه ... وإن كان الفرند به ضبابا
كأن الدهر شيبه قديما ... فمازال النجيع له خضابا

---

(١) دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى ص٨٥.
(٢) المسلمون فى صقلية، مارتينو ماريو ص٤٧.
(٣) ديوانه ص١٦.

كأن ذبابه شادى صبوح يحرك، إن ضربت به رقابا

فقد استطاع ابن حمديس فى هذه الأبيات أن يجزىء صورة السيف، ويفصل فيها، ويرقص بنظره عبر أجزائها مستعيناً فى ذلك بعناصر اللون والحركة، معتمداً على تعدد التشبيهات، مع استخدام أداة تشبيه واحدة.

ومن الجوانب الطريفة التى يستعين بها ابن حمديس فى إتقان صنعته وتصويره، خاصية يمكن أن نسميها "تبادل الحواس" أو "تقارض الحواس"، ويقصد بها أن تأخذ حاسة ما وظيفة أخرى، كأن تسمع العين أو يلمس النظر أو يسمع الذوق أو ترى الأذن وهكذا[1].

ويقول الدكتور محمد مندور إن فكرة المزج بين وظائف الحواس والخلط بينها تجسدت ووضحت عند الرمزيين الذين لا يخصصون كل حاسة لما وجدت له، ولا يعطونها وظيفتها الطبيعة المعروفة، بل إنهم يستعملون تعابير تخلط بين الحواس فيقولون مثلا بأنهم يسمعون حوافر الخيل، أو بأنهم يرون صوت انسياب النور من المصباح[2].

ولعلنا لا نجد شاعرا توسع فى استعمال هذه الظاهرة على نحو ما فعل ابن حمديس، فنراه يكلف بها كلفا عجيباً ويكثر من استخدامها إكثاراً ملحوظاً فمن ذلك قوله يراسل بين النظر والسمع[3]:

وكل امرىء قد رأى سمعه ذهاباً من الأمم الماضية

ونراه يعطى العين وظيفة السمع كما فى قوله[4]:

كأن له فى أذنه مقلة يرى بها اليوم أشخاصا تمر به غدا

وقوله[5]:

---

(١) تطور الأدب الحديث فى مصر للدكتور أحمد هيكل ص٣٦٤.
(٢) فن الشعر للدكتور محمد مندور ص٦٤.
(٣) ديوانه ص٥٢٢.
(٤) نفسه ص١٤٤.
(٥) ديوانه ص٣٨٧.

كم سامع بالعين من آلامه قيلا بأفواه الدموع وقالا

وقوله[1]:

وصفت حسنك للسالى فجن به كأن للسمع منه رؤية البصر

ونراه يبادل بين السمع والذوق فيقول[2]:

تحدثنى بالسر فى ثنى ساعدى فيسمع نجوى السر من فمها فمى

ويبادل بين النظر واللمس فيقول[3]:

كأنى من البعد إذ شمته جسست بعرقى عرقا نبض

كما بادل بين السمع والشم فى قوله يصف خمارا[4]:

لا يسمع الأنف من نجوى تأرجها إلا دعاوى بين الطيب والزهر

شاعريته :

يعد ابن حمديس أعظم شعراء صقلية، وقد أثنى عليه النقاد وأصحاب التراجم، فقال عنه ابن سعيد إنه "أعظم شعراء صقلية"، وأحسنهم معانى، وأحقهم بالطبقة العالية، وقد وفد على المعتمد بن عباد، وتقدم له هنالك من الشعر ما يعنون على طبقته"[5].

وأفاض ابن فضل الله العمرى فى الإشادة به، والثناء عليه، فقال: "صباح لا تصدئه الغياهب وقراح لا تكدره الشوائب، وجواد لا تلزه السوابق، وسحاب لا تهزه البوارق، لا يتساقط غصنه المثمر، ولا يبهم جنح ليله القمر، طريقه قل من سلكها، وجل من بوأ قمره المنير فلكها"[6].

(١) نفسه ص٢٧٢.
(٢) نفسه ص٤٠٨.
(٣) المصدر نفسه ص٢٩٣.
(٤) المصدر السابق ص٢٠٥.
(٥) المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد "مخطوط" ٤/ورقة ٣٥٤.
(٦) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار – السفر السابع عشر "فى ذكر الشعراء المغاربة" – المكتبة الصقلية ص٦٥٣.

وقد عرفه صاحب كتاب (من أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك) بأنه "ذو الوزارتين"[1] وانفرد بهذا الخبر دون غيره، وفي ذلك ما يدل على ما حققه من منزلة وشهرة في بلاط المعتمد، وقد وصفه هذا المؤلف بأنه "كان أوحد دهره وفريده، لا يجارى في حلبة علم، ولا يمارى في ميدان حرب ولا سلم، ولا يمارى في نشر حكم، وكان ذكره بين الفضلاء والعلماء مشهورا كالعلم، وكان شاعراً مفلقاً مجيداً"[2].

وقد أشاد به أبو الصلت في الحديقة فقال: "كان ابن حمديس جيد السبك حسن الأخذ"[3] ولكنه وقف طويلا عندما ظن أنه سرقات زاد فيها على المسروق، وتدل الأبيات التي أوردها على أنه لم يكن ينقل عن غيره نقلا حرفياً وإنما كان يعيد صياغة بعض المعاني صياغة قديمة على نحو ما أشرنا من قبل وهذا من حقه هو وغيره من الشعراء إذ يتعاورون موضوعات ومعاني مشتركة، فلا بأس أن يفيد كل منهم من سابقيه، وأن يحتذي في بعض شعره على مثال موروث، مادام يحسن عرضه، ومادام يخرج عن القالب القديم إلى قالب له جديد، إذ تصبح المعاني كالعملة تتفق في المعدن، وتختلف في طريقة الضرب وهيئة الصور بين بلد وبلد، وقطر وقطر[4].

وكان ابن حمديس يحتل مكانة طيبة في نفوس معاصريه من الشعراء، ووجد من بينهم من تأثر به وحاول أن ينسج على منواله، وقد أشار ابن حمديس نفسه إلى ذلك، وضرب مثلا بالشاعر الأندلسي أبي تمام غالب ابن

---

(١) كتاب "من أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك في طبقات الشعراء المتقدمين من الجاهلية" للملك المنصور صاحب حماة – المكتبة الصقلية ص٦١٢.

(٢) المكتبة الصقلية ص٦١٢.

(٣) خريدة القصر ١٩٦/٢ "ط. تونس".

(٤) د. شوقي ضيف – ابن زيدون – ص٣٩.

رباح، الغالب على اسمه الحجام، فقال إنه كان يغير عليَّ في المعاني وينتزعها مني[1].

ونجد شاعرا آخر مثل رفيع الدولة بن المعتصم يتأثر به، ويحاول ان يحتذيه في بعض قصائده من مثل قوله[2]:

باكر إلى القصف أبا عامر	فإنما نجح الفتى في البكر
من قبل أن يمسح كف الصبا	دمع الغوادي في خدود الزهر

وواضح انه متأثر بقول ابن حمديس:

باكر إلى اللذات واركب لها	سوابق اللهو ذوات المراح
من قبل أن ترشف شمس الضحى	ريق الغوادي من ثغور الأقاح

وإذا كان هذا هو ابن حمديس في نظر القدماء فما هي نظرة المحدثين إليه؟ إن ما كتب عن ابن حمديس قليل لا يروي ظمأ الدارسين، ولا يتلاءم مع قدره ومنزلته، وإن كان هذا لا يمنع من القول بأنه يحتل مكانة مرموقة في نظر الباحثين القلائل الذين كتبوا عنه، فقد عده عبدالمنعم خفاجة من أعلام الشعراء العرب، وذهب إلى أنه قد سبقهم إلى "الواقعية" بمعناها العلمي الحديث، لأنه يكثر في قصائده من الحديث عما يجول بالنفوس، وما كان يشعر به من آلام الحياة وأحداثها، وما كان يعتريه من حيرة وشك، وسخط على الحياة حينا، ومن أمل وتفاؤل وثقة بها حينا آخر. كل ذلك مع البراعة في التعبير ومع تمثيل حركات نفسه وعقله، ومع اجتماع قوة الفكر وسعة الخيال في قصائده، فهو شاعر وجداني مفكر، في طليعة الشعراء المفكرين من العرب[3].

وقد سبقه إلى هذا الرأي الدكتور أحمد ضيف فقال "وقد يكون ابن حمديس من أكبر شعراء العرب وأفضلهم، لأن لشعره صبغة خاصة ليست معروفة كثيرا في الشعر العربي، تلك الصبغة هي محاولة الخروج من

---

(١) ديوان ابن حمديس ص١٦٩.
(٢) الحلة السيراء لابن الآبار ٢/٩٥.
(٣) قصة الأدب في الأندلس ص٣٥٩.

الوجدانيات التى هى أكبر مظاهر الشعر العربى إلى الكلام عما يجول بالنفوس لا من جهة الخيال وما به من الجمال لاغير. بل من جهة التفكير أيضاً وما يمر بنفس الإنسان وما يشعر ويحس من حوادث الحياة وأشكالها"[1].

ويميل المصراتى إلى مثل هذا الرأى فيقول إن ابن حمديس "لم يكن من شعراء الحواس المطرزة والصور اللفظية المنمقة. ولم يكن مجرد وزان ومقفى تفعيلات يقتطع الأوزان ويتصنع التفاعيل. فهو من الذين رسموا للشعر العربى طريقا سهلا، وطوروا الصور النفسية فيه"[2].

وليس فى هذه الآراء شىء من المبالغة أو تجاوز الحقيقة بل لعلنا لا نسرف فى القول إذا ظننا أنها أقل بكثير من منزلة ابن حمديس ومكانته الحقيقية، فقد كان هذا الشاعر طرازا فريدا من الشعراء فى حبه لوطنه وولائه له، وفى خروجه بشعره إلى آفاق إنسانية رحبة، وفى عنايته بفنه وإتقانه لصنعته وإذا أردنا أن نحكم على شاعريته فلن نجد ما هو أكثر صحة وصدقا من قول ابن حمديس نفسه[3]:

كم من قواف كالشوارد صرتها	عن مثل جرجرة الفنيق المصعب
ودقائق بالفكر قد نظمتها	ولو انهن لآلى لم تثقب
لو أننا طير لقيل لخيرنا	غرد وقيل لشرنا لا تنعب
وإذا اعتقدت العدل ثم وزنتنى	رجحت حصاتى فى القريض بكبكب

(١) بلاغة العرب فى الأندلس ص١٣٣.

(٢) ابن حمديس الصقلى لعلى مصطفى المصراتى ص٥٨.

(٣) ديوان ابن حمديس ص٥٣٨- ٥٣٩.

أبو الحسن بن الخياط

ولد أبو الحسن على بن محمد بن الخياط الربعى فى جزيرة صقلية فى أواخر القرن الرابع الهجرى وعاش حتى شهد أحداث الفتنة الأخيرة التى انتهت بسقوط صقلية. ويرجح أمبرتو ريزيتانو أنه انتقل إلى القيروان بعد الفتنة[1] ولكننا نفتقر إلى ما يؤيد هذا الرأى إذ أن المصادر ضنت علينا بما يمكن أن يكشف النقاب عن حياته، ولولا تلك الصداقة التى كانت بينه وأبى الطاهر التجيبى البرقى صاحب شرح المختار من شعر بشار، والتى جعلته يحتفظ له فى كتابه بقدر لا بأس به من شعره، لأصبح هذا الشاعر فى زوايا النسيان مثل كثير من الشعراء الصقليين الذين تجاهلتهم المصادر.

وقد عاش ابن الخياط فى العاصمة بلرم، وتزود بالثقافة العربية كغيره من الشعراء، فدرس اللغة والأدب على شيوخ عصره، وحفظ أشعار الأولين، وبعد أن استوى عوده، ونضجت قريحته، اتصل بالأمراء الكلبيين، فمدحهم، وأخلص لهم، وكان عندهم عالى القدر، نابه الذكر. وظل على ولائه لهم حتى أسقطتهم الفتنة، فانضم إلى بلاط الأمير ابن الثمنة أمير بلرم، ومدحه وعاش فى كنفه.

وإذا كان ابن حمديس قد مثل صقلية فى نكبتها، فان ابن الخياط استطاع أن يمثلها فى عظمتها أيام حكم أسرة الكلبيين الذين ازدهرت فى عهدهم الفنون والآداب، وتحققت على يديهم كثير من الفتوحات.

وقد اتصل ابن الخياط بعدد كبير من هؤلاء الأمراء، فمدح أولا ثقة الدولة ثم مدح أربعة من أبنائه هم: الأمير جعفر الملقب بتاج الدولة وسيف الملة، ثم الأكحل الملقب بتأييد الدولة وقد تولى هذان الأميران حكم صقلية بعد

---

(1) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٨٩.

أبيهما، ثم مدح اثنين آخرين من أبناء ثقة الدولة هما الأمير على، والحسن الملقب بصمصام الدولة، ونستدل مما أورده التجيبى من شعره على أنه مدح أمراء آخرين من أسرة بنى كلب مثل الأمير مستخلص الدولة، وابنه انتصار الدولة، وغيرهما ممن أغفلتهم مصادر التاريخ والأدب.

وقد سجل ابن الخياط فى مدائحه للأمراء الكلبيين بعض الحوادث التاريخية، وأشار إشارات عابرة إلى معارك وفتن لم توافنا المصادر بتفاصيلها، من أجل هذا نعتبر مقطعات ابن الخياط الشعرية من أهم المصادر التى تزودنا بأخبار تتعلق بهؤلاء الأمراء والولاة[1].

شعره وشاعريته:

يعد ابن الخياط من أبرز شعراء صقلية، وقد أشاد به ابن القطاع فى الدرة فوصفه بأنه "شاعر فصيح اللسان، مشهور بالإحسان، وحدة الجنان وجودة البيان، ماهر فى اللغة والأدب حافظ لأشعار الأولين، وكان يشبه فى عصره بجرير فى دهره"[2].

وتدل أشعاره التى ذكرها التجيبى على أنه كان يسلك سبيل غيره من الشعراء الصقليين، ويحذو حذوهم فى موضوعاتهم وأساليبهم، فقد تغزل ووصف الخمر وهام بالطبيعة ولكنه قد يتميز عنهم بالإكثار من شعر الحكمة مما جعل د. إحسان عباس يرى أنه شاعر ذو مذهب فى تأمل الحياة[3]. ولكن ما لدينا من حكمه لا يجعلنا نرى مثل هذا الرأى، فهى حكم سطحية ليس فيها تعمق أو تفلسف، وأكثرها يحمل طابع النصائح والمواعظ والدعوة إلى القناعة ونبذ الطمع والرضا بما قسمه الله على نحو ما يتمثل فى قوله[4]:

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٨٨ - ٨٩.

(٢) عنوان الأريب ١٣٢/١.

(٣) العرب فى صقلية ص٢١٦.

(٤) شرح المختار من شعر بشار ص١٩٨.

ومـــا طمـــع الإنـــسان إلا مذلـــة ومـن قنع استغنى وإن لم ينل وفرا

ونـراه يكثـر مـن الحـديث عن الصداقة والأخوة وحسن الجوار من مثل قوله[1]:

لا يـــنفع الجـــيران أن يـــتجاوروا مـــالم يكـــن بـــين القلـــوب جـــوار

ويقول فى المعنى نفسه[2]:

مـن لم تـدانك مـن قلـب مـودته لم يدنـه مـنك قـرب الـدار بالـدار

ويأتى الغزل فى المرتبة الثانية من شعر ابن الخياط، ولعل أهم ما يلفت نظرنا فيه أنـه يمتـزج بالطبيعة امتـزاجا قويا بحيث يصعب التمييز بينهما، فالمـرأة عـنده روضـة غـناء يمتـزج فيها الخد بالورد، والثغر بالأقحوان، ويتألق الـسوسن الغـض ناعمـا خضلا على جيدها، ويكاد ماء النعيم يقطر من محياها. ونستطيع أن نلمس هذه المعانى فى مثل قوله[3]:

لا شـــــيء إلا لحـــــظ أمـــــتعه فـــى روضـــة مـــنعت مـــن القطـــر
حـــيث بـــدا الـــورد والـــبهار علـــى خـــدك والأقحـــوان فـــى الثغـــر
والـــسوسن الغـــض ناعمـــا خـــضلا علـــى مـــناط الـــسلوك فـــى النحـــر
يكـــاد مـــاء النعـــيم يقطـــر مـــن ســـنة وجـــه كـــسنة الـــبدر

ويبدو هذا المزج بين الغزل والطبيعة فى مثل قوله أيضاً[4]:

لمـن قـضيب مـن الـريحان أملـود أم ضـل حلمـك ذاك الأهيف الـرود
والزهر فـى الغصن حلى فى سوالفه فقـد تـشابهت الأغـصان والغـيد
وحـــار لبـــى لـــولا أن تداركنـــى مـــا أنبأتنـــى بـــه اللـــبات والجـــيد
لا يعجبـــنك عقـــد دون لابـــسه فإنمـا الحـسن حـيث العقـد معقـود

ومـن المعانـى التـى يديـرها كثيراً فى غزله وصف حديث المرأة وسحره وجماله ورقته، فمن ذلك قوله[1]:

---

(١) المصدر نفسه ص٢١١.
(٢) شرح المختار من شعر بشار ص٢١١.
(٣) شرح المختار من شعر بشار ص٣٥ – ٣٦.
(٤) المصدر نفسه ص٧٥.

مــا ضــر مــن قــته حديــثك أن يحــرم قـوتا بقــية العمــر

ويشبهه بخمر الرضاب فيقول[2]:

نـبذ مــن حـديث مــن تـشتهيه نائـبات عــن لــذة الرشــفان

ويشبهه بالفاكهة فيقول[3]:

حديــثه فاكهـــة رطـــبة وخــده روض وعيــناه خمــر

مــا جمــع الله فــنون الهــوى بالحــسن فــى وجهــك إلا لأمــر

وقد تركت البيئة الأعجمية أثرها فى غزل ابن الخياط على نحو ما يبدو فى قوله يتغزل فى غلمان نصارى[4]:

كــأن علــى لــباتهم وخــدودهم وذائــل ملــسا مــن لجــين وعــسجد

ترى كبرياء الحسن فى لحظاتهم يــشاب بــرهبانية المتعــبد

إذا قــبلوا صــلبانهم رشــفت بهــم حــصى بــرد فــيه مجاجــة صــرخد

ويدل غزله على لون من الحياة اللاهية التى كان يعيشها فى صقلية فنراه يتحدث عن بعض مغامراته مع النساء، ونراه يصف نفسه بأنه يتخذ من النسك وسيلة لإيقاع المرأة فى حبائله كما يبدو فى قوله[5]:

نـسك نـصبت بـه حـبالة مطعـم مــتعود قــنص الغــزال الأكحــل

ونلمس مثل هذا الجانب اللاهى من حياته فى مثل قوله مصورا إحدى طرقه فى اصطياد الغلمان[6]:

رب جلــيس لى فــيه وطــر يفهمـــه عنـــى بكــر النظــر

ســاورته بــاللحظ فــى مجلــس يــرقبنا الــسمع بــه والبــصر

فلــم نقــم إلا علــى مــوعد والــناس عــنا فــى أمــور أخــر

---

(1) شرح المختار من شعر بشار ص٣٦.

(2) شرح المختار من شعر بشار ص٣٥.

(3) المصدر نفسه ص٤١.

(4) المصدر نفسه ص٢٣٧.

(5) عنوان الأريب ١٣٣/١.

(6) شرح المختار من شعر بشار ص٦٣.

ونلمح فى شعره بعض الصور الطريفة المستمدة من واقع حياته مثل هذه الأبيات التى يشكو فيها من عبده الذى يسبب له الشقاء، ويفعل خلاف ما يؤمر به، فإذا أمره بفعل شىء تصور انه ينهاه عن فعله، وإذا نهاه تصور أنه يأمره، يقول ابن الخياط[1]:

لى عبد سوء وعبد السوء منكدة ... والمسترق بعبد السوء مولاه
كأننى كلما أنهاه آمره ... وحين آمره بالشىء أنهاه
قالوا سعادة فأل من سعادته ... كأنهم جهلوا اسما ضد معناه
إن الغراب أبو البيضاء كنيته ... فانظر بأى سواد خصه الله

ومن خلال هذه النماذج التى ذكرناها، وفى غيرها مما يحتفظ به التجيبى نستطيع أن نخرج بفكرة واضحة عن شخصية ابن الخياط، فهو شاعر اتصل بالأمراء والملوك، ومدحهم، وعاش حياته كغيره من الشعراء الصقليين، فاختلط بالناس، وهام بالطبيعة، وأحب المرأة، وعشق الخمر، وفتن بالغلمان النصارى، ولكنه تطرف إلى حد ما فى لهوه وعبثه، فلم ير يأساً من أن يتخذ من المسجد بستان تلهية، أو مكانا لمطارحة الغرام ولقاء المحبوب[2].

(١) المصدر نفسه ص٧٧.
(٢) انظر شرح المختار من شعر بشار ص٣٦.

أبو عبدالله بن الطوبى

هو أبو عبدالله محمد بن الحسن بن الطوبى. ولد بصقلية وأقام بها. وتزود فى صباه من مناهل العلم، فدرس اللغة والأدب. وتبحر فى العلوم الطبيعية، وبرع فيها جميعا حتى صار طبيباً مترسلاً شاعراً، والتحق بديوان الرسائل والإنشاء، وظل يتدرج فى المناصب حتى صار صاحب هذا الديوان فى عهد الكلبيين[1].

وقد ترجم له القفطى فوصفه بأنه "نحوى، أربى فى النحو على نفطويه، وفى الطب على ابن ماسويه. جامع للفضائل، عالم بالرسائل. وكلامه فى نهاية الفصاحة، وشعره فى غاية الملاحة. وله مقامات تزرى بمقامات البديع، وإخوانيات كأنها زهر الربيع، مع خط كالطرز المعلمة، والبرود المثمنة. وكان الشعر طوع عنانه، وخديم جنانه"[2].

وذكره ابن القطاع فى الدرة، وأورد من نظمه كل مليح الحوك، صحيح السبك[3]، ومدحه بقوله[4]:

أيها الأستاذ فى الطـ	ـب وإعراب الكلام
لك فى النحو قياس	لا يساميه مسام
ثم فى الطب علاج	دافع الداء العقام
أنت فى النثر البديهـ	ـى وفى النظم السلامى[5]
فاضل الآباء والنفـ	ـس عظامى عصامى

(1) إنباه الرواة على أنباء النحاة ٣/١٠٨.

(2) المصدر نفسه ٣/١٠٧.

(3) الخريدة ٤/١/٥٦.

(4) إنباه الرواة ٣/١٠٧.

(5) البديهى : هو أبو الحسن على بن محمد البديهى، ذكره الثعالبى فى اليتيمة (٣: ٣٠٩) والسلامى هو أبو الحسن محمد بن عبدالله السلامى قال الثعالبى فى اليتيمة (٢: ٣٦٤): "من أشهر اهل العراق قولا على الإطلاق، وشهادة بالاستحقاق". أنظر هامش إنباه الرواة جـ٣ ص١٠٧.

وذكر القفطى أنه كان موجوداً سنة ٤٥٠هـ بصقلية، وأنه عاش بعد ذلك مدة[1].

شعره :

لعل أهم ما يميز ابن الطوبى عن غيره من الشعراء الصقليين شيوع روح السخرية والفكاهة فى شعره، وقدرته البارعة على إظهار عيوب خصومه ومهجويه وإبرازها فى صور ساخرة. وتشيع هذه الظاهرة فى شعره شيوعاً واسعاً، فنراه يسخر من البخلاء، والمنجمين، وأصحاب اللحى الكبيرة والخلق الدميمة، والأصوات القبيحة، ويفتن فى ذلك افتنانا يدل على مهارته وإجادته لهذا النوع من الهجاء الساخر. فمن ذلك قوله يهجو إنسانا ذا لحية كبيرة[2]:

لحية حمدون دثار له ... تكنه من شدة البرد
كأنها إذ غاب فى وسطها ... قطيفة لفت على قرد

ويرسم صورة ساخرة للحية أخرى فيقول[3]:

ما إن رأيت ولا سمعت بلحية ... عرضت كلحية جعفر بن محمد
سدت عليه وجهه فكأنما ... عيناه فى ثقبى كساء أسود

ونراه يسخر سخرية لاذعة من البخلاء، فيصف بخلهم، وتبرمهم من زيارة الناس، وجزعهم من أن يبادرهم أحد بالسؤال أو بطلب شىء، فمن ذلك قوله يصف بخيلاً[4]:

تبرم إذ دخلت عليه لكن ... فطنت فقلت فى عرض المقال
علىّ اليوم نذر من صيام ... فأشرق لونه مثل الهلال

وأكثر ابن الطوبى من ذم المغنين، وهجاهم هجاء ساخرا، وله فيهم مقطعات هزلية كثيرة يصف فيها قبح أصواتهم، ودمامة خلقتهم، وسماجة أخلاقهم، وعدم إجادتهم الغناء والعزف. فمن ذلك قوله[5]:

---

(١) إنباه الرواة ٣/ ١٠٨.
(٢) الخريدة ٤ / ١ / ٦٣.
(٣) الخريدة ٦١/١/٤.
(٤) المصدر نفسه ص٧١.
(٥) المصدر نفسه ص٦٩.

غنى كمن قد صاح فى خابيه | لا وهب الله له العافية
ما أحد يسمعه مرة | فيشتهى يسمعه ثانية

ويقول فى مغن آخر[1]:

لنا مغن غناه | يعود شرا عليه
لم يأت منزل قوم | فعاد قط إليه

ومما يلفت نظرنا فى شعره أيضاً الإكثار من الغزل بالغلمان، ووصف محاسنهم ومفاتنهم، وله مقطوعات كثيرة فى العذار، فيشبهه بالمسك تارة، وبالآس تارة أخرى، والبنفسج النابت فى صحيفة من نضار، وبلام المسك خطت على جلنار وما شابه ذلك من تشبيهات تدل على كلفه بالعذار وافتتانه به، فمن ذلك قوله[2]:

لما رأيت عذاراً | له خلعت عذارى
وبان للناس عذرى | فما أخاف اشتهارى
كأنه لام مسك | خطت على جلنار
أو البنفسج فى الورد | خضرة فى احمرار

وتتردد فى غزله بالمذكر أسماء مسيحية، فمن ذلك قوله فى صبى نصرانى من نصارى الفرنج واسمه نسطاس[3]:

أقول وقد مر نسطاس بى | وقلبى فيه عذاب أليم
وقد عاش كالبان فوق الكثيب | وأقبل يرنو بألحاظ ريم
لئن كان فى النار هذا غداً | فإنى أحب دخول الجحيم

ولقد وقف ابن الطوبى وقفات طويلة أمام "الشيب" الذى كان يمثل له مشكلة كبيرة، وله فيه مقطوعات كثيرة تنفر منه، وتذمه، وتعبر عن ضيق الشاعر به وسخطه عليه، فمن ذلك قوله[4]:

---

(١) خريدة القصر ٤ / ١ / ٦٩ - ٧٠.
(٢) المصدر نفسه ص٧٠.
(٣) إنباه الرواة على أنباه النحاة ٣ / ١٠٨.
(٤) خريدة القصر ٤ / ١ / ٦٤.

صبغ المشيب بلبيه ... على الفتى ورزيه
حصلت منه على أن ... أضحكت منى البرية

ويقول في عذر الخضاب[1]:

ما خضبت المشيب للغانيات ... لا، ولكن سترته عن عداتى
حذراً أن يروا مشيبى فيبدو ... لى منهم سرورهم بوفاتى

ويبدو أن اشتغال ابن الطوبى بالسياسة واتصاله بالحكام والناس قد جر عليه كثيراً من المتاعب، فكره هذا الجو الملىء بالدسائس والفتن وآثر أن يعتزل الناس وينقطع عنهم ويريح نفسه من شرورهم وآثامهم وقد عبر عن ذلك فقال[2]:

يا لائمى فى انتزاعى ... عن الورى وانقطاعى
لا أستطيع على أن ... أكون بين الأفاعى

أما من الناحية الفنية، فقد مال أسلوب ابن الطوبى إلى البساطة والسهولة، واقترب من لغة الحياة العادية ولعل هذا من آثار اشتغاله بالكتابة، ولذلك تكثر فى شعره العبارات والتراكيب النثرية أو المستمدة من لغة العامة مثل قوله "لا وهب الله له العافية"، وقوله: "ضربه يوجب ضربه" وقوله: "قلت اقتراحى لو سكتا" ولكنه كان قصير النفس يميل إلى المقطوعات القصيرة ويكره التطويل، وفى هذا ما يلقى بعض الضوء على شخصيته وشعره، "فالشعر فى يده خواطر عابرة أو ألهية يتسلى بها ولا يعتمدها. فليست فى شعره مكانية واضحة، ولا حياة سياسية معينة، وإنما هو سريع اللمح للمعانى دائم الرصد لها، فإذا استوفى المعنى فى بيتين أو ثلاثة فذلك حسبه، يحب ويدير المقطوعة على نكتة أو لمحة"[3].

---

(١) المصدر نفسه ٤ / ١ / ٦٢.
(٢) المصدر نفسه ص٦١.
(٣) العرب فى صقلية ص٢٠٧.

أبو العرب الصقلي

هو مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي المعروف بأبي العرب الصقلي[1] ولد في مدينة بلرم عاصمة صقلية سنة ٤٢٣هـ، وأخذ العلم عن شيوخها وعلمائها، وتتلمذ بصفة خاصة على ابن البر اللغوي، فدرس عليه مقدمة ابن بابشاذ في النحو، وقرأ عليه ديوان المتنبي الذي كان يدرسه في صقلية، وسمع عليه كتاب "أدب الكتاب" لابن قتيبة، ودرسه في الأندلس حين ارتحل إليها بعد سقوط وطنه، وكان ممن أخذه عنه ابو علي بن عريب الطليطلي[2].

وتفتحت موهبة أبي العرب الشعرية مبكرة، وأمدته طبيعة صقلية الجميلة بالوحي والإلهام، فأصبح من شعراء صقلية المرموقين، وسار ذكره في الآفاق، حتى رغب المعتمد بن عباد في انتقاله إليه ويقول ابن خلكان إن المعتمد بعث إليه خمسمائة دينار وأمره أن يتجهز بها ويتوجه إليه وبعث مثلها إلى أبي الحسن الحصري وهو بالقيروان فكتب إليه أبو العرب[3]:

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى ... وأعجب لأسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا تجري السفين به ... إلا على غرر والبر للعرب

وكتب له الحصري:

أمرتني بركوب البحر أقطعه ... غيري لك الخير فاخصصه بذا الداء

ما أنت نوح فتنجيني سفينته ... ولا المسيح أنا أمشي على الماء

---

(١) راجع ترجمته في عنوان الأريب جـ١ ص١٢٣ – ١٢٤، والخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس جـ٢ ص٢٢٢، ومخطوط الذخيرة ق٤ م٢ ورقة ١١١، والمغرب لابن سعيد جـ٤ مخطوط، ورايات المبرزين ص١٤٨، ١٤٩، وبدائع البدائه لابن ظافر ص٢١٢، ومسالك الأبصار للعمري – المكتبة الصقلية ص٦٠٥ – ٦٠٦، والتكملة لابن الأبار ص٣٨٦، ووفيات الأعيان جـ٣ ص٢٠ – ٢١ "ترجمة أبي الحسن الحصري".

(٢) التكملة لكتاب الصلة لابن البار ص٣٨٦.

(٣) وفيات الأعيان ٣/ ٢٠ – ٢١.

ولكن أبا العرب لم يستطع البقاء فى صقلية بعد أن تغلب الروم عليها، فشد الرحال إلى إشبيلية عاصمة المعتمد، وكانت دعوته قد أحدثت صدى عميقاً فى نفسه، فأخذ يمنى نفسه بالمجد والشهرة الأدبية فى بلاطه، وشغلته أحلامه عن التفكير فى وطنه، وقد عبر عن هذه المشاعر فى قصيدة ودع بها صقلية قال فيها[1]:

إلام اتباعى للأمانى الكواذب	وهذا طريق المجد بادى المذاهب
أهم ولى عزمان: عزم مشرق	وآخر يغرى همتى بالمغارب
ولابد لى أن أسأل العيس حاجة	تشق على أخفافها والغوارب
علىّ لآمال اضطراب مؤمل	ولكن على الأقدار نجح المطالب
فيا نفس لا تستصحبى الهون إنه	وإن خدعت أسبابه شر صاحب
ويا وطنى إن بنت عنى فإننى	سأوطن أوكار العتاق النجائب
إذا كان أصلى من تراب فكلها	بلادى وكل العالمين أقاربى
وما ضاق عنى فى البسيطة جانب	وإن حل إلا اعتضت منه بجانب
إذا كنت ذا هم فكن ذا عزيمة	فما غائب نال النجاح بغائب

وفى الأندلس، أحسن المعتمد وفادته، وحظى بصلاته، وطاب له العيش فى كنفه، وقد أشار إلى تحسن أحواله هناك فقال[2]:

نجوت فعمرى مستجد وإنما	نجاة الفتى بعد المخافة مولد
وأحسنت الأيام حتى كأنما	تنافس فى الإحسان يومى والغد

ويبدو أن أبا العرب كان يحظى بمكانة طيبة فى بلاط المعتمد، ويروى ابن بسام أنه حضر يوما مجلس المعتمد وقد أدخل إليه جملة وافرة من دنانير الفضة، فأمر بخريطتين منها وبين يديه تصاوير عنبر من جملتها صورة جمل مرصع بنفيس الجوهر، فقال له أبو العرب على البديهة معرضا: "ما يحمل هذه

(1) الخريدة ٢/ ٢٢٢ وما بعدها "ط. تونس".
(2) الخريدة ٢ / ٢٢٢.

الدنانير — أيدك الله — إلا جمل" فتبسم المعتمد وأمر له به فقال أبو العرب على البديهة:

أهديتني جملا جونا شفعت به	حملا من الفضة البيضاء لو حملا
يناخ جودك في إعطاء مكرمة	لاقدر يعرف من منع ولا عقلا
فأعجب لشأني فشأني كله عجب	رفهتني فحملت الحمل والجملا

فطارت يومئذ بهذا الخبر الركائب وتهادته المشارق والمغارب[1]. وقد ظل أبو العرب في بلاط المعتمد إلى أن أسر ونفى إلى أغمات، فترك أشبيلية وسار إلى ناصر الدولة صاحب ميورقة ولم تهتم المصادر بتلك الفترة من حياته وكل ما نعلمه أنه ظل بها حتى توفى سنة ٥٠٦هـ على الأرجح[2]. وقد أورد السلفى كلاما سمعه عن أحد الرواة وكان مما قاله إنه رأى أبا العرب الصقلى بجزيرة ميورقة وآخرين من الشعراء[3].

شعره ومنزلته الشعرية :

حظى أبو العرب بشهرة واسعة فى صقلية وخارجها، وقد أفاض النقاد فى مدحه والثناء عليه فوصفه ابن سعيد صاحب المغرب بأنه "شاعر دهره، وواحد عصره"[4] وقال عنه ابن بسام: "كان لسانا بهذا الأفق عن العرب أعرب، وكوكبا من المشرق غرب"[5] وأطنب فى الثناء عليه شهاب الدين العمرى صاحب مسالك الأبصار فقال عنه[6]: "أجاد فن النظم، وسكن من جامحه ما تشعب، وحيى من فايحه ما سقى الحيا ورد خده فتشرب، تسمى فى هذا الفن بكل أسمائه، وأبرز أنواره سافرة من ظلمائه، وكان عاطلا حتى حلاه، وباطلا حتى حلاه، وشكا حتى طلع فجره المشرق، ووهماً حتى وضح صبحه فى ضمير

(١) الذخيرة ٤/١/ ص١١٠.
(٢) التكملة ص٣٨٦.
(٣) معجم السلفى (مخطوط) ص٢١٣.
(٤) المغرب فى حلى المغرب جـ٤ (مخطوط) ص٣٥٣.
(٥) مخطوط الذخيرة ٤/٢/١٠٩.
(٦) مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار. السفر السابع عشر. المكتبة الصقلية ص٦٥٥ – ٦٥٦.

المشرق، وسلك منه طريقه كان يعرف بحسنها، ويأمر قومه الشعراء أن يأخذوا بأحسنها".

ولم تقف شهرته عند حدود صقلية أو الأندلس فحسب، ولكنها امتدت إلى المشرق أيضاً، فأعجب به السلفي، وذكر أنه علق شيئاً من شعره من صاحب له يدعى أبا مروان الوليد بن إسماعيل الغافقي التقى به في الثغر، وحدثه عن أبي العرب وكان مما علقه السلفي من شعره قوله[1]:

وكم سهم بغى لم أخف أن يصيبني — أصبت به ممن رماني به النحر
ولم يعدني حفظ الإله ولطفه — وليدا وكهلا، لو وفى بهما الشكر

وقد ترك أبو العرب ديوان شعر[2] ولكنه ضاع فيما ضاع من شعر الصقليين، ولم يبق منه إلا بعض قصائد وأبيات قليلة متناثرة في مصادر الأدب وأغلبها مما قاله في الأندلس في مدح المعتمد وهي على قلتها ترسم لأبي العرب حدود شخصية واضحة، شخصية الشاعر الجاد الذي تسيطر عليه الفخامة والقوة"[3].

ويدل ما بقي له من شعر على أنه برع براعة كبيرة في وصف الخمر، فأطال الوقوف عندها كثيراً لدرجة أن مدائحه كانت تبدأ غالباً بوصفها، ويكثر من ترديد المعاني التي رددها الشعراء الصقليون، وخاصة فكرة الشبكة والحبب من مثل قوله[4]:

بكر حصان إذا ما الماء واقعها — أبدت لنا زبدا في سورة الغضب
كادت تطير نفارا حين نافسها — لولا الشباك التي صيغت من الحبب

وكان أبو العرب — كغيره من شعراء صقلية — لا يرى في الخمر مجرد شيء يصفه أو غرضا يحرص على أن يطرقه ليثبت فيه جدارته ومهارته الفنية

(١) معجم السلفي "مخطوط" ص٤٥٠.

(٢) أشار إلى ذلك حاجي خليفة في كتابه "كشف الظنون"، المكتبة الصقلية ص٧٠٢، وأشار إليه الصفدي في "الوافي بالوفيات".

(٣) العرب في صقلية ص٢٣١.

(٤) الخريدة – قسم شعراء الأندلس ص٢٢٠ ط. تونس.

ولكنه كان يعشقها ويؤمن بها ويرى فيها لذة أى لذة. ولم يكن يضايقه — وهو بعيد عن وطنه — شيء إلا الإحساس بالغربة، وافتقاد لذة الخمر. ويعبر عن ذلك بقوله[1]:

برمت باثنين ضاق الصدر بينهما　　فقر المدامة واستيحاش مغترب
وكل نعم وإن حل الجميع به　　فقر إذا لم تكن فيه ابنة العنب

ولعل مما زاد من كلفه بالخمر، وهيامه بها، أنه كان يرى فيها عونا على نسيان همومه، تلك الهموم التى تلازم الغريب فى ديار الغربة[2]:

والهم للنفس شيطان يوسوسها　　فاقذفه من أنجم الصهباء بالشهب

ويبدو أن أبا العرب — بعد أن طال به التغرب، واستحصدت تجاربه — شعر أنه أخطأ فى حق وطنه، وأن كل ما حققه من شهره لم ينسه وطنه وأهله، فقويت نزعة الحنين فى نفسه، وأخذ يحلم بالعودة إلى وطنه مرة أخرى. ويعبر عن ذلك فيقول[3]:

وهل فى ضمير الدهر للقرب عودة　　فتغنى كما كنا أم الصبر أعود
ليالى ترضينا الليالى كأنها　　إلينا بإهداء المنى تتردد

ولكن الدهر لم يحقق له هذه الأمنية، وتقدم به العمر، فودع حياة اللهو ومال إلى الزهد، وقوى الشعور الدينى فى نفسه فأصبح يرى نفسه غضوبا لدين الله فى كل مكان يهاجرإليه. ويعبر عن هذه المعانى فيقول[4]:

عرفت فودعت الصبا والغوانيا　　وقلت لداعى الحلم لبيك داعيا
فما يزدهينى دل كل غريرة　　تزين للكهل الحليم التصابيا
ولكن قصرت للعين عن كل منظر　　فما أرسلت لحظا على القلب جانيا
غضوب لدين الله فى كل موطن　　يعاف الرضى حتى يرى الدين راضيا

---

(1) مخطوط الذخيرة لابن بسام ٤/ ٢ / ١١٠ — ١١١.
(2) الخريدة ٢ / ٢٢١ وما بعدها.
(3) الخريدة ٢ / ٢٢٢.
(4) المصدر نفسه ٢ / ٢٢٢.

ابن القطاع الصقلى

هو أبو القاسم على بن جعفر بن على الشنتريني السعدى المعروف بابن القطاع الصقلى. ولد بصقلية سنة ٤٣٣هـ، ونشأ فى بيت علم وأدب، فكان جده (على بن محمد) ينظم الشعر، وكان أبوه إماماً فى اللغة، وشاعراً بليغاً، وله مصنفات فى اللغة، والعروض، وقد أورد القفطى شيئاً من نظمه[1].

وتلقى ابن القطاع علومه على علماء صقلية وفضلائها كابن البر اللغوى وأمثاله، فقرأ عليه الأدب، وروى عنه الصحاح للجوهرى[2]، وأجاد فى النحو غاية الإجادة، ونظم الشعر سنة ٤٤٦هـ وهو فى سن الحداثة[3]. وتصدر للعلم والإفادة بصقلية، وصنف التصانيف الجميلة، واندمج فى الحياة الأدبية هناك واتصل بأدبائها وشعرائها وارتبط معهم بصداقات قوية مكنته من أن يؤلف كتابه الشهير: "الدرة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة" وترجم فيه لمائة وسبعين شاعراً من شعراء صقلية: وجمع لهم فيه عشرين ألف بيت شعر بمقدار مائة بيت لكل شاعر مع شىء من النقد والمفاضلة. وكانت طريقته التى اتبعها فى تأليف هذا الكتاب أن يطلب من كل شاعر أن ينفذ إليه بشىء من شعره، وقد كتب إليه أحد الشعراء — ويدعى أبا الفتح أحمد ابن الشامى — حين تأليف الكتاب[4]:

أبا قاسم والفضل فيك سجية ... وأنت بكل المعلوات خليق

ومن مجده فوق السماك محلق ... ومنصبه فى المكرمات عريق

يكلفنى إظهار ما قد نظمته ... ليالى غصن ناضر ووريق

وإذ لمتى تحكى خوافى ناعب ... وعندى لوصل الغانيات طريق

(١) إنباه الرواة على إنباه النحاه ١/٢٦٥ – ٢٦٦.

(٢) بغية الوعاه ص٣٣١ – ٣٣٢.

(٣) وفيات الأعيان ٣/١٢.

(٤) الخريدة ١/٤/١٣٧.

فكـن سـائرا عـورات خلـك إنـه	شـقيقك، والخـل الـصديق شـقيق

وظـل ابن القطاع يسهم بجهوده فى صقلية إلى أن أشرف النورمان على تملكهـا، فقـوض خـيامه مـنها، ورحـل عـنها إلى الأنـدلس أولا، ونـزل فـى سرقسطة، وكانـت شـهرته قد سبقته إلى هناك، فكتب إليه أبو الفضل يوسف ابن حسداى الوزير الهارونى بسرقسطة حين دخلها[1]:

أعـيذك بـالله مـن فاضـل	أديـب تداعـى علـى صـحبه
فأعـرض محتقـرا بـزهم	وكـل يـنافس فـى جلـبه
فلمـا أذاع لديـنا سـرائـ	ـر مـا كـان أودع فـى قلـبه
جـلا كـل معجـزة مـن نظـيـ	ـم لآلـئه وحلـى عـصبه
فهـل جـاز سمعـا ولم يلهـه	ومـر بقلـب ولم يـصبه

فأجابه ابن القطاع مرتجلا:

بـدأت بفعـل أتـاه الكـريم	ولا غـرو مـنك ابـتداء بـه
لأنـك مغـرى بفعـل الجمـيل	مهـين لمـا عـز فـى كـسبه
أتتنـى أبـياتك الـرائقات	بـشأو بعـيد علـى قـربه
ونظـم جـلا الـنظم فـى أفقـه	وحلـى لـه الحلـى فـى قطـبه
فأنطقنـى حـسنه واجـترأت	وقلـت مـن الـشعر فـى ضـربه
وعـولت فـيه علـى فـضله	ومـا خـصه الله مـن أربـه

وقـد واصـل جهـوده الأدبية فى الأندلس، فألف هناك كتابين هما "لمح الملح" وهـو مجمـوعة شـعرية جمـع فيه خلقا من شعراء الأندلس كما يذكر ابن خلكان[2]. وكتاب "الملح العصرية" ولكن إقامته فى الأندلس لم تدم طويلا، فقرر الرحيل إلى مصر فوصلها فى حدود سنة ٥٠٠ هـ، فاستقبل بكل حفاوة، وبالغ أهـل مـصر فـى إكرامه[3]. وأقـام فـى القاهرة يعلم ولد الأفضل الجمالى بن أمير

(١) إنباه الرواة على أنباه النحاة ٢/ ٢٣٧ - ٢٣٨.
(٢) وفيات الأعيان ٣/ ١١.
(٣) المصدر نفسه ٣/ ١٢.

الجيوش[1]. وتصدر للإفادة والاستفادة وأصبح إمام وقته بمصر فى علم العربية وفنون الأدب[2]. وأخذ عنه العلم كثيرون منهم الشاعر المصرى أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة القرشى[3]. ويبدو أن شهرته وذيوع صيته قد أحفظت عليه بعض المصريين فاتهموه بالتساهل فى الرواية[4] مع أننا نملك من الشواهد ما يدل على تشدده وتحفظه، فقد روى أحد تلاميذه. واسمه أبو العز نصرون بن فتحون الخزرجي وكان من خواص أصحابه وقرأ عليه كثيرا من كتب اللغة — روى أنه مرض مرضا شديدا، احتاج معه إلى شيء من المال، فباع كتبا أدبية وغير أدبية ومن جملتها صحيح البخارى وصحيح مسلم، فذكر ذلك بعد إفاقته من مرضه لابن القطاع وغضب عليه غضبا شديدا وقال: "كنت تقنع ببيع كتب الأدب، فعنها عوض، وتترك عندك الصحيحين. هل رأيت مسلما يخرج الصحيحين من داره"؟ ولم يزل يردد ذلك حتى استحيى ابن فتحون من نفسه ومن الحاضرين وندم غاية الندم[5].

ومهما يكن من أمر، فقد ترك ابن القطاع فى مصر آثارا لا تنكر، واستطاع هذا اللاجيء الصقلى، فى أرض هجرته، أن يسهم معلما وأديبا وعالما لغويا فى ازدهار آداب مصر الفاطمية[6].

وصنف ابن القطاع فى مصر مصنفات كثيرة فى اللغة والأدب، منها كتاب (الأفعال) أحسن فيه كل إحسان، ووصف بأنه أجود من الأفعال لابن القوطية، وكتاب "أبنية الأسماء" وفيه دلالة خطيرة على كثرة اطلاعه[7].

---

(١) بغية الوعاة ص٣٣١ – ٣٣٢ .

(٢) المصدر نفسه ص٣٣١.

(٣) معجم السلفى (مخطوط) ورقة ٤٢٦، وابن مكنسة من شعراء مصر فى أوائل القرن الخامس الهجرى، ترجم له العماد فى الخريدة – قسم شعراء مصر جـ٢ ص١٠٣ – ٢١٥.

(٤) بغية الوعاة ص٣٣١ – ٣٣٢.

(٥) معجم السلفى ورقة ٤١٦.

(٦) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص٧٣.

(٧) وفيات الأعيان ٣/ ١١ .

و"شرح الأمثلة"، و"المجموع الأدبى"[1] كما ألف كثيرا فى العروض مثل (الشافى فى علم القوافى) ورسائل أخرى[2]. وظل مقيما بمصر باحثا ومؤدبا ومعلما حتى توفى بها سنة ٥١٥هـ ودفن بقرب الشافعى[3].

وقد ذكر ابن خلكان أن لابن القطاع شعراً ولكنه ضاع ولم يصلنا منه إلا نماذج قليلة أكثرها فى وصف الخمر والغزل. وتتردد فى غزله التشبيهات والمعانى التقليدية من مثل قوله[4]:

إذا ابتسمت يوما رأيت بثغرها ... سموطا من الياقوت قد رصعت درا
وإن سفرت عاينت شمسا منيرة ... ترد عيون الناظرين لها حسرى
وتسلب عيناها العقول إذا رنت ... كأن بعينيها إذا نظرت سحرا

وله بعض مقطوعات فى الغزل بالمذكر مثل قوله وأضمر اسم حمزة[5]:

يا من رمى النار فى فؤادى ... وأنبط العين بالبكاء
إسمك تصحيفه بقلبى ... وفى ثناياك برء دائى
أردد سلامى فإن نفسى ... لم يبق منها سوى الدماء
وارفق بصب أتى ذليلا ... قد مزج اليأس بالرجاء
أنهكه فى الهوى التجنى ... فصار فى رقة الهواء

ومن شعره فى الزهد قوله[6]:

فيا نفس عدى عن صباك فإنه ... قبيح برأس بالمشيب معمم
أفق إن فى خمسين عاما لحجة ... على ذى الحجى إن لم يكن قلبه عمى

ولكن هذه النماذج القليلة لا تكفى للحكم على شاعرية ابن القطاع، وتقويمها تقويما صحيحا.

---

(١) أنباه الرواة ٢/ ٢٣٧.
(٢) كشف الظنون - المكتبة الصقلية ص٧٠٣.
(٣) بغية الوعاة ص٣٣٢.
(٤) الخريدة ٥٢/١/٤ - ٥٣.
(٥) عنوان الأريب ١٢٤/١.
(٦) الخريدة ٥٢/١/٤.

البلنوبى

هو أبو الحسن على بن عبد الرحمن بن أبى البشائر المعروف بالبلنوبى نسبة إلى بلنوبة وهى بليدة بجزيرة صقلية[1].

كان أبوه رجلا صالحا روى أنه ختم القرآن ألف ختمة ومائتين وأنه حج غير مرة[2]. وكان مؤدبا للتجيبى البرقى صاحب شرح المختار من شعر بشار، كما كان أخوه عبدالعزيز شاعرا وتحتفظ له المصادر ببعض المقطوعات الشعرية[3].

وقد نشأ البلنوبى فى صقلية، وتلقى علومه بها، ولكنه لم يستطع البقاء فيها فى ظل حكم النورمان، فخرج منها فاراً بمهجته، مهاجراً إلى مصر واستقر به المقام بالإسكندرية، واشتغل بالتدريس فيها، فدرس عليه كثير من أبنائها مثل الفقيه الخريمى الذى روى شعره، وأبى الحسن بن يوسف الدمراوى اللخمى، وكان يقرأ عليه النحو والعروض ويأخذ برأيه فى كثير من المسائل[4].

واشتغل البلنوبى بالكتابة أيضاً. ويقول عنه السلفى: "وأبو الحسن هذا من كتاب الثغر، وكان أعرف الناس بالخطوط وأثمان الكتب، وقد اشتريت منه كثيرا، وعلقت عنه فوائد أدبية وحكايات"[5]. وأثنى أبو الصلت على بلاغته ووصفه بأنه من أهل العصر[6].

واتصل البلنوبى — فى مصر — بعدد كبير من الحكام والوزراء ومدحهم نذكر منهم الأفضل بن بدر الجمالى. والناصر للدين أبا محمد اليازورى، وبنى الموقفى، وسماء الرؤساء وشمس الكفاة أبا الحسن على بن أحمد المدبر وغيرهم.

---

(١) أنظر معجم البلدان لياقوت مادة بلنوبة.
(٢) معجم السلفى "مخطوط" ورقة ٢٨٤.
(٣) أنظر معجم البلدان لياقوت. مادة بلنوبة.
(٤) معجم السلفى. ورقة ٩٤.
(٥) معجم السلفى ورقة ٤٨٣.
(٦) رسالة ابن أبى الصلت نوادر المخطوطات، المجموعة الأولى، تحقيق عبد السلام هارون ص٢٢.

شعره :

وللبلنوبى مجموعة شعرية محفوظة فى مكتبة الأسكوريال تحتوى على مائتين وستة وعشرين بيتا، كما احتفظ العماد الأصفهانى بجزء من شعره، ولكننا لا نجد فى هذه الأشعار ما يشير من قريب أو من بعيد إلى صقلية، بل على العكس، يشعر القارئ أنه يعيش فى جو مصرى، فقد سرد البلنوبى فيها حوادث تاريخية وقعت فى عهد المستنصر وعلى وجه الدقة روى نتائج المؤامرة التى دبرها الوزير اليازورى وقام بتنفيذها البساسيرى فى بغداد[1]. وهذا يعنى أن البلنوبى ذاب فى البيئة الجديدة التى هاجر إليها، وطبع شعره بطابعها، ولذلك فمن السهل أن يحس القارئ بالروح المصرى فى كثير من قصائده كأن يقول مثلاً فى وصف وقوع الشعاع على صفحات النيل[2]:

شربنا مع غروب الشمس شمسا ... مشعشعة إلى وقت الطلوع
وضوء الشمس فوق النيل باد ... كأطراف الأسنة فى الدروع

وقد استنفد البلنوبى معظم شعره فى المدح، وكان يتخذه وسيلة للتكسب ويشير إلى ذلك فيقول فى إحدى مدائحه[3]:

بأيادى محمد أصبح الشعر ... خطير الأثمان والأرباح
كاد فيه المديح يخطر زهوا ... بين عرض حمى ومال مباح

ويأتى الغزل فى المرتبة الثانية من شعر البلنوبى، ولكنه لا يسلك فيه مسلكا واحدا، فقد يعف أحيانا، وقد يتبذل أحيانا أخرى، ونراه يكثر من الحديث عن الجسارة والفتك بالمحبوب من مثل قوله[4]:

تعجلت ذنبا بفتكى به ... ولكنه من مليح الذنوب

وقوله[1]:

---

(١) تاريخ الأدب العربى فى صقلية ص١٢٣ ولمعرفة المزيد عن المؤامرة المشار إليها انظر كتاب "سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة تحقيق محمد كامل حسين القاهرة سنة ١٩٤٩".

(٢) الخريدة ٤ / ١ / ٥.

(٣) ديوان البلنوبى "مخطوط" ورقة ٣.

(٤) الخريدة ٤ / ١ / ٦.

لو تجاسرت على الفتك به   لم أعد أقرع سني ندما

وقوله أيضاً[٢] :

عزمت على فتك بطيفك في الكرى   فماذا ترى مولاي أنت وسيدي

ويتميز غزله بالرقة والعذوبة، وربما كان يفوق غيره من شعراء الصقليين في هذه الناحية، فمن ذلك قوله[٣] :

لا بذاك الدنو تفديك نفسي   يا مناها ولا بهذا البعاد

هبك أصبحت لا تراعي اشتياقي   فارع ما كان بيننا من وداد

شقيت بالسهاد فيك جفون   فهنيئا لغيرها بالرقاد

ويساير البلنوبي الشعراء الصقليين في كلفهم بالخمر، وإيمانهم بها، واتخاذها غاية يحققون اللذة عن طريقها، ونستطيع أن نلمس ذلك في مثل قوله[٤] :

ألا إنما الدنيا مدام ومؤنس   يميتك أحيانا ويحييك أحيانا

ويقول في خمرية أخرى[٥] :

أيها اللائم الذي حسب اللوم   صلاحا ما فيه لي من صلاح

خلني أغتنم سعادة عمري   في اغتباق مردد واصطباح

ومن الجوانب البارزة في شعره الإكثار من الرسائل الشعرية، وهي من آثار اشتغاله بالكتابة، ولكنها تتميز بالرقة ولاسيما رسائله الغزلية من مثل قوله[٦] :

كتبت فهلا إذ رددت جوابي   جعلت الرضا عني مكان عتابي

لئن كان ذنبي أنني لم أزركم   لفقدي للقياكم أشد عقاب

---

(١) الخريدة ٤ / ١ / ١٤.
(٢) ديوانه "مخطوط" ورقة ٣.
(٣) المصدر نفسه ورقة ٩.
(٤) المصدر نفسه ورقة ٨.
(٥) المصدر نفسه ورقة ٢.
(٦) الخريدة ٤/ ١/ ٦.

وتدل أشعار البلنوبى على أنه كان يتقيد فى أغراضه بتقاليد الشعر المعروفة ولكن أسلوبه يتميز بالرقة من مثل قوله[1]:

يرى الفتى فى الشعر أفعاله ... وإنما الشعر له كالمراء

واقترب أسلوبه من لغة النثر العادية أو من لغة العامة، من مثل قوله[2]:

أدعو عليك وقلبى ... يقول : يا رب لا لا

ولكنه قد يكون أكثر الشعراء الصقليين التفاتا إلى البديع وإسرافا فيه ولاسيما الجناس والطباق. ونستطيع أن نلمس هذا فى مثل قوله مجانسا[3]:

نهاك أهلك عنى ... من أجل أهلك أهلك

ويقول مطابقا[4]:

ومهما علمت فلا تجهلى ... فإن المحب سعيد شقى

ويقول جامعا بين الجناس والطباق[5]:

من عاذرى من عاذل كلمته ... بالعرض وهو مكلمى بالطول

ولم يسلم شعره من بعض مظاهر الصنعة مثل الإكثار من الألغاز والتعمية فمن ذلك قوله ملغزا[6]:

إسم الذى أضحى فؤادى به ... معذبا صبا بتعذيبه
إن صيروا أوله ثانيا ... غدا اسمه بعض صفاتى به[7]

ولا نستطيع أن نمضى مع البلنوبى إلى أبعد من ذلك لأن أشعاره الباقية كلها فى مدح الوزراء والعظماء المصريين، ولا ينبغى لنا بطبيعة الحال أن نقف عندها لأنها بعيدة عن موضوع البحث.

---

(١) ديوانه "مخطوط" ورقة ٢ – ٣.
(٢) الخريدة ٤/ ١/ ١٣.
(٣) المصدر نفسه ص١٢.
(٤) المصدر نفسه ص١٢.
(٥) ديوانه "مخطوط" ورقة ٥.
(٦) الخريدة – ٤/ ١/ ١٦.
(٧) يقصد الشاعر اسم "تميم" وبالتغيير الذى يشير إليه يتحول إلى "متيم".

خاتمة البحث ونتائجه

تناولت فى الأبواب السابقة موضوع "الشعر العربى فى صقلية فى القرن الخامس الهجرى" وقد اشتمل هذا البحث على مقدمة وثلاثة أبواب. وتحدثت فى المقدمة عن سبب اختيار البحث ولماذا حددته بالقرن الخامس ثم أشرت إلى أهم المصادر التى اعتمدت عليهما وتحدثت عن خطوات البحث ومراحله.

ويمكن القول بأن هذا البحث استطاع أن يتوصل إلى بعض النتائج الجديدة، فقد أثبت أن المؤثرات المشرقية كانت قوية فى الشعر الصقلى وكان من مظاهر هذا التأثير المحافظة على نهج القصيدة العربية ومعارضة بعض الشعراء المشارقة، وأثبت ان هذا التأثير كان طبيعياً لأن عناصر تكوين الثقافة الأدبية كانت واحدة فى كل من المشرق وصقلية.

وأثبت أيضاً أن البيئة الصقلية كان لها أثر بارز فى الشعر الصقلى، فقد تأثر الشعر بحياة الجهاد التى عاشتها صقلية، كما تأثر بالطبيعة الصقلية الساحرة، ونجح فى أن يصور لنا مظاهر الحياة الحضرية فى المجتمع الصقلى، فصور الصقليين فى لهوهم وغنائهم وإقبالهم على صور حياة الزهد والورع التى عاشها بعض الصقليين كما نجح فى تصوير مأساة صقلية وسقوطها فى يد الأعداء وأثر ذلك فى نفوس الشعراء كما بدا فى نزعة الحنين إلى الوطن والشعور بالغربة.

وأثبت هذا البحث أن البيئة الصقلية تحكمت فى توجيه موضوعات الشعر، فقد ساعدت على اتساع بعضها كالغزل والرثاء، وأدت من ناحية أخرى إلى تضييق دائرة بعضها كالفخر وشعر الحكمة واختفاء غرض كامل هو الهجاء بتأثير البيئة الحضرية الجديدة.

وأثبت هذا البحث أيضاً أن البيئة الصقلية أثرت فى لغة الشعر وأسلوبه، كما أثر شيوع الغناء فى أوزانه وقوافيه.

وفـى الـباب المخـصص للـشعراء كشفنا النقاب عن بعض الشعراء الذين وفـدوا إلى صـقلية من البيئات الأدبية الأخرى للتكسب بشعرهم والتمتع بطبيعة صقلية.

واسـتطاع الـبحث أن يلقـى الضوء على حياة أشهر الشعراء الصقليين، فأفـردت صـفحات كـثيرة لابـن حمـديس أعظـم شـعراء صـقلية، واستطعت أن أكـشف عـن بعـض الجـوانب الـبارزة فـى شـعره مـثل شـعر الحـنين والـشعر الإنساني، كما حاولت أن أضعه فى مكانه الصحيح بين الشعراء العرب.

كمـا اسـتطاع البحث أن يعرف لأول مرة ببعض الشعراء الذين أهملتهم المـصادر، ولم يظفـروا بعـناية الباحـثين المحـدثين، فكنت أول من عرف بأبى العرب وابن الطوبى والبلنوبى وغيرهم.

وبالإضـافة إلى هـذه النـتائج اسـتطاع الـبحث أن يفـيد مـن بعـض المخطوطات التى لها صلة بموضوع البحث إفادة كبرى.

واستطيع من خلال دراستى للشعر الصقلى أن ألفت أنظار الباحثين إلى ما يأتى:

أولاً: إن فـى تراثنا الأدبى كثيراً من المصادر الخطية على قدر كبير من الأهمـية ولكـنها لم تر النور بعد، فما تزال هناك أقسام من كتاب الذخيرة لابن بسلم لم تحقق بعد برغم احتوائها على تراجم وأخبار فى غاية الأهمية، وهناك أيـضاً جـزء مـن كـتاب المغـرب فـى حلـى المغـرب لابن سعيد مايزال مخطوطا ويختص بالشعراء الصقليين والمغاربة.

وتـوجد أيـضاً مخطـوطة لكـتاب مختـصر الـدرة الـذى ألفه ابن القطاع وترجم فيه لمائة وسبعين شاعرا صقلياً واختصره أبو إسحاق بن أغلب، وما يزال إلى الآن فـى دائـرة الظـل مـع أهميته القصوى فى التعريف بالحياة الأدبية فى صقلية.

ويمكن أن يقال مثل هذا على معجم السفر للسلفى الذى يحتفظ بقدر كبير من تراجم الصقليين وأشعارهم، وعلى ديوان البلنوبى الشاعر الصقلى.

وعسى الله أن يوفقنا فى العمل على تحقيق بعض هذه المخطوطات، والمساهمة فى هذا العمل العلمى الجليل[1].

ثانياً: تؤكد هذه الدراسة ضرورة الاهتمام بدراسة الشعر المغربى والأندلسى والصقلى، فما تزال هذه البيئات فى حاجة إلى بحث، وما تزال هناك جوانب كثيرة لم تظفر بالعناية والبحث.

وإنى لأرجو أن يكون هذا البحث قد نجح فى دراسة الشعر الصقلى دراسة منهجية متأنية عميقة، وأن يكون قد كشف الضوء عن شعراء صقلية الذين لم يحظوا باهتمام الباحثين المحدثين.

والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل،

---

(١) كانت هذه الأعمال مخطوطة أثناء إعداد الكتاب وقد حققت ونشرت فيما بعد.

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر الخطية :

١- ديـوان البلنوبـى روايـة الفقيه الخريمى، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم ٤٦٧.

٢- الـذخيرة فـى محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الثانى، نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٠٤٦.

٣- مختـصر الكتاب المنتخل من الدرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة اختيار أبى إسـحاق ابن أغلب، نسخة مصورة رقم ٢٢١٦ تاريخ المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية نقل من خزانة باريس سنة ١٣٤٤هـ.

٤- معجـم الـسفر لأبـى طاهـر الـسلفى، نـسخة مصورة رقم ٣٩٣٢ تاريخ بدار الكتب المصرية[١].

٥- المغـرب فـى حلى المغرب لابن سعيد المغربى، الجزء الرابع، مخطوطة رقم ٢٧١٢ تاريخ بدار الكتب المصرية.

(١) طبعت بعض هذه المصادر بعد اعداد الكتاب.

ثانياً : المصادر المطبوعة :

١- ابن حمديس، تأليف على مصطفى المصراتى. ط. دار المعارف بمصر.

٢- ابن زيدون، تأليف د. شوقى ضيف، ط. دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

٣- الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة. للدكتور أحمد هيكل ط. دار المعارف، الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٠م.

٤- الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط، تأليف إبراهيم العدوى ط. نهضة مصر بالفجالة.

٥- إشبيلية فى القرن الخامس الهجرى، للدكتور صلاح خالص، ط. دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٦٥م.

٦- الأمويون والبيزنطيون، للدكتور إبراهيم العدوى، ط. مكتبة الأنجلو المصرية.

٧- أعمال الأعلام، للسان الدين بن الخطيب، القسم الثالث، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى، ط. الدار البيضاء ١٩٦٦م.

٨- إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تأليف جمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى، ط. مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ.

٩- إنباه الرواه على أنباه النحاه، للقفطى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ثلاثة أجزاء، ط. دار الكتب المصرية ١٩٥٠.

١٠- بدائع البدائه، تأليف على بن ظافر الأزدى، ط. دار الطباعة المصرية سنة ١٢٧٨هـ.

١١- بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس، تأليف أحمد بن يحيى الضبى المتوفى سنة ٥٥٩هـ. ط. مجريط سنة ١٨٨٤.

١٢- بغية الوعاة، تأليف جلال الدين السيوطى، ط. الخانجى.

١٣- بلاغة العرب فى الأندلس، تأليف أحمد ضيف، مطبعة مصر، الطبعة الأولى سنة ١٩٢٤م.
١٤- البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن عذارى المراكشى، مطبعة المناهل بيروت سنة ١٩٥٠م.
١٥- تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) تأليف د. إحسان عباس، ط. دار الثقافة ببيروت، الطبعة الثانية سنة ١٩٧١م.
١٦- تاريخ الأدب الأندلسى، تأليف إبراهيم أبو الخشب، ط. دار الفكر العربى بالقاهرة.
١٧- تاريخ الأدب العربى فى صقلية، تأليف أمبرتو ريزيتانو، منشورات الجامعة الأردنية، ط. عمان سنة ١٩٦٥.
١٨- تاريخ جوهر الصقلى، تأليف على إبراهيم حسن، مطبعة حجازى بالقاهرة، الطبعة الأولى سنة ١٩٢٣.
١٩- تاريخ العرب السياسى، تأليف فيليب حتى، ترجمة محمد مبروك نافع، ط. مطبعة دار العالم العربى بالقاهرة، الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٢.
٢٠- تاريخ قضاة الأندلس، تأليف أبى الحسن بن عبدالله النباهى، نشرة ليفى بروفنسال، ط. دار الكاتب المصرى، القاهرة سنة ١٩٤٨ الطبعة الأولى.
٢١- تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، تأليف ابن مكى الصقلى تحقيق د.عبدالعزيز مطر، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامى، القاهرة سنة ١٩٦٦.
٢٢- تراث الإسلام: تأليف جب وآخرين، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة سنة ١٩٣٦م.
٢٣- تراجم أغلبية (مستخرجة من مدارك القاضى أبى الفضل عياض المتوفى سنة ٥٤٤ هـ) تحقيق محمد الطالبى، ط. المطبعة التونسية ١٩٦٨م.

٢٤- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس. تأليف أبى عبدالله محمد بن الكتانى تحقيق د. إحسان عباس، ط. دار الثقافة بيروت.
٢٥- تطور الأدب الحديث فى مصر، للدكتور أحمد هيكل، ط. دار المعارف، سنة ١٩٦٨م.
٢٦- التكملة لكتاب الصلة، تأليف أبى عبدالله محمد بن أبى بكر القضاعى البلنسى المعروف بابن الأبار، ط. مجريط ١٨٨٦م.
٢٧- التنبيه على حدوث التصحيف، تأليف حمزة بن الحسن الأصبهانى، تحقيق محمد حسن آل ياسين، ط. مكتبة النهضة ببغداد، الطبعة الأولى ١٩٦٧م.
٢٨- جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس، تأليف أبى عبدالله محمد بن فتوح الحميدى المتوفى سنة ٤٨٨هـ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى، ط. مطبعة السعادة بمصر.
٢٩- حضارة الإسلام، تأليف جوستاف جرونيباوم ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة عبدالحميد العبادى، ط. دار مصر للطباعة (مجموعة الألف كتاب).
٣٠- حضارة العرب، تأليف جوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٩٤٨م.
٣١- حلبة الكميت، تأليف شمس الدين محمد بن الحسن النواحى، المتوفى سنة ٨٥٩هـ، ط. بولاق سنة ١٢٧٦هـ.
٣٢- الحلة السيراء، تأليف ابن الآبار. تحقيق د. حسين مؤنس، ط. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣. الجزء الثانى.
٣٣- خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهانى:

أ- القسم الرابع، الجزء الأول، تحقيق عمر الدسوقى وعلى عبدالعظيم، ط. دار نهضة مصر للطباعة والنشر سنة ١٩٦٤م.
ب- قسم شعراء المغرب، تحقيق محمد المرزوقى وآخرين، الجزء الأول، ط. تونس ١٩٧٣م.
جـ- قسم شعراء مصر، تحقيق الدكاترة أحمد أمين وشوقى ضيف وإحسان عباس، الجزء الثانى، ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر.
٣٤- دائرة المعارف الإسلامية، الجزء الثانى مادة (بنو الأغلب).
٣٥- دراسات أدبية فى الشعر الأندلسى، تأليف سعد إسماعيل شلبى، ط. دار نهضة مصر.
٣٦- دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، تأليف د. أحمد مختار العبادى، الطبعة الأولى - الإسكندرية ١٩٤٨.
٣٧- ديوان ابن حمديس، تحقيق د. إحسان عباس، ط. بيروت ١٩٠٦.
٣٨- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، تأليف ابن بسام الشنترينى، القسم الرابع الجزء الأول، ط. لجنة التأليف والترجمة، القاهرة ١٩٤٥.
٣٩- رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد المغربى، تحقيق النعمان عبدالمتعال القاضى، ط. مطابع الأهرام التجارية القاهرة سنة ١٩٧٣.
٤٠- رحلة ابن جبير (فى مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية) نشر د.حسين نصار، ط. دار مصر للطباعة.
٤١- رحلة الأندلس، تأليف محمد البتنونى، مطبعة الكشكول بالقاهرة ١٩٢٧.
٤٢- رسالة ابن أبى الصلت، نوادر المخطوطات، المجموعة الأولى، نشر عبدالسلام هارون.

٤٣- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية، تأليف أبي بكر عبدالله ابن أبي عبد المالكي، نشر حسين مؤنس، ط. مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى ١٩٥١.

٤٤- شرح المختار من شعر بشار، تأليف أبي طاهر التجيبي البرقي، ط. لجنة التأليف والترجمة.

٤٥- الشعر الأندلسي (بحث في تطوره وخصائصه) تأليف إميليو غرسيه غومس، ترجمة حسين مؤنس، ط. لجنة التأليف والترجمة ١٩٥٢.

٤٦- شعر الطبيعة في الأدب العربي، تأليف سيد نوفل، ط. مطبعة مصر ١٩٤٥.

٤٧- صورة الأرض، تأليف أبي القاسم بن حوقل، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.

٤٨- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس (تأليف ابن أبي القاسم خلف بن بشكوال، ط. مجريط ١٨٨٣.

٤٩- العبر وديوان المبتدأ والخبر، تألف ابن خلدون، ط. بولاق القاهرة ١٢٨٤ هـ.

٥٠- العرب والروم، تأليف أ.أ. فازيلييف، ترجمة محمد عبدالهادي شعيرة ط. دار الفكر العربي بالقاهرة.

٥١- العرب في صقلية، تأليف د. إحسان عباس، ط. دار المعارف بمصر.

٥٢- العصر العباسي الثاني، تأليف د. شوقي ضيف، ط. دار المعارف بمصر.

٥٣- عصر القيروان، تأليف أبي القاسم محمد كرو وعبدالله شريط، ط. دار المغرب العربي، تونس ١٩٧٣.

٥٤- العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، تأليف د. عبدالمنعم ماجد ط. مكتبة الجامعة العربية، بيروت ١٩٦٦.

٥٥- العمدة فى صناعة الشعر ونقده، تأليف ابن رشيق القيروانى، ط. الخانجى.
٥٦- عنوان الأريب عما نشأ بالملكة التونسية من عالم أديب، تأليف الشيخ محمد النيفر المطبعة التونسية، الطبعة الأولى ١٣٥١هـ.
٥٧- فن الشعر تأليف الدكتور محمد مندور، دار القلم، القاهرة ١٩٦٠.
٥٨- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، تأليف د. شوقى ضيف، ط. دار المعارف بمصر، الطبعة الرابعة.
٥٩- فى الأدب الأندلسى، تأليف جودت الركابى، ط. دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠.
٦٠- قصة الأدب فى الأندلس، تأليف محمد عبدالمنعم خفاجة، منشورات مكتبة المعارف ببيروت، الجزء الثانى.
٦١- الكامل فى التاريخ تأليف عز الدين بن الأثير، ط. دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٦، من الجزء الخامس إلى الجزء العاشر.
٦٢- لحن العامة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة تأليف عبدالعزيز مطر، ط. الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦.
٦٣- المازرى، تأليف حسن حسنى عبدالوهاب، نوابغ المغرب العربى، ط. دار الكتب الشرقية بتونس.
٦٤- محاضرات جويدى (أربعون محاضرة)، ط. مجلة الجامعة المصرية.
٦٥- المحمدون من الشعراء وأشعارهم، تأليف على بن يوسف القفطى، تحقيق حسن معمرى، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر بالرياض، مطبعة المثنى ببيروت ١٩٧٠.
٦٦- مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى، تأليف سيد أمير على، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٣٨.

٦٧- المسلمون في صقلية، تأليف مارتينو ماريو، منشورات الجامعة اللبنانية بيروت ١٩٥٧.
٦٨- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، تأليف أحمد توفيق المدني، نشر الشركة الوطنية للنشر، الجزائر ١٩٦٩.
٦٩- المعجزة العربية، تأليف ماكس فانتاجو، ترجمة رمضان لاوند، بيروت سنة ١٩٥٤.
٧٠- معجم البلدان، تأليف شهاب الدين ياقوت الحموى الرومى البغدادى، ط. ليبزج ١٨٦٩.
٧١- المغرب الكبير، تأليف د. السيد عبدالعزيز سالم، جـ٢، الإسكندرية ١٩٦٦.
٧٢- المكتبة الصقلية، جمع ميشيل آمارى، ط. ليبزج، جزءان.
٧٣- النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف، تأليف عبد العزيز الميمنى الراجكوتى، ط. المطبعة السلفية، القاهرة ١٣٤٣هـ.
٧٤- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، تأليف أبى عبدالله محمد بن عبدالله الإدريسى، طبع بمدينة روما ١٧٧٨.
٧٥- نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، تأليف شهاب الدين أحمد ابن محمد المقرى، تحقيق محمد محيى عبدالحميد، ط. مطبعة السعادة بمصر ١٩٤٩.
٧٦- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تأليف أبى العباس أحمد بن محمد ابن أبى بكر بن خلكان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، نشر مكتبة النهضة المصرية، مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الأولى ١٩٤٨.

ثالثاً: الدوريات :

١- مجلة أبوللو، المجلد الأول، مقال بعنوان (الرقص الأجنبى فى شعر ابن حمديس) للأستاذ أحمد زكى أبو شادى.

٢- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، منتخبات من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار، نشر أمبرتو ريزيتانو، المجلد الثامن عشر مايو ١٩٥٦.

٣- مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، مقال لأمبرتو ريزيتانو بعنوان (صفحة من تاريخ العلاقات بين غليالم الثانى النورماندى وصلاح الدين الأيوبى) المجلد الخامس ١٩٤٩.

٤- مجلة المقتطف، مقال بعنوان (المدينة العربية فى صقلية من سنة ٢١٣هـ ٤٨٤هـ) بقلم الأستاذ أمين الخولى، عدد فبراير ١٩٢٣.

رابعاً : المراجع الأجنبية :

1- History of the Moorish Empire in Europe by S. P. Scott Vol. 2. London 1904.

2- La Berberie Musulmana et L'orient au Moyen Age, by Marcais – Paris 1946.

3- Poesie und Kunst der Araber in Spanien und Sicilien, Vol. 2 by Schack.

4- Sicily (Phoenician, Greek and Roman) by Edward Freman London 1926.

5- Stroeia dei Musulmani di Sicilia by Michele Amari. 3 vols. Seconda ediziene, Catania 1939.

فهرس

الموضــوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة
الباب الثالث : الشعـراء	٢٧٧
الفصل الأول: الشعراء الوافدون	٢٧٩
الفصل الثانى: الشعراء الصقليون	٢٨٩
ابن حمديس	٢٩٤
ابن الخياط	٣٢٥
ابن الطوبى	٣٣٠
أبو العرب	٣٣٤
ابن القطاع	٣٣٩
البلنوبى	٣٤٣
خاتمة البحث ونتائجه	٣٤٧
المصادر والمراجع	٣٥٣

تم بحمد الله

مع تحيات
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
تليفاكس: ٥٢٧٤٤٣٨ - الإسكندرية